

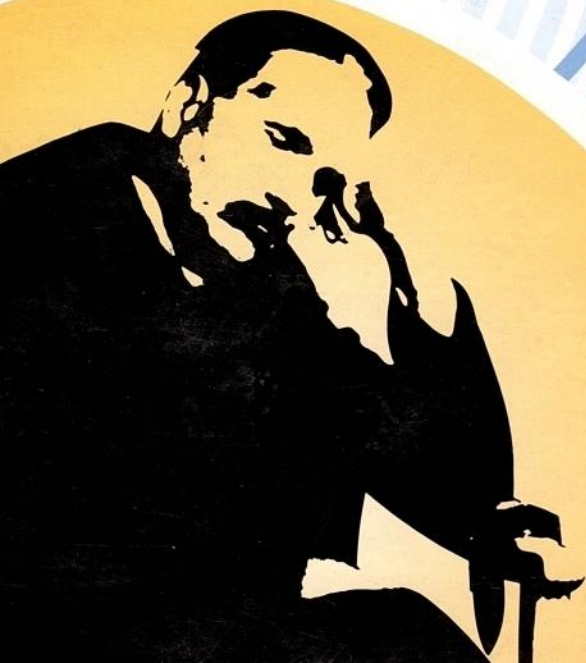
إقبال و ديوان أرمغان حجاز

(هدية الحجاز)

عصره. فكره. أدبه. ترجمة الديوان

تأليف

د. سمير عبد الحميد إبراهيم



إقبال

و

ديوان أرمغان حجاز

(هدية الحجاز)

عصره - فكره - أدبه - ترجمة الديوان

تأليف

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

أكاديمية اقبال الباكستانية

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

محمد سهيل عمر

ناظم

اقبال اكاڊمى پاڪستان

دور سادس، ايوان اقبال

شارع ايجرتن، لاهور

Tel: [+92-42] 6314-510

Fax: [+92-42] 631-4496

Email: iqbalacd@lhr.comsats.net.pk

Website: www.allmaiqbal.com

ISBN 969 - 416 - 322 - 6

الطبعة الاولى: ۱۳۹۶ھ-۱۹۷۶م

الطبعة الثانية: ۱۴۱۳ھ-۱۹۹۲م

الطبعة الثالثة: ۱۴۲۰ھ-۱۹۹۹م

الطبعة الاربعة: ۱۴۲۵ھ-۲۰۰۴م (اكادمى ايديشن)

تعداد: ۱۰۰۰

الثمن: ۳۰۰ روپيه

۲۰ امريكى ڊالار

مطبع: برنت ايكسپريٽ، لاهور

محل فروخت: ۱۱۶ شارع ميكلود، لاهور فون: ۷۳۵۷۲۱۴

الإهداء

من مصر الحبيبة . . .

وعلى أرض باكستان الخالدة . . .

أقدم إلى الحجاز الأرض الطاهرة . . .

” إقبال ومدينة الحجاز ”

تقديم

هذا الكتاب عن علامه محمد إقبال: عصره و فكره و أدبه مع ترجمة ديوانه "هدية الحجاز" (أرمغان حجاز) و دراسته دراسة تحليلية، يصدر في طبعته الثالثة المنقحة عن أكاديمية إقبال في لاهور، و هو بمثابة تحية للذكراء بعد مرور 57 عاما على وفاته، وياتي ضمن الإصدارات التي تبعت عقد الندوة العالمية عن إقبال هذا العام 2003م، تلك الندوة التي تضمنت محاورها أبحاثا عن الدراسات و الترجمات المتعلقة بالمفكر و الشاعر محمد إقبال على نطاق عالمي، و شارك فيها باحثون من جميع أنحاء العالم، و منهم مؤلف هذا الكتاب الأستاذ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم أستاذ اللغات الشرقية و آدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (جامعة القاهرة سابقا).

و القصد من نشر هذا الكتاب اليوم في إطار هذه الذكرى هو بيان القيم المشتركة في آداب أعلام المفكرين المسلمين و تراثهم، يعد من أبرز هؤلاء المفكرين، فالعلامة المفكر الشاعر محمد إقبال و ياتي في مقدمة الكتاب الذين كشفوا الستار عن زيف أساليب التقيف المغرضة، و نادوا بالتمسك بقيم الحضارة العربية الإسلامية و ثوابتها.

ويعد هذا الكتاب باكورة ما قدمه المؤلف الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم من دراسات عن العلامة محمد إقبال، فقد أصدر فيما بعد "ديوان الأسرار و الرموز" (ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام) بعد أن درسه و حققه و أكمل ترجمته، و طبع في لاهور عام 1978م و في القاهرة عام 1980م، كما أصدر كتابا بعنوان "إقبال و العرب" نشر في الرياض عام 1991م كما كتب فضلا في كتاب "الأدب الأردني الإسلامي" بعنوان "محمد إقبال و حركة الإحياء الإسلامي" نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، و شارك في الندوة العالمية التي أقامتها أكاديمية إقبال هذا العام 2003م ببحث عن ترجمات شعر إقبال إلى العربية.

أما هذا الكتاب الذي يصدر في طبعته الجديدة المنقحة فهو من الكتب القيمة التي تكشف عن جوانب فكر إقبال و عن إتجاهاته الأدبية، من خلال دراسة فكر إقبال و أدبه، و من خلال ترجمة الديوان الذي كتبه إقبال حين تقدم به العمر، و لم ينشر إلا بعد وفاته، و يحتوي شعره الأردني و الفارسي على الواء، و تضمن الأفكار التي وردت في جميع دواوينه السابقة، كما ضم أنماطا مختلفة من الشعر الوجداني و الفلسفي و الشعر الإنساني الأخلاقي و حتى الشعر التمثيلي.

إن صدور هذه الطبعة عن أكاديمية إقبال يجعل لها قيمة رمزية لا تخفى على القارئ، و هو ما جعل المؤلف يحرص على أن تتولى أكاديمية إقبال نشر هذه الطبعة المنقحة، فالشكر له على هذه الثقة، و الشكر لصاحب المكتبة العلمية سيدي أستاذ عبيد الحق الندوي الذي إهتم باصدار الطبعات السابقة و بالله التوفيق.

محمد سهيل عمر
مدير

أكاديمية إقبال، لاهور (باكستان)

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فهذه هي الطبعة الثالثة لكتاب «إقبال وارمغان حجاز أي هدية الحجاز»، الذي
كان في الأصل رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة
عام ١٩٦٩م، وصدرت الطبعة الأولى في لاهور - باكستان بفضل تشجيع
أساتذتي وأخوتي بالكلية الشرقية بجامعة البنجاب، وبفضل جهود الشيخ الجليل
"مولانا عبيدالحق الندوي" صاحب المكتبة العلمية ومطبعها، وكان ذلك في سنة
١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ثم صدرت للكتاب طبعة ثانية عن نفس الدار سنة ١٤١٢هـ/
١٩٩٢م، وكانت الطبعة الثانية صورة طبق الأصل من الطبعة الأولى، ولهذا رأيت
أن أصحح بعض الأخطاء التي وردت في الطبعة الأولى والثانية، دون المساس
بمحتوى الكتاب الأصلي في هذه الطبعة الثالثة

وبالله التوفيق

د. سمير عبدالحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض - محرم ١٤٢٠هـ

مقدمة الناشر

(الطبعة الأولى)

يسر إدارة المكتبة العلمية للطبع والنشر أن تقدم إلى قراء العربية والمكتبة العربية في البلاد العربية خاصة، والبلاد الإسلامية عامة أحد مطبوعاتها، تصدره بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لمولد العلامة محمد إقبال، ألا وهو كتاب «إقبال وديوان ارمغان حجاز»، و ارمغان حجاز أو هدية الحجاز من آخر ما كتب العلامة إقبال قبل وفاته، وقد نشر بعدها.

والكتاب من تأليف الأستاذ سمير عبد الحميد إبراهيم مدرس اللغة الأردية وأدائها بقسم اللغات الشرقية بجامعة القاهرة - مصر، والموجود حالياً في كلية الدراسات الشرقية بجامعة البنجاب بدعوة من الحكومية الباكستانية للحصول على الدكتوراه في اللغة الأردية وأدائها.

وهذا الكتاب يسد فراغاً في المكتبة العربية بالنسبة لما يحتويه عن إقبال فهو لا يحتوي على ترجمة كاملة للديوان (بقسميه الفارسي والأردني) فحسب بل يشمل أيضاً دراسة مفصلة عن الشاعر المفكر، ناقش فيها المؤلف الفترة التي عاشها الشاعر والتي تعد ضرورة لفهم المسلمين لأفكار إقبال. وشملت هذه الدراسة وضع المسلمين في المجتمع الهندي، وعلاقتهم بالهندوس ثم فكرة الوحدة الإسلامية الهندوسية وفشلها، واتجاه الفكر الإسلامي لإنشاء باكستان، ويركز المؤلف بعد ذلك على دور إقبال وموقفه من حركات التجديد في الإسلام، وموقفه من فكرة القومية والوحدة الإسلامية الهندوسية، وأخيراً موقفه من فكرة إنشاء باكستان، كما يعرض المؤلف لفكر إقبال، ويناقش مصادره الفكرية الشرقية منها والغربية، وحين يستعرض أدب إقبال فهو يقدم دراسة نقدية مفصلة عن الفن الشعري عند إقبال، ورأي إقبال في فن الشعر والموضوعات الشعرية التي نظم فيها والمذهب الأدبي لإقبال وأثر الأدب العربي في أدب إقبال وبعض ابتكارات إقبال الشعرية في الخيال

والبلاغة والفصاحة في شعر إقبال . ويسوق المؤلف دعماً لآرائه بالنسبة لمكانة إقبال الشعرية في الأدب الفارسي والأدب الأردني موضوعاً هاماً وهو «الموضوعات التي نظم فيها إقبال أشعاره: الشعر الغزلي، والمثنوي، والهجاء، والرثاء، والتأريخ الشعري، والرباعيات» .

أما القسم الخاص بالديوان فيشمل بيان محتوى الديوان ثم دراسة تحليلية للديوان من ناحية الشكل والمضمون: تحليل فني للأسلوب، والصور الأدبية، والوزن والقافية والموسيقى، وتحليل الديوان إلى شعر إنساني أخلاقي، وشعر وجداني، وشعر فلسفي تعليمي بالإضافة إلى العوامل المؤثرة في المضمون وعناصر المضمون .

أما عن الترجمة فهي ترجمة نثرية صادقة يقترب فيها النثر من النوع الذي يمكن أن نطلق عليه النثر الفني، وأوضح المؤلف ما أشكل من معانٍ ومصطلحات خاصة استخدمها الشاعر .

والله نسأل أن يوفقنا بهذا إلى خدمة الفكر الإسلامي واللغة العربية، وقرأء العربية في كل مكان وأن نكون بهذا قد قدمنا للقراء الأعزاء خدمة بسيطة في مجال الطباعة والنشر .

ونسأل الله عزوجل التوفيق والسداد

الناشر

عبيد الحق الندوي

مدير وصاحب المكتبة العلمية، لاهور

باكستان

مقدمة الطبعة الأولى

من الصعب الكتابة باختصار عن رجل متعدد الجوانب يملأ مكاناً واسعاً في ميدان الشعر والفلسفة والدين والحياة القومية، ذلك أن إقبالاً هو أول رجل في الشرق فهم الحياة الغربية على حقيقتها، وهو أيضاً أول من فهم روح الإسلام ضمن نطاق النظريات الفلسفية؛ كما أنه الرجل الذي دعا وتنبأ بقيام دولة إسلامية لها كيانه المستقل في شبه القارة الهندية، وهذه كلها منجزات عظيمة ولكن الرجل كان أعظم من عمله، وكان واحداً من أولئك الذين لن ينتهي عملهم أبداً، وقد تمر آلاف السنين قبل أن يولد إقبال آخر، فقلما يوجد الزمان بالشخصيات العظيمة.

استمر الحكم الإسلامي لشبه القارة مدة ثمانمائة عام، ووصل نهايته سنة ١٨٥٧م، وقد أحالت الحروب المدمرة والركود الاقتصادي والانحطاط الذي انتشر خلال مائتي العام السالفة، الحكم الإسلامي إلى فريسة سهلة، مما أتاح للبريطانيين أن يصبحوا حكام شبه القارة بعد أن أطاحوا بالإمبراطور بهادر شاه آخر حكام المغول المسلمين في الهند، وشلت الصدمة نشاط المسلمين من مركزهم الممتاز في الإدارة والجيش، وسدت أبواب التوظيف الحكومي في وجوههم، ونظراً لأن الهندوس كانوا يحتكرون التجارة والاقتصاد فقد أضحي وضع المسلمين الاقتصادي حرجاً للغاية.

وأخرج السيد أحمد خان المسلمين عن سياسة عدم التعاون وموقف اللامبالاة، إلا أن ما يؤخذ عليه أنه رأى أن الوقت لم يحن بعد للدخول إلى حلبة النضال السياسي، وكان السيد محسن الملك واحداً من أهم الشخصيات التي عملت مع السيد أحمد خان، كما أسهم مولانا أطفاف حسين حالي بقصائده في إيقاظ الروح الإسلامية، وإدراك المسلمين لمأساتهم وتدهورهم. وحين توفي عام ١٩١٥م كان العلامة محمد إقبال قد ظهر على مسرح الشعر، وأخذت أشعاره تفوز باهتمام المسلمين، وسرعان ما بلغت قصيدته «شكوى» و«جواب شكوى» شيوعاً وذبوعاً

كبيرين، وقد تخيل إقبال العالم الإسلامي وحدة واحدة غير صالحة للتقسيم أو الانفصال وتخيل المسلمين أمة واحدة تتجاوز التقسيمات والحدود الجغرافية الضيقة وقد يحزن لا لمأساة مسلمي شبه القارة الهندية فحسب بل لمسلمي العالم بأسره.

إن عظمة إقبال والصفة الفريدة لشعره تكمن في رسالته هذه التي تحمل الأمل للمسلمين والذي يعيننا هنا هو إقبال الأديب الشاعر؛ فالحديث عن إقبال وحياته وفكره وعمله حديث هام ومفيد إلا أنه يحتاج إلى مجلدات، وقد لا تفي حقه، وفي هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القراء، رأيت أن أركز في صفحات قليلة على سرد سريع للظروف التاريخية التي كان لها شأن عظيم في بلورة أفكار إقبال، بل وفي خلق الأساس الفكري للشاعر الفيلسوف. انتقلت بعدها إلى بيان فكر إقبال ومصادره التي استوحى من خلالها أفكاره، وأوضحت كيف أن فكر إقبال قد نسج بقبس من نور القرآن والسنة النبوية الشريفة، وسيرة السلف الصالح.

أما الحديث عن أدب الفيلسوف؛ فهو حديث عذب فإقبال قد فلسف أدبه تماما كما أدب فلسفته، وقد وضعت لمسات سريعة على إنتاج إقبال الأدبي بصورة عامة؛ بيّنت بعدها الفن الشعري عند إقبال بمفهومه، وبموضوعاته، وبمذاهبه، ولم أنس أن أوضح أثر الأدب العربي في أدب إقبال. وإقبال الشاعر الأديب ابتكر الكثير في مجال الشعر، جدد في القوالب الشعرية، وجدد في الخيال الشعري، كما أن له طريقتة المبتكرة في معالجته لجميع الأنماط الشعرية التي نظم فيها كالغزل، والمثنوي، والهجاء، والثناء، والتأريخ الشعري، وأخيراً الرباعيات.

أما «أرمغان حجاز» أو «هدية الحجاز» فهو آخر ما كتب إقبال في حياته، ونشر بعد مماته، ففي لية ٢١ إبريل سنة ١٩٣٨م ودّع إقبال هذا العالم، وفي نوفمبر سنة ١٩٣٨م نُشر أرمغان حجاز.

وتكمن أهمية هذا الديوان فيما ذكرت من أنه آخر ما كتب إقبال، لذا حمل آخر أفكاره وختام نظرياته، ففيه حديث عن الذات، إثباتها ونفيها، وحديث عن الإنسان الكامل، ونظرية الزمان والمكان، وحديث عن الرومي وفلاسفة الغرب،

وأحاديث شتى عن الحضارة الغربية والإفريقي؛ وفيه منظومة إقبال الهامة «مجلس شورى إبليس» فهو نهاية المطاف لذا حمل كل ما تحويه دواوين إقبال السابقة عليه .
ومن ناحية أخرى فهو مكتوبٌ باللغتين الفارسية والأردية، فيجد القاريء نفسه مع إقبال في لغتيه الشعريتين .

وكم دعوت الله أن يوفقني في إخراج هذا العمل المتواضع في هذا البلد الذي أخرج إقبالاً، ويُستجاب الدعاء، ويطبع هذا الكتاب في لاهور حيث تربى إقبال، وحيث درس وعاش حياته، وإنني في هذا المقام أفق عاجزاً عن أن أشكر الشيخ الفاضل الذي وهب حياته لخدمة الإسلام والمسلمين الأستاذ عبيدالحق الندوي مدير وصاحب المكتبة العلمية ومطبعها والذي لولاه لما رأى هذا الكتاب النور .

كما أتوجه بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور رانا إحسان إلهي [رحمه الله] على ما بذل من جهود في مراجعة أصول هذا الكتاب .

كما يسرني أن يصدر هذا الكتاب ونحن نستقبل الذكرى المثوية لمولد الشاعر الفيلسوف العلامة محمد إقبال .

والله ولي التوفيق

سمير عبد الحميد إبراهيم

لاهور في ١٠ يناير ١٩٧٦ م

القسم الأول

- ١ -

العصر

الفتح الإسلامي للهند :

كان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلفوا بأهلها ولقوا حفاوة من حكامها، وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر، وعهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بأمر القسم الشرقي من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي وجه جند المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر؛ فدخلوا بخارى وسمرقند وخجند وفرغانة حتى وصلوا إلى كاشغر على حدود الصين، واختار الحجاج بعد ذلك ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي لغزو الهند فاستطاع الاستيلاء على السند^(١)؛ إلا أن فتح العرب للسند في أواخر القرن الأول الهجري لم يكن إلا احتلالاً لولاية واحدة في أقصى الغرب لاهي بالواسعة ولا بذات الموارد الغنية على أن الفتح الإسلامي الحقيقي للهند لم يقع إلا أواخر القرن الرابع الهجري حين شرع الغزنويون يطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها، وتعد الفتوح الغزنوية للهند بداية غزو المسلمين الحقيقي لشبه القارة الهندية، ذلك الغزو الذي سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هذه البلاد مقاماً دائماً لهم^(٢)، وتلاحقت الدول على الهند حتى شهدت شبه القارة الهندية قيام الدولة المغولية، بحضارتها الرائعة ومدنيتها المزدهرة. ومؤسس هذه الأسرة هو

(١) الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/١٢٩) القاهرة.

(٢) ول ديورانت. الهند وجيرانها. ترجمة ركي نجيب محمود ص ١٢٦ القاهرة.

بابر الذي خلف ابناً لم يستطع أن يتابع سيرة أبيه إلا أنه ترك خلفاً أطلقت عليه الهند اسم «أكبر» وهو في الواقع امبراطور أو شك أن يكون قادراً على كل شيء، تحرق فواده شوقاً إلى أن يكون فيلسوفاً كما يشتهي الفلاسفة أن يكونوا أباطرة، أحس شقاء نفسه لأنه لم يستطع فهماً لهذا العالم الذي يحوطه، ولم يكن مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حوله، ولما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين فقد أغرته قراءته للملحمة «مهابهارتا» ودراسته الوثيقة لشعراء الهند وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية، ولبث حيناً يؤمن بمذهب التناسخ كما ظهر مرة بعلامات دينية هندية على جبهته، وتودد إلى الزرادشتيين بأن لبس لباسهم وانصاع للجنين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد، وأن يحرم قتل الحيوان في أيام معلومة، واتصل بالبعثة التبشيرية البرتغالية حين سمع عن المسيحية، وضاقت أكبر ذرعاً بالانقسامات الدينية في مملكته فعقد اجتماعاً قال فيه: «إنه لمن الشرفي إمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعضهم على بعض وأن يتباينوا في الرأي، ومن ثم نشأ في البلاد خراب بمقدار ما فيها من عقائد دينية، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها في دين واحد».

وأقام معبداً للديانة الجديدة رمزا للأمل الذي كان يضطرم في صدره، ولم يكن النجاح حليف الدين الإلهي باعتباره ديناً، أما جهانكير الذي ورث أباه فقد أهمل واجباته الرسمية في الحكومة وترك ابناً ورث نفس الصفات وهو شاه جهان إلا أنه عاد إلى العقيدة الإسلامية؛ فسارع بإبطال ما أثاره أبوه خلافاً للشريعة الإسلامية، وألقى فكرة الدين الإلهي والأفكار التي دارت حوله، إلا أن الأوربيين بدأوا يزيدون في عهده من سيطرتهم على مناطق واسعة في الهند، وكان عصر شاه جهان عصر رخاء ورفاهية.

تولى الحكم من بعده الإمبراطور أورنكزيب عالمكير الذي يُعد المثل الطيب للحاكم المسلم المتمسك بالشريعة وآدابها، وكان من بين أهدافه جعل بلاد الهند وحدة إسلامية بمعنى الكلمة، ولهذا اتهمه المستشرقون بالتعصب، وبعد أورنكزيب

بدأت الدولة تنتقل من ضعف إلى ضعف مما سهل على المستعمرين الأوروبيين الاستيلاء على الهند بأكملها^(١).

الغزو البريطاني للهند :

بدأت أركان الدولة المغولية تتصدع في الوقت الذي بعثت فيه جزيرة نائية في الغرب بطائفة من تجارها لتحصد ما في الهند من كنوز، ولم تلبث بعدها أن أرسلت مدافعها لتستولى على هذه الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء، وكانت شركة الهند الشرقية قد تأسست في لندن عام ١٦٠٠م، ثم أعلنت عزمها على إقامة مستعمرة إنجليزية واسعة بالهند، وما أن جاءت سنة ١٨٥٧م حتى كانت جرائم الشركة قد أقفرت الجزء الشمالي الشرقي من الهضبة إقفاراً أوغر قلوب الأهالي، فشقوا عصا الطاعة في ثورة يائسة، وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية، وتولت هي الحكم واعتبرت الهند مستعمرة للتاج، وبدأت الهند وسط هذه الظروف تلتمس عزاءها في الدين، ورحبت بالنصرانية حيناً من الزمن؛ فقد ظل المنصرون في الهند طوال القرن التاسع عشر يحاولون بنفوس قلقه أن يُسمعوا الناس صوت المسيح فكان عليهم أن يرتفعوا به فوق أصوات المدافع التي كانت تزار أثناء فتحها البلاد.

هذا وقد كان المسلمون أقوى الأقليات الدينية في الهند وأكثرها إثارة للاهتمام، وليس من العجيب ألا يتمكن الإسلام من اكتساب الهند كلها إلى اعتناقه، إنما المعجزة هي ألا يخضع الإسلام في الهند للهندوسية، فبقاء هذه الديانة الموحدة على بساطتها وصلابتها وسط ديانات متشابهة؛ تذهب إلى تعدد الآلهة دليل يشهد على ما يتصف به العقل الإسلامي من قوة، وحسبنا أن نذكر كيف تلاشت البوذية في البرهمية.

وقامت بالهند عام ١٨٥٧م الثورة الوطنية الكبرى التي يعرفها الوطنيون بثورة «سپاهي» أو العصيان، وطويت بها صفحة السلاطين البابرين بالهند كلها، هذه

(١) انظر التفاصيل في د. عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند ص ٣١٦ - ٣٧٠، وأيضاً د.

الساداتي، تاريخ المسلمين (٢/٢٢٤)، وما بعدها.

الثورة كادت أن تقضى على كل نفوذ للبريطانيين في الهند، وعزف المتزعمون للثورة كيف يثيرون نائرة البنغال، وكان أغلبهم من الراجبوت والبراهمة، حين انطلقوا يلقون في روعهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما الأمر الذي يتنافي مع عقائدهم التي تعد كل من يخرج من وطنه خارجاً على طبقته. وانطلق المسلمون في دهلي يقودون الثورة، وفي خطتهم أن يخرجوا المستعمرين من بلادهم، ويعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند. وأصيب البريطانيون في بدء الثورة بخسائر كثيرة، وهزائم متكررة في أماكن عديدة على أنهم ما لبثوا أن أقروا الأمور، وقضوا على الثوار في قسوة وعنف^(١) هذا بينما كان عدد الطلبة الهنود الذين يدرسون في إنجلترا يزيد على الألف، وربما كان عدد من يدرسون في أمريكا عندئذ مساوياً لذلك العدد بل ربما كان ضعف هذا العدد، كذلك يدرس في البلدان الأخرى قد دهشوا للحقوق التي يتمتع بها أخط المواطنين في أوروبا الغربية وأمريكا، ودرسوا الثورتين الفرنسية والأمريكية، وقرأوا أدب الإصلاح، وأمعنوا أنظارهم في «قانون الحياة» و«إعلان حقوق الإنسان» و«إعلان الاستقلال» و«الدستور الأمريكي»، فعادوا إلى وطنهم ليكونوا مراكز إشعاع للأراء الديمقراطية، والتبشير بالحرية، وأخذت الأفكار الجديدة تسير في خطى وثيدة.

ففي عام ١٨٥٧م اجتمعت طائفة قليلة من زعماء الهنود في بمباي وأسسوا «المؤتمر الهندي القومي» الذي طالب عام ١٩٠٥م في صلاصة لاتلين «بسوراج» وهذه كلمة من أصل سنسكريتي ومعناها الحكم الذاتي، وحدث في نفس العام أن هزمت اليابان روسيا، وبدأ الشرق الذي لبث قرناً كاملاً يخشى صولة الغرب، بدأ يضع الخطة لتحرير آسيا^(٢).

(١) الساداتي، تاريخ المسلمين (٢/٢٩٤).

(٢) ول ديورانت، الهند وجيرانها ص ٤٢٤.

المسلمون في الهند:

في تلك الفترة كان مسلمو الهند يرون بأحلك مراحل حياتهم كانوا في حالة شبيهة بأوضاع الرق إن لم تكن هي أوضاع الرق نفسها حتى أن اليأس بدأ يدب في فكرة النضال من أجل طرد الإنجليز، وأصبح الأهالي من المسلمين مورداً للانتقام والضغط والتعذيب، وكذا الدسائس المتنوعة من جانب الحكام الجدد، بل ومن جانب بعض مواطنيهم أنفسهم، وهكذا أصبح المسلمون غرباء في بلد هم الذي عاشوا فيه منذ مئات السنين^(١).

وقد كتب لورد «النبرو» (Ellenborough): «وليس في وسعي أن أغمض عيني عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل للعداوة لنا، وأن سياستنا الحقبة ينبغي أن تتجه إلى تقريب الهندوس»^(٢)، فأقصى البريطانيون المسلمين عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عددا كبيرا منها، وجهدوا في تفويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية، ثم صدر قانون الإصلاح الزراعي الذي ينظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضي الكثيرة والضيق الواسعة، وصارت أغلب الأراضي التي كان المسلمون يمارسون زراعتها - بمقتضى هذا القانون - ملكا لجباة الضرائب من الهنادكة، ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامي بالهند، ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة ثم انطلقوا بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم؛ بقصد إثارتهم على مواطنيهم من المسلمين لينجلي ذلك عن مذابح رهيبية متكررة بينهم، وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حيناً طويلاً عن مناوئة الحكم البريطاني بالهند. وبعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين في الهند شعورا قويا فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد، ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم، وهكذا نهض سيد أحمد خان في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي يفصح عن

(١) سعيد نفيسي، مقدمة ترجمة ضرب كليم. ط كراچي.

(٢) العقاد. محمد علي جناح ص ٢٨، القاهرة.

هذا الشعور إفصاحاً عملياً - وإن كان محفوفاً بأشد المخاطر للدين الإسلامي - فرسم لقومه المنهج الذي يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم؛ فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعني التزام العزلة والتخلف عن المشاركة في ركب الحياة الهندية، وأن الاطلاع على المدنية الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها، واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه في أمور دينهم، والتمسك بأداب الإسلام وتقاليده، وبدأ يعمم إصلاحاته في أغلب نواحي الحياة الإسلامية رغم الاتهامات التي لاحقته نتيجة لمآلاته المستعمرين، والمروق في بعض الأحيان على الدين؛ إذ كان هذا في فترة تغلغلت فيها الحركات التنصيرية في شبه القارة الهندية، لكنها مع كثرة إمكانياتها ودأب أنشطتها كانت محاولة فاشلة أمام الصمود الديني للمسلمين فلقد حاول المنصرون ضمن نطاق مخططاتهم أن يثبتوا كتباً كلها طعن سافر في الإسلام وذلك لبلبلة أفكار المسلمين، وكان مخططهم يهدف إلى شغل أربعين مليون مسلم يعيشون في أتون الصراع الديني في عليكره وبهوپال ومراد آباد وكانپور وبنارس وإله آباد وآگرا وكلكتا ودهلي وغيرها، حيث كانت هذه البلدان وغيرها تغلي في صمت مطبق من تأثير هذه الكتب المناهضة للإسلام والطاعة في الرسول.

أنشأ الاستعمار تبعاً لهذه السياسة منظمات طائفية عديدة وجدت أمامها المجال فسيحاً رجباً للضغط على الأقلية الإسلامية، وتعرض علماء المسلمين في شبه القارة في ظل الحكم الاستعماري إلى تهديدات سافرة لظعن العقيدة الإسلامية لكن دون جدوى، وكان هناك لون ثالث من ألوان الهجوم المباشر لظعن الإسلام عندما ظهر «سيد أحمد خان» وأعلن مبادئه الفلسفية، وحين ظهرت دعوته هللت لها الأوساط البريطانية وعبرت عنها بأنها حركة إسلامية ناهضة، هذه الدعوة أظهرت الملامح الرئيسية للمخططات الاستعمارية ضد الإسلام في شبه القارة الهندية؛ فلقد ذكر سيد أحمد خان في كتابه «تبيان الكلام»: أن التوراة والإنجيل الموجودين حالياً هما كما أنزلهما الله على موسى وعيسى ولم ينلها أي تحريف، وحاول في دعوته أن يستميل الشباب الذي يسهل انقياده تحت ستار من التطور المعاصر؛ فأنشأ تبعاً لذلك

جامعة عليكره ليكون ضمن دراستها نبذ من العلوم الدينية مع الاتجاه إلى العلوم المادية ، ولقد أصدر سيد أحمد خان تفسيراً للقرآن لم يكمل بقيته لأنه توقف فيه عند سورة الكهف، لكنه ذكر في هذا التفسير أن النبوة يستطيع أي شخص مهما كان أن يصل إلى درجتها عن طريق الرياضة النفسية فهي ليست - كما يدعي - بالعمل الخارق .

كما نادى ضمن تعاليمه بعالية الأديان وذلك بأن يقتبس منها المعاني الإنسانية من روح العقائد الدينية المعاصرة وتطبيقها مع إذابة أي فوارق دينية وعقائدية ومذهبية ضمن نطاق هذه الفكرة ، وعلى هذا كانت جامعة عليكره في أول أمرها عندما كانت تسمى «الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية» تدرس الديانة النصرانية على قدم المساواة مع الديانة الإسلامية ، وأدخلت فيها إنجلترا العلوم الإنجليزية العصرية ، وأصدر سيد أحمد خان قبل أن يتوفى عام ١٨٩٨ م مجلة «تهذيب الأخلاق» عنى فيها بتفسير القرآن بطريقة تأويلية ؛ كما أن هذه المجلة أنكرت المعجزات التي تضمنها القرآن الكريم والخوارق التي ذكرها ، وسيد أحمد خان طوال حياته كان سلبياً تجاه التضامن الإسلامي في الهند ، وكان لا يعضد أي حركة تحريرية لبلاده ، وكان ينال من الإسلام ولا سيما عندما كتب أن الوحي الإلهي للرسول كان بالمعنى وليس باللفظ ، وفي هذا إنكار لربانية القرآن^(١) .



(١) د. أحمد محمد مخلوف. القاديانية ص ١٨ ط/ القاهرة.

موقف المسلمين في المجتمع الهندي

١ - المسلمون والهندوس :

بينما استوعب المثقفون الهندوس الأفكار الديمقراطية، ويظهر هذا من تكوين المؤتمر الهندي واستيعابهم لبعض الأفكار الأخرى؛ فإن القادة المسلمين المنظمين شعروا بالحاجة إلى الحماية بل تركوا حقوقهم السياسية، ولم يكن المؤتمر يقوم بمحاربة الهندوس لا من خلال القرارات أو الخطاب بل تجاهل فكرة الدين، لكن المسلمين الذين قاطعوه وجهوا الناس إلى فكرة أن المؤتمر ما هو إلا منظمة هندوسية وأنه عبارة عن مظهر لتقدم الهندوس السياسي، وكان في هذا تخلف المسلمين أنفسهم بل إن بعض القادة المسلمين، ومنهم نواب محسن الملك قد أعطوا هذه الفكرة قدراً كبيراً من الاهتمام^(١)، ونواب محسن الملك حمل مع من حملوا المشعل بعد جيل سيد أحمد خان، وكان خطيباً بارعاً وكاتباً عظيماً وقاد عام ١٩٠٠م الحملة ضد سياسة السير انتوني ماكدونالد التي كانت ترمي إلى أن تدمج الآرية بالهندية^(٢)، كما قدم إلى نائب الملك في الهند أول مذكرة تطالب بحقوق المسلمين وذلك بالاشتراك مع عدد من المسلمين البارزين، وشكلت تلك المذكرة الأسس التي تأسست بموجبها الرابطة الإسلامية بالقارة الهندية، وعقدت الرابطة أول اجتماع لها عام ١٩٠٦م في مدينة دكا^(٣)، وتحدث مرة فقال :

«إن الطائفة الإسلامية لا تأمل في التقدم أكثر من مجرد الحصول على المجد والتبجيل اللذين كانا لأجدادهم، وهي لا تبغي منافسة الهندوس في تلهفهم على كسب الثقافة الجديدة». لكنه يعود مرة أخرى، ويرى ضرورة الخوض في مجال السياسة فقال في خطبة أخرى :

(١) Indian Muslim, A Political History, Ram Gopal p.115 Bombay 1958.

(2) Struggle for Independence (Pakistan Publication) p. 34 - 1958.

(٣) الوعي. اغسطس ١٩٦٧، بيروت.

«أيها السادة! تذكروا وتذكروا جيداً أننا لا يمكن أن نحيا بسلام ولن نحزز تقدماً ونجاحاً لمساعدتنا دون مساعدة لتقديم الأفكار النيرة للناس حتى يُسمع صوت القادة المسلمين من بشاور حتى بورما، ومن كشمير حتى مدراس». ولقد حاول بعض قادة المؤتمر الهندي - واسمه تيلاك - وهو ممن خدموا الحركة الهندية^(١) الدعوة - رغم الفشل الظاهر - إلى الوحدة الإسلامية الهندوسية، وكان يقارن دائماً بين الحكم البريطاني وبين الحكم الإسلامي قائلاً: «بأن الأخير كان خيراً واستمع إليه الكثير من المسلمين، لكنهم نتيجة لظروفهم وأوضاعهم ظلوا بعيدين عن الاقتراب من المؤتمر الهندي^(٢)».

وخلال هذه الفترة فإن بعض مسلمي الهند من المفكرين الدينيين الذين قامت كتاباتهم بدفع المسلمين إلى حلبة السياسة لم يستطيعوا أنفسهم أن يقرنوا أفكارهم بالأعمال فتركوا المسلمين يتخبطون، وكان منهم «چراغ علي» الذي كتب معظم كتاباته بالإنجليزية وقال: «إن القرآن ليس حصناً وحيداً لسياسة المجتمع أو الابداعات الخلقية»، كما أعلن كاتب آخر وهو «سيد وحيد علي» أعلن عام ١٩٠٦م أن سلطان تركيا لا يعتبر خليفة المسلمين في الهند، أما «خدا بخش» في مقالاته فقد أعلن بشجاعة «أنه سوف يكون مجرد تصنع أن نطبق الآن النظم الدينية والاجتماعية التي ورثناها منذ ١٣٠٠ عام بكمالها وتماها دون تغيير أو تحريف طفيف يناسب العصر» لكنه خشى أن يُساء فهم نصيحته فأكمل محذراً المسلمين ويجب علينا في الوقت الحاضر أن نحذف السياسة من نظام عملنا، وكان هذا هو حال معظم الكتاب المسلمين في عرضهم لإصلاحاتهم فكان موقف «شبلي نعماني» واضحاً حين خاطب الطائفة الإسلامية قائلاً: «... إن الإخلاص والأمانة للسلطة الحاكمة إنما هو واجب ديني على المسلمين» وكان هذا نفسه هو موقف «چراغ علي» و«مهدي علي» فقد اتجهوا وبقية المفكرين إلى المعتقدات

(١) سلامه موسى، غاندي والحركة الهندية ص ٢٣ ط/ القاهرة.

Indian Muslims p. 118. (2)

الإسلامية، ولم يهتموا بنشر الأفكار السياسية بين المسلمين، وكذلك كان شبلي النعماني الذي أسس معهد ندوة العلماء، وكتب عن شعر العجم وسيرة النبي كما سجل كسوف نجم الأقطار الإسلامية بالكلمات التالية :

«سفيتتنا في خضم العاصفة . . والأمواج تضربها . . والرياح الغربية تطفئ
مصباح وجودنا . . . يا إلهي تلك الدولة الدينية التي كانت مدينة لنا، تهجم
علينا لتحرنا، واضعة الخيانة مكان الإخلاص، ولم يكن الحزن على المغرب قد
انتهى . . يوم سقطت إيران ضحية . . رحماك يا إلهي . . إنهم يقولون تركيا في
سبيل السقوط أيضاً»^(١).

والواقع أنه حتى أولئك الذين تشربوا الحضارة الأوربية مثل «أمير علي» كرسوا
أنفسهم على دراسة الإسلام؛ فكتب «أمير علي» تاريخاً طبع مرات ومرات عن
الحضارة العربية الإسلامية، وظل القادة المسلمون هكذا بينما قادة المؤتمر الهندي
يتكلمون عن الديمقراطية العلمانية.. ظلوا ويكل دقة وعناية يتجنبون السياسة مع أنهم
يعتقدون أن القرآن لم يحرمها، وخير ما صنع آغا خان الذي رأس حزب الرابطة
الإسلامية لسنوات عديدة أنه لم يفصل بين الدين والسياسة^(٢).

ب - المسلمون وفكرة الخلافة :

كانت بداية تكوين الرابطة الإسلامية في الهند كتكوين سياسي مصحوبة
بتطورات غير مرضية في البلاد الإسلامية في الشرق الأوسط والتي شعر مسلمي
الهند بأهميتها بالنسبة لهم بينما كان الهندوس على عكس هذا .

شعر المسلمون أنهم لن يستطيعوا أن يبقوا منفصلين عن التيار السياسي؛ فبدأ
الشعور بالحاجة إلى منظمة سياسية قوية في جميع الجوانب لتدافع وتناضل من أجل
حماية مصالح الأمة الإسلامية، ونفس هذا الشيء هو ما أشارت إليه مذكرة

(١) الوعي اغسطس ١٩٦٧ .

(2) Indian Muslims p. 117 - 18.

«محسن الملك» التي تأسست بموجبها الرابطة الإسلامية التي عقدت أول اجتماع لها في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦م وانتهى الاجتماع إلى اتخاذ قرار مؤقت لتكوين الدستور الجديد قبل المصادقة النهائية^(١)، وفي ذلك الوقت كانت الإمبراطورية التركية يحكمها السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يتمتع بوضع متميز يدين له المسلمون جميعا بالطاعة والولاء بل كان هناك مسلمون يدينون نتيجة لظروفهم، بالطاعة للخلافة لا للأمة التي يعدون من مواطنيها، هكذا كان الحال في الهند، مما دعا مفكري الهندوس أن يتساءلوا عن هذا التناقض الواضح، فبينما كان السلطان يحوز الولاء والطاعة من المسلمين خارج تركيا كان ولاء مواطنيه وإخلاصهم يتضاءل، وقد بقي الخليفة في خوف دائم حين اتخذ الجيش قرارا بعدم طاعته، ثم إن الخليفة نفسه طرد لكنه استطاع العودة إلا أن وضعه كخليفة لم يعد أكثر من شيء مقدس يحفظ له قوته^(٢).

وكانت هناك موجة غريبة من الرحمة والعطف تجاه تركيا جعلت جواهر لا نهرو نفسه يقول: «نشعر بالعطف على تركيا، التي أثارت المسلمين بالهند بأكملها، ولكن بالنسبة للمسلمين فهذه المسألة مسألة شخصية بحتة».

وسافر بعض القادة المسلمين بعد أن جمعوا الأموال في الهند بأنفسهم إلى استانبول، حيث دخلوا في مناقشات حامية مع القوميين الأتراك كما أثار فرع الرابطة الإسلامية بلندن هذه الأحداث التي جعلت مسلمي الهند يتعدون عن الهندوس في محاولة لإثبات شخصيتهم بمعارضات سياسية مع حزب المؤتمر الهندي إلا أن بعض القادة المسلمين لم يوافقوا على جعل التطورات في الشرق الأوسط تقود إلى تغيير موقف المسلمين تجاه حزب المؤتمر الهندي، وكان على رأسهم «مولانا محمد علي» الذي قال:

Struggle for Independence p. 53. (1)

Indian Muslims p. 181. (2)

«هل ينشأ الانفصال بين المسلمين والهندوس نتيجة لأن مسلمي بعض بلاد الشرق الأوسط كانوا ضحية اعتداء أوربي، إننا ندرك لأول وهلة أن هذا غير معقول»^(١). وهو نفسه رغم هذا كان مهتما بتركيا ومعاديا لبريطانيا نتيجة لإلحاح المسألة التركية نفسها، فقد أثارته مسألة تقسيم البنغال، ثم أثارته حرب البلقان ففجرت المزيد من العداوة لبريطانية والإخلاص والمحبة لتركيا، وكان مولانا «محمد علي» رائدا لحركة الخلافة كما كان موقفه حازماً من غاندي فقد انفجر فيه ذات مرة قائلاً :

«إننا نرفض الارتباط بغاندي لأن حركته لا تهدف إلى الاستقلال التام للهند لكن من أجل جعل استقلال سبعين مليوناً من المسلمين ضحية في سبيل مهاسبا الهند».

وقد قال مرة في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن: «إنني أفضل أن أموت في بلد حر على أن أعود إلى بلد مستعبد»^(٢)، وأسس عدد من القادة المسلمين خلال تلك الفترة جرائد أسبوعية اتجهت جميعاً، وبكل ثقلها إلى تصوير أحوال المسلمين وشرح أوضاع البلاد الإسلامية، ومن أهم هؤلاء مولانا أبو الكلام آزاد الذي اتجه بكله اتجاهاً إسلامياً، وكان له اتصالات شخصية عديدة مع القادة المسلمين البارزين والمصلحين سواء في مصر أو تركيا أو سوريا، وسواء في فلسطين أو العراق أو إيران، وتأثر آزاد تأثراً شديداً وقويا بالتطور السياسي والثقافي في هذه البلاد، وكانت الحكومة الهندية تعارض مقالاته بل اعتقلته لمدة أربع سنوات^(٣) كان كل هذا نتيجة مباشرة لمحنة تركيا قبل حرب البلقان وبعد ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى فقد ظهر الأوربيون في أعين الكثيرين على أنهم أعداء الإسلام، وكان هذا هو ما أعطى القوة إلى حركة الخلافة فكانت الحاجة الملحة هي الدفاع عن الإسلام، وقد

(١) المرجع السابق ١٢٤.

(2) Struggle for Independence p. 39.

(3) India Muslims p. 125.

اقتنع بعض الهندوس بهذا الرأي^(١)، ورغم أن المسلمين في الهند كانوا شريحة مختلفة عن الهندوس إلا أنهم هنود رغم كل هذا وربما نظروا إلى خارج الهند طلباً للعون إلا أنهم لم يكونوا أبدا يرغبون في العيش خارجها، وربما نظروا إلى العرب وذلك فقط من أجل الناحية الروحية، لكن المسلم الهندي يفضل الهند فطبيعياً هي داره ومحط آلامه وآماله^(٢).



(1) V. Smith: Thi Oxford History of India p. 805.

(2) Percival Spear: India, Pakistan and the West p. 77. London.

الوحدة الإسلامية الهندوسية

١- بين النجاح والفشل :

حين دخلت تركيا الحرب العالمية حزن المسلمون في الهند حزناً عبر عنه «مظهر الحق» في جلسة الرابطة الإسلامية فقال: «إنه لشيء محزن لنا أن حكومة خليفتنا سوف تصبح في حالة حرب مع حكومة إمبراطورية ملكنا، وكان ينبغي أن نكون جميعاً مسرورين لو رأينا إخواننا في الإيمان يحاربون جنباً إلى جنب مع جنود الإمبراطورية البريطانية»، ومهما كانت السياسة التي تبنتها البلاد الإسلامية في الحرب العالمية فإن مسلمي الهند لم يكونوا يرغبون مطلقاً في وجود عداوة بين بريطانيا والحكومة الإسلامية إلا أننا نرى أن السيد أحمد خان بدأ يعادي البريطانيين في الهند في أواخر حياته، وأيضاً حذى حذوه أولئك الذين التزموا بتبع سياسة غير ودية تجاه تركيا.

والحقيقة أن الكثير من الهندوس وغير المسلمين كان لهم نفس الشعور بالعطف على تركيا لكن الموقف يختلف بالطبع فعطفهم كان مجرد تعاطف مع دولة أجنبية في محنة بينما هو بالنسبة للمسلمين كان جزءاً من الواجب الديني، ونوعاً من الدفاع عن فكرة الجامعة الإسلامية، مثل هؤلاء المسلمين كانوا يبحثون عن جذور قوميتهم في أي مكان، وعلى سبيل المثال فقد وجدوا هذه الجذور في عصور الأفغان والدولة المغولية في الهند، لكن هذا لم يكن كافياً لملء الفراغ، فكانت هناك ضرورة للبحث عن جذور ثقافية ضرورية قادت مسلمي الهند - وبعضهم كان من الطبقة المتوسطة - إلى تاريخ الإسلام، إلى العصور التي كان الإسلام فيها قوة قاهرة نشطة في بغداد، وإسبانيا، وإستانبول، ووسط آسيا، وفي كل مكان فالإمبراطورية المغولية في الهند لم تعترف بأي خلافة أو روح سامية خارج الهند؛ لقد كان هذا فقط بعد تدهور قوة المغول في بداية القرن التاسع عشر حين بدأ اسم سلطان تركيا

يذكر في مساجد الهند^(١). والعداوة للخليفة بدأت عن طريق الدعوة السلفية التي أخذت طابع العودة إلى حياة السلف، والنباع الصافية للدين الحنيف، ثم كانت مدرسة عليكره التي جعلت مسلمي الهند ينسون لفترة سيطرة فكرة الخلافة إلا أن موقف المسلمين في معاداة البريطانيين بدأ ينعشها، وقد كان ذلك خليطاً من السياسة والخلافة^(٢).

والعداء للبريطانيين لم ينعش فقط حركة الخلافة لكنه أيضاً كان عاملاً لوقت ما في خلق وحدة - ولو لفترة بسيطة - بين المسلمين والهندوس فيها هو غاندي يحدد يوم ٣٠ مارس ١٩٠٩م (الذي تغير إلى ٦ ابريل) كيوم عام لإغلاق المحلات، ووقف كل الأنشطة والمعاملات، واستجاب الهندوس والمسلمون إلى نداء غاندي ودعا المسلمون زعماء الهندوس إلى مساجدهم ليحضروا اجتماعاتهم، وقامت جمهرة بإضراب عام قوبل من جانب الحكومة بنيران المدافع، فقتل الآلاف من الشعب، ولم يحدث أبداً منذ ثورة ١٨٥٧م أن ارتبط كل من المسلمين والهندوس بهذا الشكل، وهكذا أصبح الاتحاد بين المسلمين والهندوس حقيقة مؤكدة، وقدم مولانا «محمد علي» من لندن ناصحاً المسلمين بالاتحاد مع الهندوس والمؤتمر الهندي بعد أن شاهد منظر الوحدة الإسلامية الهندوسية حقيقة رائعة، وصار غاندي زعيماً للهندوس والمسلمين على السواء، فقد كان حقيقة أعظم من المؤتمر الهندي، ومن الرابطة الإسلامية فكلاهما اختفى تحت ظلال حركة ٦ ابريل، ووثق فيه المسلمون ووافقوا على أن يتزعمهم حتى في حركة الخلافة التي عادت من جديد كفكرة ورد فعل لمعاملة بريطانيا لتركيا بعد الحرب، وعن طريق ربط حركة الخلافة مع الحركة السياسية الداعية إلى مقاطعة البريطانيين، فقد استطاع غاندي أن يزعج بالقادة المسلمين المتمردين إلى حلبة السياسة^(٣).

Jawaharlal Nehru: Discovery of India p. 408. (1)

Indian Muslims p. 128. (2)

(٣) المرجع السابق ص ١٣٥.

وأصبحت المنظمات القومية والمنظمات الإسلامية أجزاء منفصلة عن بعضها ثم حلقة متصلة مع غاندي، ثم كانت العودة إلى الخلفية القديمة للسياسة الطائفية، وارتباط المسلمين بفكرة الجامعة الإسلامية، والآراء الطائفية التي ظهرت بين الهندوس والمسلمين، تلك التي بدأت في منتصف حركة الخلافة والمقاطعة للحكومة، فأعلن غاندي نفسه الحقيقة في وقتها عام ١٩٢١م حين بدأت الحركة تتأرجح؛ فكتب مقالا بعنوان: «الوحدة الهندوسية الإسلامية» قال فيه: «إنني أعرف أن هناك الكثير من الشك الذي ينتاب كل منهم كما لو لم يكن قبلا، فالكثير من الهندوس لا يثقون في المسلمين، وهم يعتقدون أن (سوراج) الحكم الذاتي يعني (راج) هندكة المسلمين لذا فهم يجادلون حتى يشبثوا أنه لو خرجت بريطانيا فإن مسلمي الهند سوف يتجهون إلى القوى الإسلامية لبناء الإمبراطورية الإسلامية بالهند».

ومن ناحية أخرى خشي المسلمون أن تخنقهم الأغلبية الهندية في مجموعها ولهذا فقد وجه الكثير من الهندوس الاتهامات إلى المسلمين بأنهم دعوا أمير الأفغان لغزو الهند سنة ١٩١٩م، وكتب الكثير عن هذا الموضوع، وكان «مولانا محمد علي» قد أشار إلى غزو الأفغان قائلاً: «بأن الجهاد لو اقترب من وطننا فإنه يجب على كل مسلم في هذا الوطن (الهند) أن يلتحق بالمجاهدين ويساعدهم حتى يكونوا أحسن قوة».

والحقيقة أن غاندي قد عبر عن مخاوف الهندوس قبل خطاب محمد علي فقال: «إنني بالتأكيد سأساعد أمير أفغانستان لو أنه اشتبك في حرب ضد الحكومة البريطانية»، وكان معنى قول غاندي: «إنني سوف أقول بوضوح لأبناء وطني أنه سوف تكون جريمة أن نساعد الحكومة التي فقدت الأمة الثقة فيها لكي تبقى قوية».

وأثير الكثير من المناقشات حول موقف الناس من أمثال هذا الهجوم في المستقبل والاختلاف بين رأي «محمد علي» ورأي «غاندي»، وخشي الهندوس مشهد القوة الإسلامية لو حدث هجوم من جانب الأفغان بل كان يثيرهم منظر التعاون مع

الهجوم من جانب مسلمي الهند سواء كان ذلك تعاوناً مباشراً أو غير مباشر (عن طريق موقف الحياد) فمشاعر الأفغانيين كانت قطعاً تمد جذورها لبعض طبقات المسلمين المثقفين في الهند .

وبينما تنمو هذه الخلافات بين المسلمين والهندوس أتت عليهم مأساة مفجعة تسمى فاجعة (موبلا) فوسعت الخلافات بين الطائفتين، فقد انطلقت نبرات صراخات الخلافة هناك في أقصى الشمال، حيث اخترقت تلال شاطيء (مالا بار) فأوحى ذلك لأهالي (الموبلا) أن ينظموا تمرداً وعصيانياً ضد الإمبراطورية البريطانية فكان هجومهم على منطقة كبيرة من مقاطعة (مالا بار) اختفى بعدها الحكم البريطاني لعدة أيام، وأقيمت مملكة باسم الخليفة تحت سلطة الخليفة الملك «محمد حاجي» إلا أن هذه الخلافة انتهت سريعاً نتيجة لشدة تعصب أهالي (الموبلا) الذين أفقدتهم نشوة النصر صوابهم، فاندفعوا يذبحون الهندوس، وقد بذل البريطانيون جهوداً كبيرة، وخسروا الكثير من الجنود والمعدات حتى استطاعوا السيطرة على المنطقة^(١).

بالإضافة إلى هذه الفاجعة التي ساعدت على إثارة الخلافات بين المسلمين والهندوس فهناك عامل آخر وهو الشغب والهياج والفتنة العامة سنتي ١٩٢١م و١٩٢٢م أثناء احتفالات المحرم التي صاحبها إضرابات خطيرة عمت جميع المدن، في اميرستان، وملتان، ومراد آباد، وميرته، وإله آباد، وسهارن پور، ودهلي، ولاهور، ولكهنو، وبهاكل پور، وشاهجهان پور، فقتل الكثيرون، وتهدمت المنازل والمحلات .

ومن الجديد بالذكر أن هذه الاضطرابات تؤكد أنها كانت من تدبير الشرطة وتحت إشراف الضباط البريطانيين عن طريق إثارة الجهلة المتعصبين فحين كان المسلمون والهندوس يقتربون من بعضهم أكثر فأكثر كانت الاضطرابات تدبر حتى تبقئهم منقسمين، وبعد تفهم هذا الموقف شعر الهندوس بإمكانية إقامة الوحدة مع

المسلمين، تلك التي ثابر غاندي وجاهد من أجل إقامتها، وبقي غاندي في أيامه الأخيرة في بيت «محمد علي» بدلهي، بينما توافد قادة الطائفتين وهم في شوق للوصول إلى نهاية لهذه الاضطرابات، واجتمع كل قادة الهند من جميع الطوائف وحاولوا أن يناقشوا الموضوعات الهامة عن «الحرية والدين» ثم أعلن المؤتمر بعض الحقوق المتعلقة بالحرية، وتوضيح العقائد الدينية، واتباع نظمها وحرمة أماكن العبادة وقد كان لهذا الاجتماع أثره في تهدئة الموقف لكنه لم يقدم العلاج الدائم فقد تمت الخلافات ثانية حتى أن البعض رأى استحالة أن تقوم الوحدة، وحين افتتح محمد علي مؤتمر الوحدة ثانية، أشار إلى أن المشاجرات العامة، بدأت تتجه إلى نهاية حقيقية واتجهت دائماً وجهة الدين، ومن هنا فليس لديهم ما يمكن أن يفعلوه مع الدين وتابع المسلمون الاستماع إلى مهاسبها الهندوس بينما تابع الهندوس الاستماع إلى مؤتمر الرابطة الإسلامية ومؤتمر الخلافة، ومع أن مؤتمر الخلافة وافق على مقاطعة المجلترا ومقاطعة المنسوجات البريطانية إلا أنه أثبت مشروعاً عرف باسم «التنظيم» وهي حركة مضادة لحركة سانجتن التي قام بها الهندوس، ورأى مؤتمر الخلافة أن المتاعب الحقيقية في البنجاب كلها اقتصادية لأن معظم التجارة ومعظم الخدمات بأيدي الهندوس، وينبغي تنظيم البنوك الإسلامية والبنوك التعاونية كما يجب أن يُحرق ميثاق الوحدة الهندوسية الإسلامية، وقد اتخذ حزب الرابطة الإسلامية نفس الخط فقد نصح المسلمين باتباع «التنظيم»^(١).

ومن الجدير بالذكر أنه خلال سنوات حركة المقاطعة فإن مؤتمر حزب الرابطة الإسلامية قد كف عن الاتجاه إلى الأغراض السياسية، وبدت الحياة كأنها تنسحب منه حتى إنه في عام ١٩٢٢م لم تعقد أي جلسات بينما كانت الجلسة السنوية عام ١٩٢٣م غير مشجعة لدرجة أن جلسة الافتتاح كانت شبه مهجورة وخالية إلا أنه بعد انتهاء حركة المقاطعة برز حزب الرابطة الإسلامية ثانية عام ١٩٢٤م، ونادى بأن على القادة أن يهتموا بالحصول على الحقوق السياسية للمسلمين و«جناح» الذي

أبعد نفسه عن حلبة السياسة خلال السنوات الثلاث الماضية ظهر أيضاً في الصورة ليس كمسلم عادي لكن كقومي ، وظل يتمسك برأيه في أن حزب المؤتمر - على الرغم من أنه تركه - ليس منظمة هندوسية ، وأيضاً اهتم جناح بالمجهودات الإقليمية كما اهتم بالمجهودات الخارجية كالحلقة ولأنه لا توجد حركة خلافة ولا حركة الوحدة الإسلامية الهندوسية ؛ فقد بدأ في تجميع قوي الطائفة الإسلامية لأنه لا يجب أن يسمى طائفاً بل إنه قومي ، وقد أشار هو إلى هذا قائلاً : بأنه سوف يبقى قومياً حتى النهاية ، وأشار إلى أنه مازال ضد الطائفية إلا أنه صرح قائلاً : بأن عدداً كبيراً من المسلمين يريدون الانفصال في السلطة التشريعية والخدمات ، وهذا الشعور كان من شأنه أن يؤدي إلى الخلافات الطائفية ، وأن تنظيم الطائفة الإسلامية لا يجب أن يتجه إلى التشاجر مع الطائفة الهندوسية بل يجب العمل على خلق التعاون والوحدة من أجل الوطن الأم .

ب - فشل تحقيق الوحدة بين المسلمين والهندوس :

آمن جناح بعد أن انفصل عن المؤتمر الهندي أن كلا من الطائفتين الهندوسية والمسلمة يجب أن تنمو تحت منطقتين منفصلتين دون حزب المؤتمر الذي طالب بأن يكون منظمة علمانية ، وآمن قادة حزب الرابطة الإسلامية أن حركة المقاطعة أو حركة الوحدة الإسلامية الهندوسية أو فكرة القومية لا يمكن لأي منها أن تضع المسلمين في مكان مساوٍ للهندوس في مجال الخدمات والتعليم ، ورأوا أن الوقت حان بل فات لأن تؤخذ خطوات جدية لتحقيق العدل للمسلمين ، هذا بينما عبر الشاعر طاغور عن رأيه بصراحة في المسألة الهندية الإسلامية إلى نائب جريدة البنغال وترجم هذا المقال في جريدة «التائمز» الهندية بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٢٤ م قال :

«هناك عامل مهم يجعل مسألة الوحدة بين المسلمين والهندوس مستحيلة تماماً وهو أن المسلمين لا يقصرون وطنيتهم على بلد واحد ؛ إنني أسأل بصراحة أسأل أي مسلم : لو أن قوة غزت الهند هل سيقفون جنباً إلى جنب مع جيرانهم الهندوس

يدافعون عن بلدهم الأم؟». والواقع أنه وجد الإجابة في كلام محمد علي الذي أعلن أنه ليس من الجائز لمسلم مهما كان بلده أن يقف ضد مسلم آخر، وكانت هذه المخاوف تردد صداها هنا وهناك بينما محمد علي يجد تأييداً فوق جميع المنابر الإسلامية، ورغم أن الخلافة انتهت في تركيا فإن البعض في الهند قال: إن حركة الخلافة سوف تبعث من جديد في أي مكان آخر إلا أن الأغلبية فقدت الأمل فاندمجت جمعية العلماء في الرابطة الإسلامية والقومية الإسلامية إلا أن الاتجاه كان إلى الأخيرة.

ومما ساعد على بقاء المسلمين والهندوس في حالة من الانفصال الدائم وعلى شعورهم بأنهم أمتان منفصلتان، تلك الآراء العقائدية والتركيب العقائدي نفسه لكل من الطائفتين فقد كان هناك الكثير من المخلوقات مقدسة لدى الهندوس تلك التي لم يكن المسلمون يعتقدون بها، فكم سبب البقر من مشاكل بينهم!! كما كانت العادات الاجتماعية من بين الأسباب الرئيسية لكثير من التضارب بين المسلمين والهندوس، فبينما الموسيقي شيء مهم في المعابد الهندوكية، فهي مكروهة حتى خارج مساجد المسلمين، فضلاً عن الناحية الاقتصادية، فقد سيطر الهندوس على كل الأعمال الهامة والخدمات بينما كان المسلم بصفة عامة رجلاً زراعياً ثم محارباً وقد حدث أن أغرق المسلمون في الديون للهنداكة فحملوا نتيجة لذلك نفس الشعور الذي انتاب العرب الزراعيين تجاه اليهود الصهانية في فلسطين فقد كانت مصادر الصناعة بل كانت كل الرأسمالية الهندية في أيدي الهندوس وبالنسبة للمسلمين فإن تصنيع الهند كان يعني الهند الهندوسية^(١).

ومثل طاغور رأى غاندي استحالة إقامة الوحدة الهندوسية الإسلامية كما أشار المؤرخ الهندوكي «مانيكار» أن أهم نتيجة اجتماعية أعقبت دخول الإسلام في الهند هو انقسام المجتمع على أساس رأسي، وقبل القرن الثالث عشر انقسم المجتمع الهندوسي أفقياً، ولم يحدث أن عملت البوذية ولا الجينية مثل هذا التقسيم،

وكانت هاتان الطائفتان متماثلتين، وأمكنهما أن ينسجما بسهولة مع التقسيمات القائمة أما الإسلام فقد قسم المجتمع الهندي إلى قسمين من أعلى إلى أسفل وهو ما يعرف في لغة العصر الحديث بإيجاد أمتين منفصلتين ظهرتا إلى الوجود منذ البداية، وقد كان المجتمع الهندي أمتين متساويتين، تكونتا رأسياً على نفس الأرض، وقد كانتا في جميع المراحل مختلفتين الواحدة عن الأخرى، ولم يحدث بينهما أي اتصال اجتماعي أو اندماج في الحياة^(١).

اتجاه الفكر الإسلامي لإنشاء باكستان:

حزم جناح أمره، وأصبح مقتنعاً بأن الأمل الوحيد للمسلمين يكمن في تنظيم أنفسهم تحت راية واحدة، وأدت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الهندوس ضد المسلمين إلى إيمانه بأنه لم يعد ثمة أمل للمسلمين للعيش في سلام مع الهندوس وهكذا بدأ بهمة لا تعرف الكلل يعيد تنظيم المسلمين تحت راية الرابطة الإسلامية.

وفي الدورة التاريخية التي عقدتها الرابطة الإسلامية في لاهور عام ١٩٤٠م قدم جناح مشروعاً ممتازاً للمشكلة الإسلامية الهندوسية، وقال القائد الأعظم معلنا:

«إن المسلمين يشكلون أمة منفصلة، ويحب أن تكون لهم أراضيهم ودولتهم الخاصة بهم، إننا نريد أن نعيش بسلام وانسجام مع جيراننا كشعب مستقل، إننا نريد أن تطور شعبنا حياته الروحية والثقافية والاقتصادية والسياسية إلى أقصى مدى ممكن بالطريقة التي يريدها، إن الشرف ومصالح الملايين من شعبنا يفرضان علينا التوصل إلى طريقة سلمية منصفة وعادلة للجميع، وإننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننحرف عن مبادئنا وأهدافنا بالتهديد أو الترهيب أو التخويف، يجب أن نكون مستعدين لمواجهة الصعوبات والنتائج، وبذل كل التضحيات المطلوبة منا لتحقيق أهدافنا».

وكان هذا البيان التاريخي بمثابة دستور لمسلمي الهند، وقد مهد الطريق أمام برنامج كفاح واضح، وبذل البريطانيون بعد ذلك كل دبلوماسيتهم، وبذل الهندوس كل جهودهم وجهود صحافتهم لمهاجمة جناح، ولكنه وقف كالطود الشامخ في وجه الجميع، ووقف جميع المسلمين باستثناء قلة من العملاء إلى جانبه^(١).

وقابل جناح غاندي عدة مرات في سبتمبر ١٩٤٤م ليتناقشا حول مستقبل وقواعد الدولة الإسلامية حيث يناقش المسلمون حقوقهم في تقرير المصير، ولم تسفر هذه الاجتماعات عن شيء سوى توسيع الهوة، وانفصل القائدان العظيمان دون التوصل إلى قرار ملموس^(٢). وبفضل من الله وبمثل هذه المساندة الجماعية للمسلمين استطاع جناح أن يحقق الحلم الكبير وأن يقيم باكستان.

(١) الوعي . ديسمبر ١٩٦٨ بيروت.

Struggle for Independence p. 36. (2)

دور إقبال

أولاً: موقف إقبال من حركات التجديد في الإسلام وتمثل هذا في دعوته إلى:

١ - الجهاد ٢ - التوحيد ٣ - التطور

١ - الجهاد:

ولد إقبال في القرن التاسع عشر وأدرك القرن العشرين، وحفظ القرآن ووقف على حياة الشرق بسبب ميلاده وتوطنه فيه، ورأى حياة الغرب بالارتحال إليه والإقامة فيه فترة من الزمن، ومال إلى الزهد، ورأى فيه رفعة لنفس الإنسانية، وقوة احتمالها إزاء الأزمات والأحداث فأرسي دراسة الفكر الغربي، وبحثه بقدر ما كان يعي من الثقافة الإسلامية، واندفع إقبال بمحاولة فكرية إسلامية أو بحركة إصلاحية في تعديل المفاهيم الإسلامية، وقد دُفع إلى هذه المحاولة تحت ضغط الفكر المادي الطبيعي وسيادته في أوروبا، وانتشار الدعوة إليه في الهند خاصة في ذلك الوقت عن طريق سيد أحمد خان، والشاعر التركي توفيق فكرت من دعاة مذهب اوجست كونت في حركة التجديد الإسلامي في تركيا.

واجهت حركة إقبال اتصال الغرب بالشرق عن طريق الاستعمار دون أن تواجه هذا الاستعمار مباشرة، رأى إقبال المسلمين ضعفاء مستضعفين، تركوا العمل والسعي وتخلفوا عن ركب التمدن، ولم يعد لهم دراية بالجواهر الإنساني أو قوة الذات بل يشسوا من الرقي والتمدن، ومن هنا كانت دعوته إلى العمل والأخذ من الرقي ومدنية العصر ما يناسب، ولم يخضع إقبال فقط لظروف زمانه، ولكنه أيضا كان له القدرة على التحكم في هذه الظروف بل وتحريكها كيفما شاء، فكان بشعره وأفكاره وبيصيرته من أهم العوامل المحركة للمجتمع الهندي في زمانه فقد كان مصورا رائعا وصادقا لأحاسيسه وما يرب به المجتمع الهندي آنذاك من اضطرابات وتناقضات، أحس قواد الأمة إزاءها بضرورة البحث عن الجديد، وظهر عدم صلاحية القيم القديمة للمجتمع، وكانت هذه ضرورة فالبحث عن الجديد يمد

جذوره ليصل إلى كل مجالات الحياة، وإقبال عاد بشحنات كبيرة من المعارف والتجارب، وبدأت حياته تتبلور داخل خبراته الواسعة في أوروبا، ومن خلال دراساته الشاملة عن الحضارة الغربية ومقوماتها ومحاسنها مساوئها، بدأ بإيقاظ شعور المسلمين، ليعث فيهم روحاً جديدة، ويعدهم لحمل رسالتهم الخالدة^(١) :
 ويبدأ إقبال يدعو، بل إن من أهم معالم رسالته الدعوة إلى الاعتماد على النفس، فإن أكبر داء الشرق عامة والمسلمين خاصة فقدان عزة النفس وضياع علو الهمة، فأصبح الرضا بالمذلة شعارهم، والصبر على الهوان من طبعهم، لذلك يخاطبهم: «اعرف حقيقتك أيها الزارع لأنك أنت الحب وأنت المزرعة وأنت الماء وأنت المحصول، هل يرتعش قلبك من خوف الطوفان؟! مع أنك أنت الريان، وأنت البحر وأنت السفينة، وأنت الساحل، وأسفاه على جهلك لأنك أصبحت محتاجاً إلى الساقى!»^(٢).

وإقبال بدأ حياته الفكرية والشعرية في هذه الحقبة العصبية من تاريخ المسلمين في الهند والعالم الإسلامي فكان من الضروري أن يطلع على هذه الحركات كلها ويتجاوب معها، ثم يكون شخصيته ليحدد له منهاجاً للخدمة والنضال طبقاً لمواهبه وعبقريته ويتفق مع الظروف والملابسات المحيطة بالمسلمين، وكان إقبال يؤمن بالدين إيماناً قوياً ويعتبره في قمة التجارب الإنسانية، ويحرص كل الحرص على بقائه وظهوره على صورته الحقيقية، وهذا الدين لا يتمثل عنده إلا في الإسلام. ومن أجل ذلك يحزن إقبال لتأخر ركب الإسلام بسبب تخلف المسلمين ووقوعهم في أوهام شتى وخرافات، وتناسيهم إسلامهم ومجدهم العريق، ودورهم العظيم في الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية.

وآمن إقبال بالجهاد وحين قامت تلك الطائفة التي تنكر الجهاد أخذ إقبال عليهم أنهم يدعون المسلمين، ولا سلاح في أيديهم والأمم المدججة بالسلاح تشن الحرب

(١) خواجه عبدالحميد، إقبال إيرانيون كي نظر مين. ص ٨٠ كراچي.

(٢) المقتطف فبراير ١٩٣٨.

بين الحين والحين وهو يشير إلى هذا في ضرب كليم^(١). وفيما يتعلق والعمل أعجب إقبال «بالجيتا» الكتاب المقدس للهنداكة ذلك الذي سبق جميع الفلاسفة في الدعوة إلى العمل، وبدون العمل لا يكون هناك نظام ولا كون، وبتعبير آخر إن الكسل والثقل والسكون والجمود نهايتها المحتومة هي الموت^(٢).

٢ - التوحيد:

كرس إقبال حياته لكي يخلق في عقول الناس عامة والمسلمين خاصة الإيمان بمباديء الإسلام التي تسمو بالإنسان، وتخدم الإنسانية ولقد رأى بوضوح هدف السلام العالمي كامناً في هذه المباديء الإسلامية حيث لا يقسم العالم إلى طبقات أو أجناس أو ألوان، وحيث لا يوضع الناس تحت شعارات من القوميات أو الأسماء الأخرى سوى الحق والإخلاص، والتوحيد هو عون هذا الإيمان، وإقبال يركز عليه كثيراً، وعلى حد تعبير إقبال يجب أن يبقى كعامل حي في حياة الإنسان العقلية والروحية وهو عامل مساعد يهب القوة، ومصدر القوة يكمن في الإيمان الراسخ في التوحيد وهذا ما يعنيه بـ «يقين محكم» وهو يرى بوضوح هذا الإيمان، ويدعو أن يقاسمه الشباب في هذه الرؤية^(٣) كما أن إقبالاً يرى أن المجتمع المثالي يتطلب ثمانية مطالب أساسية: أولها أن يرتكز هذا المجتمع على اعتبارات إيمانية كالتوحيد، فيرى أن أي مجتمع يفشل في إدراك أساس الأخوة بين البشر يتجه إلى السقوط، وأي مجتمع إنساني يرتكز على اعتبارات الجنس أو اللون أو الطبقة إنما يرتكز على أسس متداعية واهية فلو أن المجتمع ارتكز على قواعد الإسلام وهي قواعد روحية مؤصلة تمتد على طريق هو طريق التوحيد الذي يعطي وحدة العالم عن طريق تحديد القاعدة الأساسية التي يعتبرها الجنس البشري أخوة واحدة وأساس التوحيد يهب جميع أفراد المجتمع وحدة المجتمع نفسه من ناحية الفكر ووحدة العمل وكل الديانات

(١) عزام. ضرب كليم ص ١٧ - ١٨.

(٢) مقدمة أسرار خودي. الطبعة الأولى.

(٣) H. H. Bilgrami: Iqbal, s Mind and Thought p. 84. Lahore. 1954.

الكبرى تؤكد هذه العقيدة .

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١) [النساء: ٤٨].

وكذلك فإن التوحيد من صفات الإنسان الكامل والتي هي دليل أساسي على الاختلاف الحقيقي بين المؤمن والكافر . وليس هذا مجرد تعصب ديني لكنه موقف أساسي تجاه الحياة ، فإن التوحيد يدفع بالمؤمن إلى أن يطور كل إمكانياته ويستعمله من أجل قهر ورعاية العالم باسم الله الواحد الأحد^(٢).

ويقول الأستاذ عبد الوهاب عزام : «التوحيد هو الإكسير الذي يحيل التراب ذهباً ، والسر الذي ينجلي فيه الدين ، والشرع والحكمة والقوة والسلطان ، وهو الدواء الذي يمت الخوف والشك ويحيي العمل والأمل ويقهر كل صعب ويذل كل عقبة . وكلمة التوحيد هي الروح في أمتنا ، وهي اللحن في قيثارتنا ، وبها الحياة ، وبها القوة ، وإقبال بين في «رموز بيخودي» كيف جمع الناس التوحيد وسوى بين الأبيض والأسود إلى أن يقول إن أمتنا قائمة بالتوحيد لا بالنسب والوطن»^(٣).

٣ - التطور :

من الأسباب الرئيسية للعلل التي أصابت المسلمين- في رأي إقبال- أن الأوهام والخرافات استحوذت على عقولهم ، وانهمكت نفوسهم في الخلافات والخصومات تلك التي تزيد الشقة بينهم ، وتباعدهم عن فكرة الوحدة ، وتشتت شملهم ، وتفصم عراهم ، ولحظة ظهور الأفكار الحرة في الإسلام هي أدق اللحظات في تاريخه ، فحرية الفكر من شأنها أنها تنزع إلى أن تكون من عوامل الإنحلال بالإضافة إلى أن زعماء الإصلاح في الدين والسياسة قد يجاوزون في تمسهم لتحرير الفكر ، الحدود الصحيحة للإصلاح ، إذا انعدم ما يكبح جماح

(١) S. A. Wahid: Introduction to Iqbal p. 35. Karachi.

(٢) H. H. Bilgrami: Iqbal,s Mind p. 124. Lahore.

(٣) عزام: إقبال ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ديوان الأسرار والرموز ص ٨٧ - ٨٩ القاهرة.

حميتهم، وبسبب خطورة مهمة التجديد، ودقتها في الإسلام، حاول إقبال دراسة جميع التطورات في العالم الإسلامي ومحاولات التجديد السابقة فيه مبتدئاً بشاه ولي الله الدهلوي والشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى يصل إلى جمال الدين الأفغاني والمصلحين الآخرين بالهند، وفي العالم الإسلامي.

ويرى إقبال أن شاه ولي الله الدهلوي كان أول من وجه العناية إلى الشريعة الإسلامية، وكشف أسرارها وغوامضها، وبهذا مهد السبيل لدراستها من جديد للقيام بمهمة التجديد لمسيرة التطورات الحديثة، وملابساتها الطارئة، وإزالة الركود فيها لتصبح سهلة مرنة تسير حياتها وتحل مشكلاتها، والسؤال الذي يواجهه المسلمون في كافة أنحاء العالم هو: ما إذا كانت الشريعة الإسلامية قابلة للتطور؟ وهو سؤال تحتاج الإجابة عنه إلى جهد عقلي، ومن المؤكد أن يكون، الجواب عنه الإيجاب على أن يواجه العالم الإسلامي هذا السؤال بالروح التي واجه بها عمر مشكلات الدين، فقد كان له من الشجاعة الأدبية ما جعله يقول في اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ: «حسبنا كتاب الله»^(١).

وإقبال كان يؤمن بمرونة الحياة مع ثبات القاعدة، ولما كانت صفة الحياة هي التحول المستمر فالنبات ينمو ويتحول دون أن يترك جذوره أو يفقد شخصيته، والحي دائم التمثيل والإفراز والنمو دون جمود أو طفرة ودون رخاوة أو عنف، والحركة أساس الحياة، والتطور ناموس الوجود، ولكن لا ندع الحركة تقتلعنا، ولا التطور يحولنا عن جذورنا، فكان إقبال يرى ضرورة تحرير الفكر من قيد التقليد والقضاء على المفهوم الذي غلب خلال فترة الضعف، وهو مفهوم الجبرية والجمود والانقطاع عن الدنيا. يقول في ضرب كليم:

من القرآن قد تركو المساعي وبالقرآن قد ملكوا الثرياً
إلى «التقدير» ردوا كل سعي وكان زمامهم قدراً خفياً

(١) إقبال. تجديد الفكر الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود ص ١٧٥ القاهرة.

تبدلت الضمائر في أسرار فما كرهوه صار لهم رضىاً^(١)

آمن إقبال بتحرير الفكر من جموده وبضرورة التكامل بين العقل والقلب والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والدين والعلم، نتيجة لما رآه من حرص بعض المستشرقين والمنصرين ودعاة النفوذ الاستعماري على التركيز على جوانب معينة من التراث، والاهتمام بها، وإحيائها والمبالغة في إذاعتها، وفي مقدمتها دراسات الصوفية المتصلة بالمفاهيم المنحرفة والدخيلة على مفهوم الإسلام الأصيل والمنسوبة إلى التصوف. فإقبال يرجع سوء حال المسلمين أساساً إلى سببين :

أولهما : الإنحرافات الفكرية والسياسية والثقافية .

ثانيهما : الشعور بالإخلاق إلى الكسل الذي أوهنت به بعض الطرق الصوفية - التي عميت عن حقائق الحياة الراهنة - نفوس الناس ، ودفعت بهم إلى التعلق بكل أنواع الخرافات .

على أن إقبالاً لم يكن ضد الصوفية بمفهوم الزهد فقد كان شديد الإعجاب بمولانا جلال الدين الرومي ، ومنه استلهم الكثير من الآراء ، كان إقبال يعتقد أن الصوفية انحدرت من مكانها السامي التي كانت تشع منه الروحانيات إلى أن أصبحت مجرد استغلال للجهل وسلامة النية ، وحين أدرك إقبال أن المسلمين وقعوا فريسة للاستعمار الغربي رفع صوته بالثناء والحسرة إلى حد أنه جأ بالشكوى إلى الله ، وهذا ما ضمنه قصيدته «شكوى» و«جواب شكوى» ومما قال :

«تقول الأصنام في المعبد إن المسلمين قد ذهبوا ، وهي فرحة لأن سدة الكعبة قد اختفوا ، وهي تقول أن مسرح العالم خال الآن من حداة الإبل ، لقد فروا ومعهم قرأنهم تحت إبطهم ، أليس لديكم اعتبار لوحدثكم؟ إنكم تُصنفون فضلكم على دورهم ، أما صواعقهم فستنقض على مساكننا وحدنا»^(٢) .

(١) عزام : ضرب كليم : ص ٩ القاهرة .

غير أن إقبالاً لم يقنط بل كرس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يكمن السبب في حدوث أخطائنا السابقة فوجد أن مرد هذا، الآراء الإغريقية التي تغلغت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين وكانت سبباً في تحول هذا الدين من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية، الأمر الذي أدى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية، والغرب لم يقبل تحرر العالم الإسلامي إلا على أساس مفروض عليه، وهو أن يدخله في فكره فكان التحرر من النفوذ العسكري علامة على الوقوع في أزمة سيطرة نفوذ فكري من جانب الغرب الذي يرى أنه لا سبيل إلى تحرير الأمة إلا باعتراف مذاهب الغرب وهذا تماماً يفسر ما كان يحدث في الهند، وما كان يفعله المستعمرون البريطانيون داخلها، ومساعدتهم لأولئك الذين لبسوا رداء الإسلام، وهم في الحقيقة يحاربونه ويفسر تماماً حركة سيد أحمد خان الوليدة التي نمت، فوضحت، وفضحت نفسها بعد أن تمخضت عنها الحركة القاديانية، كما أن هذا يفسر أيضاً دعوة إقبال إلى التعارف على «الأساس» الواضح والصريح لفكرنا وذاتنا وشخصيتنا، وأن نؤمن بقيمتنا الإنسانية التي بنينا عليها تطورنا الفكري، فإذا وجدنا هذا الأساس وهو موجود، واتفق عليه تحققت وحدة الفكر التي تحول دون البلبلة والاضطراب في تيه نظريات الغرب فإذا وجدنا أنفسنا في وحدة الفكر كان من السهل مواجهة تيارات الفكر كله دون أن تقلعنا أو تمسخنا، كما يرى إقبال أن الأساس الحقيقي لقيام فكر جديد هو مواجهة القديم والمستورد معاً على أساس قاعدة أساسية تتمثل في مقوماتنا الحقيقية وفي ظل شخصيتنا الأصلية.

وإقبال لا يوجه دعوته الإصلاحية إلى طائفة معينة من المسلمين تلك التي ينتمي إليها بل يود أن يعمم دعوته إلى جميع الطوائف والنحل الإسلامية.

ويشيد إقبال بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التي أطلق عليها آنذاك (الوهابية) فيقول: «كانت هذه الحركة (أي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية) مصدر الإلهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم الحركات الكبرى

الحديثة بين مسلمي آسيا وأفريقيا كالحركة السنوسية وحركة الجامعة الإسلامية^(١).
وجعل إقبال القرآن مصدر الإلهام لدعوته لأنه كان يؤمن بالقرآن إيماناً لا حد له
وأشار إلى هذا الأستاذ أبو الأعلى المودودي فقال: «إن كل ما كان يفكر فيه إقبال
كان يفكر فيه بعقل القرآن، وكل ما كان يراه كان يراه بعين القرآن». بينما يقول
خليفه عبدالحكيم: «كان إقبال شاعر القرآن وقرآن الشعر»^(٢).

وقد أشار إقبال نفسه إلى هذا في رموز بيخودي^(٣)، ورأى إقبال أن بعض
المسلمين قد التمسوا في آيات القرآن الواضحة ما يسوغون به نزعاتهم المتباينة ولو
كان ذلك على حساب مضامينه الواضحة فقال: «وفي مقدوري أن أذكر في هذا
المقام أمثلة عدة على سوء التفسير البين ولكن الموضوع يحتاج إلى دراسة خاصة»^(٤)
ويرسم إقبال خطوطاً واضحة دقيقة للتجديد والإصلاح فيرى وجوب الالتفات إلى
التطورات الحديثة والمطالب المعاصرة: «ويجب أن نوسع أفكار علماء الإسلام
ونزودهم بالمعارف الحديثة بشتى الطرق»^(٥). ومع أن إقبالاً كان من مدرسة سيد
أحمد خان إلا أنه لم يتفق معه كلية بل حاول الإصلاح في أهداف الجامعات
ورسالتها، وهو يقترح إزالة الفروق بين المدارس الفكرية الموجودة في الهند، وهي
جامعة عليكره وندوة العلماء ودوبند، وضم هذه المدارس إلى رباط واضح لتنتج
وحدة فكرية، وجامعة إسلامية عريقة^(٦).

ومهمة فكر إقبال في العمل لبناء الأمة تتمثل في رفع الغشاء عن الوجه الحقيقي
للفكر الإسلامي، وتصحيح المفاهيم، وكشف الأخطاء، والرد على الدعاوى
الباطلة ثم خلق الإيمان بالأمة والشخصية على أساس مالها من مقومات وتراث

(١) تجديد الفكر الديني ص ١٧٥.

(٢) قاضي أحمد ميان اختر. اقباليات كا تنقيدي جائزه ص ٩٦ كراچي.

(٣) عزام: الأصرار والرموز ص ١٥١.

(٤) تجديد الفكر الديني ص ١٢٥.

(٥) مضامين اقبال. خطاب ديسمبر ١٩٣٠م كراچي.

(٦) مضامين اقبال ص ٩٦.

وإعادة بناء الشخصية الفردية بالتربية من أجل بناء إنسانية الإنسان، ومن أروع ما يتمثله فكر إقبال :

التكامل : وهو الربط بين المادة والروح ، والفرد والمجتمع وضد التجزئية .

الوسطية : وتمثل في البعد عن الطرفين الحادين للانحراف والعتف .

الحركة : وتمثل في القدرة على مواجهة التطور والبعد عن الجمود، وعنده أن الحركة في الجماعة الإسلامية بالاجتهاد، وبأسف لإهمال هذا الأصل الذي يعني إبطال الاجتهاد^(١).

والطريق الوحيد أمام المسلمين - كما يراه إقبال - هو تحصيل المعرفة الحديثة ولكن بطريقة محترمة ومستقلة مع تقدير تعاليم الإسلام في ضوء هذه المعرفة حتى ولو أدى بنا الأمر إلى أن نختلف مع الذين سبقونا، وهكذا كرس إقبال جهوده لإيقاظ شعور المسلمين وإنارة الطريق أمامهم، وأبان لهم أن الإسلام يملك طاقات هائلة وقيماً إنسانية عالية ومبادئ سامية بحيث يمكن أن يُظل جميع الشعوب العالمية بظلاله لأنه يؤمن بالعدالة الاجتماعية، ويقضي على جميع الإنقسامات الطائفية على أساس من القومية والنعرات الإبليسية الأخرى وبهذا يستحق أن يحتل مكاناً خالداً في قلوب الناس على اختلاف مللهم ونحلهم بل هو الذي يدعو إلى توحيد الأديان على أساس الإيمان بالله ورسالات السماء وفي ذلك قوله عز وجل :

﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ [آل عمران : ٦٤]

صدق الله العظيم

ثانياً: إقبال وموقفه من فكرة الجامعة الإسلامية :

بدأ إقبال حياته الفكرية والشعرية في هذه الحقبة العصبية من تاريخ المسلمين في الهند والعالم الإسلامي فكان من الضروري أن يطالع على ما فيه من حركات وأن

(١) تجديد الفكر الديني . المحاضرة السادسة .

يتجاوب معها ثم يكون شخصيته ليحدد له منهاجا للخدمة والنضال طبقا لمواهبه وعبقريته، ويتفق مع الظروف والملابسات المحيطة بالمسلمين، وفي العصر الذي اشتدت فيه وطأة الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي، لم ير إقبال بصيصا من الأمل إلا في تركيا، وتياراتها الفكرية الحديثة على أساس أن في مقدورها قيادة الأمة الإسلامية كلها، ولكن هذه الأمانى تحطمت، وتحولت إلى سراب بعد حركة مصطفى كمال المناهضة للإسلام «إن تركيا بحق هي الأمة الإسلامية الوحيدة التي استيقظت من الرقاد الفكري، وهي وحدها التي نادى بحقها في الحرية الفعلية، وهي وحدها التي انتقلت من العالم المثالي إلى العالم الواقعي تلك النقلة التي تستيع كفاحا مريرا في ميدان العقل والأخلاق»^(١).

وحول إقبال شعره شرارة ضد هذه النزعة المناهضة للإسلام، وضد أتاتورك والأتراك يقول: «لقد سمعت مزاعم الأتراك وهل هنا من يبلغهم رسالتني؟ إنكم أيها الأتراك أخذتم جوار أوربا وصحبتها مع أنكم بفضل الإسلام كنتم على مقربة من الكواكب والنجوم»^(٢).

ويرى بعض ناقدى إقبال والمعترضين على أفكاره السياسية أن هذا التلون في الأفكار السياسية لإقبال يجعله متغير متبدل، أي أنه اتجه في البداية إلى الوطنية الهندية، ثم نتيجة تأثيره بسياسة الدولة الإسلامية، نراه يتجه إلى فكرة الجامعة الإسلامية، ثم إلى الاشتراكية وهكذا... لكننا لو بحثنا بدقة في كلام إقبال لرأينا أنه يتضح من مختلف منظوماته وأشعاره أنه قد ارتبط بخط فكري واضح بل إنه منذ البداية قد حدد الخطوط الرئيسية لأفكاره السياسية التي أخذت شكلا منظما في آخر حياته، فهو في بداية نظمه كان يأخذ الجانب الحسن من كل ما يرى متمشيا مع القاعدة «خذ ما صفى ودع ما كدر» وهو لهذا لم يكن أبداً ينفعل بسرعة أو يتأثر

(١) إقبال. تجديد الفكر الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود. المحاضرة الأولى.

(٢) بال جبريل. إقبال.

سريعاً أو يتغير كما ذكر ناقده، ويمكننا أن نرى ذلك واضحاً من خلال مؤلفاته^(١). وإقبال - من خلال كتاباته - يمكن أن يعدّ سياسياً، لكن لو قيل بأنه سياسي محترف فإن هذا يجاوز الحد - وهو في البداية يرفع شكواه من أجل مسقط رأسه «كشمير» ثم يرتفع درجة فتصبح شكواه من أجل الهند، وهذا السير التدريجي من مرحلة حب كشمير والهند يصل إلى مرحلة الوحدة الإسلامية، فكان يرى أن مسلمي العالم ومسلمي الهند يعطي كل منهم ظهره للآخر، ولهذا رأى ضرورة ترك الخلافات العرقية والقومية والاتحاد تحت لواء التوحيد والنبوة فالدين أهم من الوطن، والأمة ليست متوطنة بالماء والتراب - ولا يغيب عن بالنا أنه هو الذي وضع النشيد القومي للهند^(٢).

أما فكرة الجامعة الإسلامية التي دافع عنها إقبال فقد أشار هو نفسه إلى أن الناس لم يفهموا مقصده ومفهومه عنها، ففكرة الجامعة الإسلامية (Pan Islamism) عنده هي كفكرة سياسية ليس لها وجود ولو أنها وجدت أحياناً فإن ذلك فقط يكون في خيال هؤلاء الناس الذين كانوا يتصلون بسلطان تركيا، وجمال الدين الأفغاني الذي يرتبط اسمه بحركة الجامعة الإسلامية كان يحلم فقط بتحقيقها في صورة حكومة سياسية واحدة للمسلمين - ومن الجدير بالذكر أن نقول إنه لا توجد مثلاً في لغة إسلامية عربية كانت أو فارسية أو تركية فقرة ترادف كلمة Pan Islamism وعلى كل حال فإن الإسلام نظام اجتماعي لكل البشر، وهو لم يقل أبداً بحدود قومية أو جغرافية، ولو وضع هذا المفهوم الإنساني نصب الأعين فإن أي إنسان سوف يفضل اللفظ البسيط الواضح «الإسلام» عن Pan - Islamism وهنا يمكننا أن نعدّ Pan - Islamism موجودة وستبقي دائماً^(٣).

(١) قاضي أحمد ميان. اقباليات كا تنقيدي جائزه كراچي ١٩٦٥ ص ١٤٠.

(٢) مجتبي مينوي. اقبال لاهوري ص ٢٣.

(٣) اقباليات كا تنقيدي جائزه ص ١٤٣.

ويستمر إقبال: «إنني أعتبر أن التعبير Pan - Islamism جعل ليغني نوعاً من المكيدة مركزها استانبول فأفهم المسلمين في العالم ضرورة التخطيط لنوع من الوحدة بين الدولة الإسلامية ضد الدول الأوروبية. والمرحوم براون أستاذ جامعة كمبردج كان - كما أعتقد - قد أثبت أن Pan - Islamism بهذه الحال لم توجد في استانبول أو في أي بلد آخر، أما عن الأفغاني فأنا لا أدري هل استعمل هذا الاصطلاح نفسه أم لا؟ لكن الحقيقة أنه قد نصح كل من أفغانستان وإيران وتركيا أن يتحدوا ضد التوسع الأوربي، وهذا مقياس دفاعي بحت، وأنا شخصياً أعتقد أن جمال الدين الأفغاني كان على حق تام في رأيه هذا، وهناك حالة أخرى ينبغي استخدام هذه الكلمة فيها وهي أنها تحوي تعاليم القرآن أو اللون أو الطبيعة وفي هذه الحالة فإن Pan - Islamism تعني فقط Pan - Humanism وهنا فكل مسلم سوف يكون Pan - Islamist، ويأمل أن يكون كذلك وعلينا أن نحذف كلمة Pan من Pan - Islamism - لأن الإسلام تعبير يغطي تماماً المعنى الذي ذكرته سابقاً»^(١).

ثالثاً: إقبال وموقفه من فكرة القومية :

لم يكن إقبال يؤمن بفكرة القومية بمعناها المعروف في أوروبا إذ إنها عنده تقوم على أساس مجتمع إنساني ينطوي تحت الأحكام الإلهية والإرشادات النبوية، وتحرر الفرد من الامتيازات الجنسية، وفي كل مكان في شعره، وفي كل خطبه وكتاباتة كان يحذر المسلمين من خطرهما، وحين قال «حسين أحمد» في خطبة له أن الأقوام تبني بالأوطان أجاب إقبال إجابة شديدة اللهجة، بل تعجب بشدة من هذا القول:

«يا من أعلنت على المنبر أن الأمة من الوطن، إنك لا تدري شيئاً عن مقام محمد العربي»^(٢).

ومن أهم مبادئ إقبال الحب العام، وكرهية الفروق الجنسية والعرقية، وتمييز

(١) Dar: Letters and Writings of Iqbal p. 57. Karachi. (1)

(٢) ارمغان حجاز: إقبال.

الألوان والأوطان .

«لسنا من الأفغان ولا الترك ولا التتار، فقد ولدنا في الحديقة ومن غصن واحد، إن تمييز اللون والرائحة علينا حرام، لأننا تربينا في ظل ربيع واحد» .
 وإقبال يرى أن وجود الفرد وجود اعتباري وأن الاجتماع الإسلامي هو ما تأكد بوجود الدين، ووحدة الفكر، ووحدة الغاية، وأعظم خطر يهدد هذا الاجتماع في العصر الحاضر هو نبذ الروح الدينية التي كانت أساس التكوين لوحده، وخوض أفرادهم غمار التعصب الوطني والعنصرية الذي تعلموا أساليبه من الغرب لذلك يخاطبهم :

«إن الدين إذا أفلت ذيله من اليد، فلا رابط هناك، وإذا ذهب الرابط ذهب الأمة .

لا تقس أمتك على أم الغرب، لأن نظام أمة الرسول الهاشمي نظام فريد .
 إن اجتماعهم ينحصر في الملك والنسب ولكن اجتماعك يستحكم بقوة الدين»^(١) .

رابعاً: إقبال وموقفه من الوحدة الإسلامية الهندوسية :

أمدت تعاليم إقبال الجيل الإسلامي الناشيء بأراء كانت فوق مستوى العصر الذي كان يمر به لكنها مع ذلك كانت تبدو شبه متحيزة وإسلامية، فبينما سيد أحمد خان حاول أن يعطي المسلمين في الهند حالة الوجود المنفصل فإن إقبال أعطى المسلمين حالة من الوجود المستقل^(٢) . وإقبال يعترف أن هناك اختلافاً حقيقياً بين المسلمين والهندوس فإن علاقتهم سطحية، ولكن اختلاف فكرهم الأساسي العميق هو أن فلسفة الهندوس قائمة على أساس الفرار من الحياة، ولكن حكمة الإسلام مبنية على النضال والكفاح، ويقول إقبال : إن هذه الوحدة السطحية كانت أداة

(١) المقتطف مارس ١٩٣٨ عدد ٩٣ .

(٢) The Oxford History of India p. 837 .

يستغلها الحكام الأجانب بإثارة الفتن والاضطراب والقتل بين الفريقين ، ومن هنا جاء رأي إقبال بضرورة أن يكون لكل شعب وطن مستقل^(١) هذا بينما ظل المهاتما غاندي يبيث تعاليم الأهمسا ، دون كلل أو تعب ، مصراً على أن يكون هدفه ثورة أدبية أخلاقية وأن ذلك شيء ضروري بالنسبة للهندوس ، وبينما كانت تعاليم غاندي في الأهمسا تتصل كثيرا بتعاليم تولستي التي هي نفسها حلقة من سلسلة الإصلاح النصراني فإن حركة إقبال كانت كذلك غير منفصلة عن التأثيرات الثورية الغربية ومقابلة لتعليم غاندي ، وحين رأى المسلمون حاجتهم لخلق المزيد من الحركة والمزيد من الرؤية ، وجدوا كل هذا في كتابات إقبال^(٢) الذي لم يكن لديه أي تحامل ضد أي طائفة أو أمة في العالم فكل ما كان يريده هو أن يرى الإسلام يعود إلى بساطته ، وأن يرى الهنود يعيشون في سلام ، وهو يرى أنه يمكن تحقيق ذلك حتى حين تبقى كل طائفة على ثقافتها وشخصيتها^(٣) . وعارض إقبال بشدة تلك الخلافات الدينية التي كانت تنشب بين أبناء الهند على أساس من القوميات .

وحذر إقبال في نفس الوقت من قبول أي وصايا من جانب الاستعمار فقال إن وسائل الإصلاح التي تحاك في مصانع السياسة البريطانية إنما ترمي إلى تدعيم سيطرة الإنجليز إلى الأبد حتى يكون الجميع مطيعين لهم ، وهم كذلك لا يرون من صالحهم أن تسوي هذه المسائل خشية أن تذهب المعاذير التي يتذرعون بها ويتلمسون بها البقاء في أرض الهند ، ويهيب بالمسلمين ألا يقبلوا أي نظام يقرره الإنجليز ويفرضونه فرضاً ، وعليهم أن يسلكوا سبيلهم إلى ما يحفظ عليهم وجودهم في حكم مستقل ، ويتمتعون فيه بالحرية في تقرير ما يشاؤون لأنفسهم وللإسلام .

(١) عبد الحميد عرفاني . اقبال ايرانيون كي نظر مين «مقالة العلامة (دهخدا)» كراچي ١٩٦٥م .

The Oxrodd History of India p. 837. (2)

Letters and Writings of Iqbal p. 60. (3)

خامساً: إقبال وموقفه من السياسة :

كان شعر إقبال أناشيد مسلمي الهند المجاهدين ، ولا ريب إن شعره أشعل في النفوس ثورة على سلطان الإنجليز في الهند ، وأمد المجاهدين بالأمل والعزم والإقدام ، وقد شارك إقبال في سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ، ورأس مجامع سياسية وكان عماداً قوياً لحزب الرابطة الإسلامية .

ألح عليه أصدقاؤه سنة ١٩٢٦م أن يرشح نفسه في انتخاب الجمعية التشريعية في البنجاب فأيده الناس وانتخب بغير عناء ، ولا تزال خطبه في هذه الجمعية شاهدة بعمله فيها ، وقد عمل في حزب الرابطة الإسلامية ، ورأس الاجتماع السنوي في إله آباد سنة ١٩٣٠م ، وكانت أحوال المسلمين بالهند حينئذ تعظم الشقة والتبعة على من يتصدى لقيادتهم ، وفي هذا الاجتماع ، ألقى خطبة مسهبة ، دعم فيها آراءه بحجج من الفلسفة والاجتماع والأخلاق ، ونبه الناس إلى أن اتحاد الهند عسير في هذه الأحوال ، ولا سبيل إلى جمع الكلمة إلا باعتراف كل جماعة في الهند بالجماعات الأخرى ، والتعاون بين الجماعات المختلفة . وقال إقبال : « إن الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التغاضي عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية حتى ينشأ لها هذا الشعور الذي ينشئ الأمة ، إن لهذا الشعور ثمناً يأبى أهل الهند أن يؤدوه ، فينبغي إذن ألا نلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق بين الجماعات ، بل نلتمس في الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل للتعاون بينها » .

ويتصل بهذا الخطبة خطبة في المؤتمر الإسلامي حينما تولى رئاسة اجتماعه السنوي سنة ١٩٣٢م قال فيها : « لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية ، ولكن العبرة في الحقيقة بإيمان الإنسان وثقافته وسننه التاريخية ، هذه هي في رأي الأشياء التي تستحق أن يعيش لها الإنسان ، ويموت من أجلها ، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقاً » .

واشترك إقبال في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١م و١٩٣٢م في لندن وكان المؤتمر ينظر في دستور جديد الهند ، وكان لأقواله وأعماله أثر بين في أعمال المؤتمر

وقد شهد مؤتمر المائدة المستديرة الثالث^(١).

سادساً: إقبال وموقفه من إنشاء باكستان :

ذكرت فيما سبق أن مسألة الوحدة بين الهندوس والمسلمين أصبحت مستحيلة وقد يبدو غريباً أن يبدأ إقبال حياته السياسة بوضع كل ثقله في النضال من أجل التقريب بين الطائفتين، إلا أنه استحال الجمع بينهما، وأصبحت الاضطرابات الطائفية التي تمثلت في القتال الدموي بين الطائفتين ظاهرة يومية في حياة شبه القارة، وفي هذا الجو ألقى إقبال كلمة بوصفه رئيساً لمؤتمر حزب الرابطة الإسلامية عام ١٩٣٠ جاء فيها :

«ليست الوحدات في المجتمع الهندي وحدات إقليمية كما هو الحال في الدولة الأوروبية، فالهند قارة تقطنها مجموعات بشرية وأجناس مختلفة، وتصرفات كل هؤلاء الناس لا يتحكم فيها وعي بجنس مشترك، وليس في الاستطاعة تطبيق مبدأ الديمقراطية الأوروبية في الوقت الذي يعترف فيه بوجود جماعات طائفية، وعلى هذا فإن طلب المسلمين بتأسيس هند مسلمة داخل الهند مطلب له ما يبرره تماماً، وأنا شخصياً أحب أن أرى البنجاب وإقليم الحدود الشمالية الغربية والسند وبلوچستان وقد اندمجت فيما بينها وكونت دولة واحدة وسواء كانت هذه الدولة بحكومتها الخاصة داخل نطاق الإمبراطورية أو خارجها فإن تكوين دولة إسلامية قوية في شمال غرب الهند يبدو لي أنه المصير الأخير للمسلمين، والواجب على الهندوس ألا يساورهم الخوف من أن خلق دولة إسلامية تتمتع باستقلال ذاتي يعني ممارسة نوع من الحكم الديني في مثل هذه الدولة»^(٢).

(١) عزام. إقبال ص ٢٥ - ٥٤.

(٢) إقباليات كا تنفيذي جائزه ص ١٤٦. مضاميم إقبال ص ١٢١.

Struggle for Independence p. 13.

In Memoriam p. 15 - 16.

وكتب إلى جناح يقول: «والإسلام لا يرى في قبول ديمقراطية اجتماعية تقوم في صورة مناسبة وتسمى مع مبادئه المشروعة شيئاً جديداً بل هو عودة إلى صفاء الإسلام الأصيل، وعلى هذا فإن المشكلات الحديثة متعذر حلها على المسلمين. . ولكن حسب ما قلت سابقاً فإنه إذا أردنا أن نيسر حلها على الطائفة المسلمة فإن من الضروري أن نعيد توزيع البلاد، وأن نقيم دولة أو أكثر من دولة إسلامية بأغلبية مطلقة».

ومن خلال هذه الكلمات نرى أن الأساس الذي تقوم عليه الدولة التي يراها إقبال ليس دينياً فحسب بل سياسياً أيضاً، وأكثر من ذلك فقد كان اقتصادياً، وقال أمام ممثلي مجلس العموم البريطاني في ١٥ ديسمبر ١٩٣٢ م: «لقد عينت رئيساً لحزب المؤتمر الإسلامي لاتحاد الهند، وإن تشكيل دولة إسلامية مستقلة ضروري لحل المشكلات القائمة، ولو أن هذا القرار لا يهديء من جروح المسلمين بالهند، لكنه في اعتقادي حل ممكن، وأتمنى أن تخدم الاضطرابات لو أنه تحقق، والإسلام لا يعترف باختلاف نسل أو أصل بل ويعد كل البشر إخوة، ونحن في الهند حوالي ٧٠ مليوناً ونريد أن نحفظ تراثنا وتاريخنا»^(١).

وكتابات إقبال إلى القائد الأعظم توضح أنه كان يقتنص كل فرصة عاملاً على تحقيق اقتراحه، وبدأ إقبال مع جناح وسائر الزعماء متكاتفين لتحقيقه، وقال إقبال مرة لجناح: «لو لم يمكن تحقيق هذه الفكرة فإن الحرب الأهلية سوف تنشب لا محالة ولنا أن نتصور كم من الوقت ستستمر هذه الحرب بين الهندوس والمسلمين، وأنا أرى أن سائر نقاط الهند مثلاً في الشمال تماثل في وضعها تماماً الوضع في فلسطين»^(٢).

(١) Letters and Writings of Iqbal p. 75- 76.

هلال مهنامه . مارس ١٩٦٩م كراچي.

(٢) Letters and Writings of Iqbal p. 18

وكان الاتفاق بين إقبال وجناح في الآراء والأفكار السياسية كاملاً وواضحاً وأشار جناح إلى هذا حين قال: «إن أفكار إقبال في الحقيقة متفقة مع أفكاري، وبناء على هذا فإننا نصل بها إلى نتيجة واحدة، وهي البحث عن شكل لاتحاد مسلمي الهند وقد استقر الرأي على اسم باكستان»^(١). هذا وبينما كان بعض الساسة من المسلمين يرون أن قيام باكستان هو فقط طريق النجاة من سيطرة الأغلبية الهندوسية، فإن فكر إقبال كان متجهاً فقط إلى بناء وقيام روح الإسلام، لأنه لم يكن أبداً مهتماً بالفوائد المادية وغيرها ولذلك فهو لم يكن يخشى الأغلبية الهندوسية، فقد كان يبغى أن يعيش المسلمون بطريقة سلمية حياة إسلامية، ومجتمعاً مثالياً، وظل يناضل من أجل هذا إلى آخر حياته فقال عام ١٩٣٧م لجناح: «أنت المسلم الوحيد في الهند الذي تتطلع إليه الطائفة الإسلامية للأخذ بيدها إلى بر الأمان خلال العاصفة التي ستهب على شمال غرب الهند، وربما على الهند بأسرها. . إن قيام اتحاد منفصل من المناطق المسلمة بعد إصلاحها على أساس الخطوط المقترحة هو السبيل الوحيد الذي ينتشر السلام عن طريقه بالهند، وننقذ به المسلمين من تسلط غير المسلمين، لماذا لا تكون البنغال وشمال غرب الهند أمة واحدة لها حق تقرير المصير كما هو الحال في الأمم الأخرى سواء كانت داخل الهند أو خارجها»^(٢).

وهكذا ظل إقبال إلى آخر سنوات حياته ينشد للمسلمين وطناً مستقلاً وأرضاً طاهرة متمثلة في الأرض الطاهرة أو باكستان التي كانت حلماً فتحقق ولست أرى خيراً من عبارة جناح - إلى جاويد يعزبه في أبيه - أختتم بها حديثي هنا:

«لقد كان لي صديقاً، وإماماً وفيلسوفاً، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخاً كالصخرة لم يزلزل لحظة واحدة قط»^(٣).

(١) مقدمة خطوط إقبال بنام جناح. كراچي. ١٩٦٧م

(٢) In Memoriam p. 17.

(٣) عزام: إقبال ص ٥٢.

- ٢ -

إقبال المفكر

ثقافة إقبال والفكر الإسلامي :

من الضروري لفهم الاتجاهات الفكرية للعلامة إقبال فهماً صحيحاً أن نتعرف أولاً على المعتقدات الإسلامية والتأثيرات الفكرية لديه ، وهذا ما أشار إليه إقبال نفسه حين كتب أنه «من الضروري لناقدي كلامي أن يطالعوا أولاً الحقائق الإسلامية» ومع أن إقبالاً لم يتعلم الفارسية والعربية على المنهج النظامي الذي كان سائداً في ذلك الوقت إلا أنه في الواقع قد استفاد كثيراً من «مير حسن» أستاذه في العلوم الإسلامية العربية والفارسية ، وفي الفترة التي قضاها إقبال في أوروبا قرأ كتب المستشرقين عن الإسلام سواء في الألمانية أو الإنجليزية ولما كان غير مطمئن إلى تأليفهم فقد اتجه إلى قراءة مسائل الدين الإسلامي عن أصلها في الكتب العربية وخاصة كتب التفسير والحديث والفقه والتصوف حتى إنه كان يستطيع أن يقرأ ويفهم الشمس البازغة ، وهو من كتب الفلسفة الشهيرة كما يتضح هذا من بعض رسائله وكتاباته كما اطلع على الكتب الفلسفية والكلامية القديمة ، وكان عالماً بغوامض الشريعة الإسلامية والفقه ومع أنه لم يكن لديه شغف بالأدب العربي لكنه استفاد منه إفادة مباشرة عن طريق كلام بعض شعراء الصوفية .

وبالإضافة إلى ما أسداه إليه والده من التربية فلقد كان لمطالعاته الواسعة وبحثه وتفكره أثر كبير في توجيه قلبه وعقله إلى الطريق الصحيح ، وثبت لإقبال بعد قراءته في الفلسفات الأوربية ، وتفكره في القرآن الكريم ، واطلاعه المتمكن على الروايات الإسلامية أنه لا يوجد دين يناسب الجنس البشري سوى الدين الإسلامي ، ففيه أسرار النجاة ورتقي وفلاح كل أمم العالم ، وعلى هذا الأساس بدأ يعمل على نشر الأصول القيمة للإسلام ، ومن هنا اصطبغ شعره واصطبغت فلسفته بل

وسياسته بصبغة إسلامية خالصة، وحرص إقبال في إقامة نظامه الفكري الخاص أن ينطلق هذا الفكر من الأفكار الإسلامية البحتة ونظرياته الحقيقية، فجعل أعلى مطمح له هو النظر في تعاليم القرآن الكريم، وبعد أن وضع الأمم والديانات على محك القرآن وصل إلى أن القرآن هو الكتاب الذي يستطيع أن يوحد بين البشر في جميع أنحاء الدنيا وهو الباعث للنجاة في حياتهم الدنيوية والأخرية.

وليس هناك أدنى شك أن إقبالاً قد استفاد من أساتذته الأوروبيين في الفلسفة في الفترة التي قضاها في أوروبا، وهذا رأى مسلم به حتى لدى المؤلفين الغربيين مثل أرندل ونيكلسون وجب وغيرهم ممن كتبوا عن إقبال بل إن بعض المغالين قال: بأن الأساس الفكري لإقبال قائم بأكمله على أفكار المفكرين الغربيين ولكن هذا تفكير خاطيء فهو حقاً استفاد من أوروبا في بناء نظامه الفكري إلا أن الأساس من بنات أفكاره هو، ويظهر هذا جلياً من كتاباته حين يشير إلى أن كل ما أخذه كان من القرآن الكريم: «كان القرآن الكريم هو أساس كل ما قمت به»؛ كما أكد هذه الحقيقة في نهاية «رموز بيخودي» بل إن فترة إقامته في أوروبا كانت عاملاً على زيادة إيمانه بأصول الديانة الإسلامية والحقائق القرآنية، وفي الهند اتخذت أفكاره الدينية حركة منظمة كتب عنها أستاذه د. أرندل في كتابه: «الدين الإسلامي» فقال: «نقل (أي إقبال) أفكار نيتشه وبرجسون في نظرياته، إلا أنه نتيجة لسعة اطلاعه وعلمه فإنه لم يكن أبداً صدى لأصوات الآخرين، ومن هنا فلم تكن اتجاهاته متمخضه عن تلك الآراء الفلسفية بل عن الدين الإسلامي، وهكذا تظهر عقيدته الوالهة بالذات المحمدية في شعره فيوضح عظمة الرسول وكيف أنه كان رسولاً عملياً، ويؤمن بأن تعاليمه هي أساس المجتمع المثالي وأنها سوف تنفث دائماً الروح الجديدة في العالم الإسلامي عن طريق إثبات الذات وارتقائها كما أنه ينبغي على كل مسلم أن يعمل على استكمال شخصيته ففي هذا رقي المسلمين».

والواقع أن تفكير إقبال بأكمله تفكير إسلامي إذا أنه جمع أفكاره مباشرة من القرآن الكريم كما أن الروح الإسلامية واضحة في شعره ومقالاته وكتاباته وخطبه؛

فلقد كان هدف إقبال هو بناء مجتمع إنساني متقدم سواء كان تقدمه تقدماً مادياً أو روحياً فعن طريق التقدم المادي والروحي يصل الفرد إلى الصلاح والفلاح الأخروي، وكذا يتحقق السلام العالمي إلى الأبد، وحصل إقبال على الكفاية والقدرة والمهارة في العلوم والفنون الأوربية كما تعمق في دراسة نظمها الحضارية والحكم الفلسفية، ولكنه لم يلجأ إلى حل مشكلاته في ضوء الفلسفة الأوربية، ومع هذا فقد تأثر بأفكار ومقالات بعض أصحاب الفكر إلى حد ما، وإقبال أقام مدرسته الفكرية الخاصة بعد أن طابق أفكار وآراء أعظم مفكري الشرق والغرب على الحقائق القرآنية، وصبغ تصوره للحياة بصبغة علمية في ضوء القرآن . . تلك كانت عظمة إقبال الروحية والعقلية التي جمعت متناقضات الحياة، وعملت على امتزاجها وكان إقبال مستعداً لقبول كل نظم الفكر غير تارك لنظريته الأصلية، ومن هنا يتضح لأول وهلة أن نظام فكره منتمى ومأخوذ من كل ما هو حسن فقد جمع أحسن الورود المختلفة ألوانها، وما نراه من تناقض في أفكار إقبال إنما هو نتيجة لأنه شاعر وفيلسوف، وهذا التضاد والتناقض إنما هو مراتب لفكر الشاعر الذي يقبل الرقي في كل حين^(١).

بعض الجوانب الفلسفية عند إقبال :

١ - فلسفة الذات

٢ - نظرية الإنسان الكامل

٣ - مشكلة الحرية

٤ - مسألة الزمان

٥ - فلسفة العمل

١ - فلسفة الذات «خودي» :

نقل إقبال لفظ «خودي» من معنى الأثرة والعجب والأنانية وما يتصل بها إلى

(١) إقباليات كا تنقيدي جائزه ص ٣٨.

معنى آخر جعله أصل فلسفته فأراد به الذاتية، وقال في فلسفته: «إن العالم قائم بهذه الذاتية وأن الإنسان بهذه الذاتية يقوم على مدى قوتها وضعفها بل يخلد أو يفنى باستحكامها أو اضمحلالها، وأن مقصد الإنسان في هذه الحياة معرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها واستنباطها في فطرتها. وكان القرآن أول ما لفت نظره إلى هذه الفلسفة لأن القرآن كشف الأسرار الكامنة والطاقات الهائلة في الإنسان وسخر له هذا الكون وجعله خليفة الله في الأرض، فخودي عند إقبال بتعبير عام هي عرفان النفس أو الاعتراف بوجودها، يقال لها في العربية: أنا وفي الفلسفة الغربية ego ولكي نفهم فلسفة الذات عند إقبال ونتمثلها فإنه يجب أن نراها في ضوء التاريخ حين ترك غروب شمس الدولة المغولية المسلمين في غم وحزن، ثم ما كان من دعوات المصلحين الهنود أمثال سيد أحمد خان والعلامة شبلي ومولانا حالي، ومع كل ما بذلوه من جهد إلا أن سحب الحزن واليأس لم تنقشع، ثم جاء إقبال فأحس بما يحتوي القوم من الذل والخضوع، ورأى تسلط الأم الغريبة على قلب وعقل قومه فوضع برنامجاً لإصلاحهم، وكان هذا البرنامج يحتاج إلى تشخيص المرض الذي قذف بالقوم إلى ما هم فيه حتى يمكن إيجاد أسباب العلاج، ورأى إقبال أن أسباب تدهور القوم هو بعدهم عن العمل والنشاط والاجتهاد حيث ماتت الذات وفقدت، وحين تموت ذات أي أمة لا يمتلكها أي شعور بوجودها أو حتى عدم وجودها، ومن ثم تنحدر إلى طريق الخمول والاضمحلال وبسبب فقدان العمل بدّل إقبال نفي الذات إلى إثبات، وقدم للقوم مفهوم الذات حيث يشعر كل فرد بأهمية وجوده، والله خلق الإنسان وأوجده في هذه الدنيا، وأثبت فيه صفاته، ولم يفقده الإحساس بوجوده في الأمة^(١)، وهناك ثلاثة أمور واضحة كل الوضوح في القرآن الكريم:

أولاً: أن الإنسان قد اصطفاه الله: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه: ١٢٢]
 ثانياً: أن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً أريد به أن يكون خليفة الله في

(١) محمد طاهر فاروق. خيaban اقبال ٣١.

الأرض: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..﴾ [البقرة: ٣٠].

ثالثاً: أن الإنسان أمن على شخصية حرة، أخذ بتبعاتها على عاتقه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن هنا اكتشف إقبال أن مهمة الإسلام الحقيقية هي كشف الذات الإنسانية وإيرازها وتنميتها وتوفير الأسباب لها، يقول: «على أن منتهى قصد الحياة الدينية هو كشف الذات.. إن التجربة التي تؤدي إلى هذا الكشف ليست أمراً عقلياً قابلاً للتطور بل هي حقيقة حيوية ناشئة عن تحول بيولوجي داخلي لا يمكن اقتناصه في شبك المقولات المنطقية فهي لا تستطيع أن تندمج إلا صانعة للعالم أو محركة له، وفي هذه الصورة وحدها يتسنى لهذه التجربة البريئة من الزمان أن تكشف عن ذاتها أمام عين التاريخ^(١)».

ومن هنا فإن خودي دائماً تتحرك في اتجاه معين فهي إذن اتجاهية في طبيعتها وهي تتطور إلى شخصية ذات غرض قوي عن طريق الرغبات والأهداف، ويرى أن على الذات الإنسانية أن تناضل مع ما يحيط بها، وأن تقهره، وبهذا القهر تحصل على الحرية.

وأهم العوامل التي من شأنها تقوية الذات الإنسانية هي في رأي إقبال:

- | | |
|------------------|-----------------------------|
| ١ - العشق | ٢ - الفقر |
| ٣ - الشجاعة | ٤ - التسامح |
| ٥ - الكسب الحلال | ٦ - تخليق المقاصد وإبداعها. |

أولاً: العشق:

هو بالنسبة لإقبال أعظم من كونه مدعاة للسرور والنشوة الفردية والعشق هو

(١) تجديد الفكر الديني ص ١٠٩.

الروح المتجددة للكون، والرومي هو الأقرب بالنسبة لفكرة إقبال عن العشق، وإقبال أشار في «أسرار الذات» عن العلاقة بين العشق والذات.

ثانياً : الفقر :

ويعني به ازدياد ونبت كل مغريات هذا العالم أو العالم الآخر تلك التي يشتهيها معظم الجنس البشري .

ثالثاً : التسامح :

هو باختصار يتمثل في احترام الإنسان لذاته واحترام ذات الآخرين كما يحترم ذاته هو، وهذا هو أساس التسامح عند إقبال .

رابعاً : الشجاعة :

بدون الشجاعة : أخلاقية كانت أو حسية ، فإنه من المستحيل بالنسبة للإنسان أن يحقق أي شيء له أهمية حقيقية في هذا العالم، والشجاعة لا تكون فقط في مواجهة الأخطار الجسيمة فهناك شجاعة أعظم تتمثل في عدم اليأس أمام المخاطر والأخطاء .

خامساً : الكسب الحلال :

وهي عبارة معبرة ورائعة بكل مواصفاتها الواسعة، وشاملة لكل الإنتاج الإنساني في جميع نشاطاته لكن في رأي إقبال فإنها تعني معنى أوسع وتعني أشياء وأفكار مكتسبة خلال نضال شخصية الفرد ومجهودها ومن هنا فإنها تشخص للذات حياة النضال النشط والمجهود القوي، وبصفة عامة تبعد كل فكرة تتعلق بنفي الذات .

سادساً : تخليق المقاصد وإبداعها :

رأينا أن إقبالاً عن طريق تمجيده وإطرائه للكسب الحلال يحبذ حياة النشاط حين تحصل الذات على التطور المناسب وهو الآن يذهب أبعد من ذلك فيثبت أن كل نشاط يجب أن يكون خلاقاً وأصيلاً لو أن الذات استحكمت وقويت .

وعلى عكس هذا فهناك عوامل تضعف الذات وتمثل في :

- ١ - الخوف
٣ - العبودية
٢ - السؤال
٤ - التفرقة الجنسية

أولاً : الخوف :

وهو الذي ينتج كل أنواع الضعف الجسمي والتصور العاطفي الشاذ في الإنسان الذي ينحرف عن طبيعته ويفسد نموه الخلقى ، والشخص الشاذ الجبان الطاغية المستبد يملك أصل شذوذه في الخوف القامع ، ومن هنا كان ضرورياً على الذات أن تقهر تأثير الخوف قبل أن تنال التطور الكلي .

ثانياً : السؤال :

وإقبال لا يستعمل هذا المصطلح كما هو معروف في استعماله العامي فعنده أن كل ما يتحقق بدون المجهود الشخصي يأتي تحت «السؤال» وابن الرجل الغني الذي ورث الثروة عن أبيه هو شحاذ ، وكذلك الشخص الذي يستعير أفكاره من الآخرين والسؤال بجميع أشكاله هو شيء غير ملائم لتطور الذات ويجب تجنبه .

ثالثاً : العبودية :

وهي تحطم الشخصية وتميد بالطبيعة الإنسانية ، وتنزل بالإنسان إلى أدنى مستوى ، وهذا يكفي لإضعاف الذات الإنسانية ، ومن هنا يجب أن نستأصلها إذا أردنا للذات الإنسانية أن تنمو ، وحتى السيطرة السياسية والاقتصادية يجب أن تتحطم لو أريد للجنس البشري أن يحصل على تطوره الأخلاقي والروحي .

رابعاً : التفرقة الجنسية «العرقية» :

وتعني الفخر بالنسب أو الأصل وهذا من شأنه أن يوجد الحواجز بين الناس ، والفخر بمثل هذه الاعتبارات الجنسية كالفخر بالأسرة أو القومية أو الطبيعة ليس

شعوراً صحيحاً، وهذا من شأن أن يوقف تطور الذات^(١)، وعن طريق تنمية العوامل التي تقوي الذات، وتجنب تلك التي تؤدي إلى ضعفها وإضعافها، يجب أن نتفكر أن الذات تتطور بالمشاركة مع زميلاتها وليس في عزلة فالذات المفردة يجب أن تعيش وتعمل في المجتمع ولذا يجب أن نحدد نوع المجتمع الذي تحتاجه الذات في تطورها ومثل هذا المجتمع هو المجتمع المثالي الذي أثبت له إقبال ثمانية مطالب ضرورية فصل الحديث عنها الأستاذ سيد عبدالواحد^(٢) وأجملها فيما يلي:

أولاً: يجب أن يرتكز على اعتبارات روحية «التوحيد».

ثانياً: يجب أن يرتكز على قيادة ملهمة «النبوة».

ثالثاً: يجب أن يكون له دستور «القرآن».

رابعاً: يجب أن يكون له مركز محسوس «الحرم».

خامساً: يجب أن يكون له هدف واضح في اتجاه تفرقه الجماعة كلها.

سادساً: يجب أن يكون له السيادة على قوى الطبيعة.

سابعاً: يجب أن تتطور الذات الكلية الجامعة أو مجموع الذاتيات في المجتمع مع نفس تطور الذات المفردة.

ثامناً: يجب أن يكون هناك حفظ للأمانة وصيانتها.

أما تربية الذات فقد حدد لها إقبال مراحل ثلاث تتمثل في:

١ - الطاعة ٢ - ضبط النفس ٣ - الاستخلاف

١ - الطاعة :

ويبدأ إقبال بطاعة الله ورسوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعليكم ترحمون﴾ [آل عمران: ١٣٢] أي أنه لو حصلنا على التقرب من الله تعالى فإن محبته سوف تظهر

(١) S. A. Wahid: Introduction to Iqbal p. 88.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤-٢٩.

في القلب، ويمكن الحصول حينئذ على محبته، وبالطاعة ينال الإنسان مرتبة الإنسان الكامل، وأعظم سر لتربية الذات يكمن في الطاعة الإلهية^(١)، ويضرب مثلاً بالجمال يسير بأثقاله صابراً في غير ضوضاء، ويقول: إن الطاعة تجعل في الجبر اختياراً وإن الإنسان الحر يسخر هذا العالم إذا ما قيد نفسه بالشريعة^(٢).

٢ - ضبط النفس :

يرى إقبال أنه لو شاء المسلمون أن يسخروا الكائنات فإنه ينبغي عليهم أولاً أن يسخروا أنفسهم أي يتحكموا في ميولهم التي جُبلت عليها نفوسهم وأن يزكوها بالعبادة المستمرة. ويعبر إقبال عن هذا بالجهاد الأكبر الذي يمكن الحصول عليه بعد أن تسير الذات إلى منازل الارتقاء^(٣)، ويستند إلى القرآن: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات ٤٠-٤١].

ويقول إقبال: إن الذي لا يحكم في نفسه حري بأن يحكم عليه غيره، ويرى أن ضبط النفس لا يكون إلا بنفي الخوف والشهوات^(٤).

٣ - الاستخلاف :

وهو من أهم مراحل كمال الذات أو ارتقاء الذات فحين تسير الذات إلى منازل الارتقاء يحصل الإنسان على مرتبة الإنسان الكامل والله جل جلاله قد خلق الإنسان في هذه الدنيا من أجل أن يقيم حكومته، ولذا فإن المفروض على الإنسان أن يعمل على استحكام ذاته حتى يسخر الكائنات لتتمكن من الوصول إلى مقام الاستخلاف من الله للإنسان، وحين يصل الإنسان إلى هذا المقام فإن ذاته تكون قد اكتملت، وتحرك الذات إلى إظهار قوتها الكامنة المستقرة التي توصل الإنسان إلى

(١) خيابان اقبال ص ١٦٢.

(٢) عزام : اقبال ص ١٦٦.

(٣) خيابان اقبال ص ١٦٤.

(٤) عزام : اقبال ص ١١٦.

الحياة السامية^(١)، وفي هذه المرحلة يكون الإنسان مسيطراً على العالم مُسخرًا قوى الكون مُحركًا الحياة في كل شيء، مجدداً شباب كل هرم، يهب الحياة بالعمل، ويجدد مقاييس الأعمال، ويرد العالم إلى الرخاء والمساواة^(٢).

نقد فلسفة الذات :

أهم ما وجهه بعض النقاد من نقد إلى فلسفة الذات هو أنها تطلق حرية الإنسان بدون قيد أو شرط، وتدعوه إلى الغرور والكبرياء والتمرد والأنانية وعدم المبالاة بمصالح الناس، وهذه أضرار بالغة الخطورة، ولا بد من وضع الحدود لها وتضييق نطاقها حتى تأمن الإنسانية.

وإجابة على ذلك يقول إقبال في خطاب إلى أحد أصدقائه: «إن الدين الإسلامي لا يقضى على الذات الإنسانية وقواها المركزية بل يرسم الحدود والقوانين لوظيفتها، وهذه الحدود قد سماها الإسلام بالشريعة، وكل من اتبع هذا النظام وتلك الحدود مسلم سواء أكان ذلك موسليني أو هتلر وهذه الحدود هي التي جعلت المسلمين يمنحون حرية كاملة للبحث حين أراد الله أن يحكموها، في حين نرى موسليني يلعب بأقدار هذه البلاد ويذيق أهلها أنواع العذاب أثناء حكمه لها والسبب في ذلك: إن الذات عند المسلمين كانت تخضع لقوانين الشريعة الإسلامية بينما نجدها مطلقة الحرية عند موسليني^(٣).

وإذا كان إقبال قد دعا إلى الفلسفة الذاتية لإيقاظ الشعور في كل إنسان وتنمية وعيه وشعوره لمعرفة حقيقته، وكشف مواهبه أو أداء دوره في هذه الكون، فقد أرسى في نفس الوقت قواعد الفلسفة الاجتماعية التي سماها . «بيخودي» أو «نفي الذات»، وقد أكمل إقبال فلسفة الذات بالفلسفة الاجتماعية، وذلك لربط الفرد بالمجتمع لتفاعلهما معاً وتكاملهما لأن الذات مهما ارتفعت وعلت فلا يمكنها أداء

(١) خيابان إقبال ص ١٦٤ .

(٢) عزام: إقبال ص ١١٧ .

(٣) إقبال نامه ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

دورها الواجب إلا بالارتباط بالمجتمع والتفاعل معه، ومن ناحية أخرى إن هذا الاتصال سوف يوقظ في الفرد مواهبه الكامنة، وينشطها لتلعب دورها على وجه أكمل.

١ - نفي الذات «بيخودي» :

إن الخضوع لنظام يتفق والفطرة التي فطر الله عليها الإنسان، وظهور مجتمع تكون العلاقة بينه وبين الفرد علاقة وثام وتفاعل يشد أزر الجانبيين بدون أن يُضعف أحدهما الآخر، فالفرد بعد أن يستكمل -خودي- أو إثبات الذات يدمج نفسه في المجتمع، هذه المرحلة هي التي تسمى «بيخودي» أو «نفي الذات» ويجدر هنا أن نلاحظ أن إقبالاً تجنب ببراعة ذلك الصراع العنيف بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة الذي نجد عند مفكري الغرب، فهم دائماً في خلاف بين الحرص على ضمان حرية الفرد وتقرير سيطرة الجماعة عليه على غرار النظم الاجتماعية، ولكن إقبالاً يؤكد أنه لا مجال لأي خلاف بين الفرد والمجتمع، وإذا كان المجتمع ناشئاً عن تسليم الفرد لنظام معين شامل واضح المعالم، وكان التسليم صادراً عن فهم وشعور، بحيث يعمل المجتمع على استكمال قواه، ثم يوقف تلك القوة على خدمة المبادئ والمحافظة على ذلك النظام الذي يقوم عليه المجتمع فيقوي بذلك المجتمع.

وكما أن للجماعات غاية فإن للأفراد غاية، والجماعة الصالحة للبقاء هي التي تثق بنفسها وتعتمد على تاريخها وتحرص على الاحتفاظ بتقاليدها وآدابها ونظمها التي تلائم مزاجها الخاص فلا تحاكي غيرها محاكاة تنبيء عن الشعور بمركب النقص ولا تنزعزع أمام التيارات الفكرية الغربية التي تحاول استعباد فكرها والقضاء على طابع الاستقلال لوجودها، فكل جماعة لانت قناتها إلى أن فقدت الإيمان بصلاحياتها للتأثير والإيجاب حتى رضيت بالالتكال والتقليد، لا بد أن يكون مصيرها الفناء والانضمام إلى الجماعة أو الجماعات الأخرى التي بهرتها بقوتها وعظمتها وهذه هي الحقيقة التي يعاود إقبال تأكيدها على الأمم الإسلامية خاصة والشرقية عامة؛ لأن الداء كل الداء في رأي إقبال - ليس هو استعباد الحضارة الغربية

لأن الأول لا يسبب إلا فقدان الاستقلال - مؤقتاً أما الثاني فهو يهدد الكيان نفسه^(١).

٢ - نظرية الإنسان الكامل :

الصور الصادقة للإنسان والتي استخلصها إقبال من خلال الآيات القرآنية وتعاليم الإسلام قد سماها باحثو الهند بالإنسان الكامل عند إقبال لأن صورة الإنسان تكتمل بهذا الوصف، وتتجلى في هيكله وتصميمه بوضوح، وتنعكس عليها أهدافه ورسالته في هذا الكون، وإقبال قد استوحى نظرية الإنسان الكامل من القرآن أصلاً وأساساً إلا أن هذا لم يمنعه من اقتباس بعض عناصرها من المتصوفة والحكماء والفلاسفة، وقد صرح إقبال بذلك في رده على نيكلسون.

ولقد رأى بعض من نقد شعر إقبال وفلسفته في الشرق والغرب أنه تأثر بهيجل في رأيه عن «أنا» كما مال إلى مذهب نيتشه في «السوبر مان» فنادى بال فردية، وقوم الإنسان كفرد وجعله وحدة الحياة الإنسانية وأصل الجماعة ومُنشئها، وكذلك قرأ لفيلسوفه ما يراه في التاريخ البشري من أن عظماء الأفراد هم الذين يشكلون التاريخ، وليست أحداث الحياة، وبالأخص المادي منها فقال بما يقول به فيلست في تاريخ الجماعة ودور الفرد في تكوين هذا التاريخ.

ولا شك أن إقبالاً قرأ لهؤلاء الفلاسفة جميعاً إلا أنه ينكر أن يكون هؤلاء تركوا أثراً في نفسه، وفي فلسفته الذاتية، وقد صرح إقبال بذلك في خطاب إلى د. نيكلسون يقول: «كل من حاول إثبات إفادتي من فيلست فهو لا يعرف الحقيقة، إن نظريتي في الإنسان الكامل قد أبديتها، وكتبت فيها قبل أن أعرف فيلست بسنين طويلة، وقد سبق أن نشرت مقالاً في هذا الصدد منذ فترة طويلة، ثم ألحقته برسالتني للدكتوراه عن تطور ما وراء الطبيعة في إيران عام ١٩٠٨ م. وأهم ما يفرق بيني وبين فيلست أن فيلست لا يرى من الضروري أن تتصادم الذات في طريق تنميتها وارتقائها إلى القمة مع العوامل الخارجية، وأما عندي فمن الضروري أن تحدث

(١) مجلة الكاتب عدد ١١ سنة ١٩٥٢.

المعركة بين الذات وبين العوامل الخارجية، والسبب في ذلك أن فيشته لا يرى من الضروري بقاء الإنسان، وأما أنا فأقر ببقاء الإنسان، ولعل نظرية فيشته الضيقة عن الزمان حدته إلى ذلك فإنني أؤمن بخلاف ما ذهب إليه فيشته إيماناً قوياً ببقاء الإنسان وأمانه، وطموحه في هذه الصدد، وجهوده لتحقيق هذا الهدف، ومن أجل ذلك أعتبر أنه من الضروري أن تتصادم كل أمانه وآماله مع عدد من العوائق والعراقيل، ومن هنا تظهر القوة والحياة في الإنسان وتظهر عبقريته، وتتجلى فيه قوة المقاومة لإبقاء ذاتيته وتمييزها ورفيها، ولذلك خرجت لمعارضة التصوف الذي كان يدعو للقضاء على مواهب الإنسان، ومكانه، وطاقاته، ونبوغه، وإذا أتت بالتصادم والمعارك في تنمية الذات وتطويرها فلا أقصد بذلك المعارك السياسية وصدامها كما يقصد بذلك فيشته بل أنا أؤمن بها في سبيل رفع راية الأخلاق^(١).

والإنسان المؤمن يعيش في حالة الجهاد وهي الحرب مع النفس حتى يصل إلى عزيمه الذات وإدراك الذات وتطويرها فينفس في حياته النشاط والاجتهاد، ويهب داخله القوة والثراء، وتتطور المصادر الداخلية للذاتية وتجعله قادراً على أن يسمو.

ولتحقيق هذا الوضع يجب على المرء أن يضع نفسه في درجة عالية وألا يعقد أي مهادنات مع الشيطان أو الزيف حتى لا ينحني أمام أي قوة أرضية وضعية وهذا النضال يدفع إلى احترام ذات الإنسان^(٢).

والإنسان الكامل يصفه إقبال بالمؤمن الحقيقي، وهو الإنسان الذي ينمي كل قواه ويقوي ذاتيته من خلال النشاط المتواصل، ويكون من القوة بحيث يستطيع أن يقهر كل ما يقف في طريق تحقيق ما يريد:

« يد المؤمن هي يد الله، منتصر خالق

ولد من التراب وله طبيعة النور

له صفات الخالق وقلبه مستغن عن الدارين

(١) مضامين إقبال ص ٦٣.

(٢) H. H. Bilgrami: Iqbal's mind and Thought p. 107.

آماله قليلة لكن أهدافه جلييلة

طرقه جذابة ونظره حاد

إنه رقيق الحديث لكن مطلبه عزيز

في الحرب كالسلم قلبه وعقله طاهران»^(١).

ويفرق إقبال بين المؤمن الحقيقي والكافر :

«إذا كان المسلم كالكافر فلا يمكن أن يكون ملكاً ولا فقيراً

إذا كان مؤمناً حقيقياً فهو يتصرف كالملك وحتى وهو فقير

لو كان الجندي بلا إيمان فإنه يعتمد على السيف

والمؤمن يستطيع أن يحارب بالإيمان دونما سيف

لو صار المسلم بلا إيمان

فإنه عبد للتقدير

ولو كان مزوداً بالإيمان

فإنه يصبح قدر الله»^(٢).

٣ - مشكلة الحرية (القضاء والقدر) :

تعرض إقبال لموضوع القضاء والقدر في الإسلام مستعرضاً قوله تعالى : ﴿وقل

الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿إن أحسنتم

أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ [الإسراء : ٧].

فالقرآن يقر حقيقة كبيرة الأهمية من حقائق النفس الإنسانية تلك هي الارتفاع

والانخفاض في قدرة الإنسان على اختيار أفعاله ، وهو يحرص على بقاء القدرة

على الاختيار في الفعل بوصفها عاملاً ثابتاً لا يتناقض في حياة النفس ، ويعين

(١) المرجع السابق. ص. ١٢٣.

(٢) المرجع السابق. ص ١٢٤.

مواقيت للصلاة كل يوم، تلك الصلاة التي يرى القرآن أنها سكن للنفس يمتلك بها الإنسان زمام قيادته لنفسه، وامتلاكه زمام نفسه بالتقريب بينها وبين المصدر الأول للوجود وللحرية، وقد أريد بهذا التعبد تخليص النفس من آثار الآلية، والعمل بالصلاة في الإسلام خلاص للنفس بنقلها من الآلية إلى الحرية، ولما كان المسلمون قد عمدوا إلى أن يلتمسوا دائماً في آيات القرآن ما يسوغون به نزعاتهم المتأبينة، ولو كان ذلك على حساب معانيه الواضحة فإن تفسير الأمور على أنها قضاء من الله كان له تأثير بالغ في الشعوب الإسلامية ويقول إقبال: «وفي مقدوري أن أذكر في هذا المقام عدة أمثلة على سوء التفسير البين للقرآن الكريم، ولكن الموضوع يحتاج إلى دراسة خاصة»^(١).

وأشد العقبات في سبيل الحياة المادة أو الطبيعة، ولكن المادة ليست شرّاً كما يقول حكماء الإشراف، بل هي تعين الذات على الرقي، فإن قوى الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات، وإذا قهرت الذات كل الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار؛ فالذات في نفسها فيها اختيار وجبر^(٢).

٤ - مسألة الزمان :

يقول إقبال في خطاب إلى نيكلسون: «وكما تُعرف مسألة المادة في مبحث حرية الذات، تُعرف مسألة الزمان في مبحث خلودها». يقول برجسون: إن الزمان ليس خطأ ممتداً إلى غير نهاية يتحتم علينا المرور به، فهذا التصور للزمان غير صحيح؛ فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصور الطول، أي لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار، إن خلود الذات أمل من أراد أن يظفر به فليجد ويدأب لبلوغه، والظفر به موقوف على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة، يعيننا على حفظ حالة التوتر، ولا يستطيع إبلاغنا هذا الأمل دين بوذا، والتصوف العجمي وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى، لقد أضرت بنا هذه الطرق فأضرتنا وأنامتنا.

(١) تجديد الفكر الديني ص ١٢٦.

(٢) عزام: اقبال ص ٨٠، ٨١.

إن هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا، وأن قصدنا بأفكارنا وأعمالنا إلى حفظ حالة التوتر في ذواتنا، فأغلب الظن أن صدمة الموت لا تستطيع أن تؤثر فيها . . . تُعرض بعد الموت حالة من الاسترخاء يسميها القرآن الكريم: البرزخ وتدوم هذه الحال حتى الحشر، ولا تبقى بعد هذا الاسترخاء إلا النفوس التي أحكمت ذواتها أيام الحياة، إن الحياة في ترقبها تنفر من التكرار كل النفور، ومع هذا يقول الأستاذ ولدن كار: «بناء على القواعد التي وضعها «برجسون» إن حشر الأجساد معقول أيضاً، إننا نقسم الزمان إلى لمحات فندخل مفهوم المكان، فيصعب علينا تسخيرها، وإننا نستطيع إدراك معنى الزمان إدراكاً صحيحاً حينما ننظر في أعماق ذواتنا، إن الزمان الحقيقي هو اسم آخر للحياة، وإن الحياة تستطيع المحافظة على حالة التوتر التي حافظت عليها حتى الساعة، ولن نتخلص من عبودية الزمان ما دما نعدده أمراً مكانياً، إنما الوقت المكاني قيد توسلت به الحياة إلى تسخير ما حولها»^(١).

٥ - فلسفة العمل :

يُقصد بفلسفة إقبال عن العمل، تلك الأعمال الإنسانية التي تعبر عن الشعور حيث يكون هناك هدف سابق، لكن ليس من السهل دائماً أن نحدد الهدف لكل عمل فالأعمال الراشدة هي على نوع أعلى، وهي دائماً نتيجة رغبات مختلفة ومشاعر ذاتية، وأحياناً تتجه إلى صراع الرغبات، والإيمان هنا بمبادئ الحياة المعينة يلعب جزءاً هاماً في الأعمال الإنسانية، ولناخذ على سبيل المثال حالة الرجل الذي يملك إيماناً كاملاً بخلود الحياة بعد الموت فيؤمن بإيماناً شديداً بمسؤوليته عن العمل الإنساني، هذا الرجل لن يعمل في نفس الحالة كالإنسان الذي لا يؤمن بالخلود ويكون عالمنا الحالي بالنسبة له هو نهاية المطاف، وما يساعد الإيمان هو التوحيد فهو عون للإيمان لكن لا يؤخذ كأساس للإيمان بل يجب أن يبقى - حسب قول إقبال - كعامل حي في حياة الإنسان العقلية والعاطفية وهو يمثل عوناً للقوة، وأصعب ما هو في كل هذه الأعمال طهارة ونقاوة المحرك كما أن مصدر القوة في العمل يكمن

(١) عزام: إقبال ص ٨٢، ٨٣.

في الإيمان الراسخ في التوحيد، وهذا ما يعنيه إقبال «يقين محكم» وهو يوضح هذا الإيمان ويدعو أن يقاسمه الشباب رؤيته هذه :

هذه يا إلهي هي رغبتني

أن تجعل كل الناس يروا نور بصيرتي^(١)

ثم نتقل إلى مرحلة أخرى حيث الإيمان يترجم إلى عمل، وحيث الشخصية الصحيحة أو ذاتية كل من الفرد والأمة تبني على أساس متين من المبادئ الكامنة الخالدة، وحيث يبرز واضحاً تطور الذات من الداخل إلى العالم الخارجي، وهذا يُكوّن فلسفة إقبال عن العمل على أساس عال حيث التخطيط والتنظيم السليم من أجل تطور الذاتية، وإقبال حاول أن يبين للناس أن سر نشوء الحياة الحقيقية يكمن في العمل، والإنسان بطبيعته لم يوجد لكي يكون راهباً أو ناسكاً .

إن الإنسان بعمله يخلق جنته وجحيمه

فليس الإنسان بفطرته نورانياً أو نارياً^(٢)

ولكي نحقق النور، على الفرد أن يتتبع النور، وأن يحرس نفسه من النار، أي حراسة الإنسان لنفسه ضد الشر، واتباع طريق الحق والتعبير القرآني «التقوى» والأفكار المختلفة لإقبال عن الخير يُمكن أن توضح على نطاق واسع فكرة التقوى. وبالمصطلح الفلسفي فإن الشر هو كل ما يضعف الذات، ويوقف حرية تطورها، بينما الخير هو ما يقويها ويجعل تطورها ممكناً ويضع إقبال للخير تأكيدين :

٢ - الخلق

١ - العشق

الأول هو الهدف، والثاني هو أسلوب تحقيقه، سأل شخص الرسول ﷺ : «ما هو أحسن الأعمال؟» أجاب الرسول : «حسن الخلق». فأسلوب التعامل مع الآخرين يركز على الخلق، والعاطفة وتفهم هدف الخير :

(١) مرا نور بصيرت عام كردت

(١) خدايا آرزو ميرى بهي هے

به خاكي اپني فطرت مين نه نوري هے نه نارى هے

(٢) عمل سے زندگي بنتي هے جنت بهي جهنم بهي

«قال الساحل الساكن: إنني أعيش لكنني لا أعرف من أنا.

قال الموج القلق مجيباً بسرعة :

أنا أنا حين أتحرك، ولا أكون أنا حين أسكن»^(١)

وبالإضافة إلى الحركة يوجد العشق الذي يجب أن يوضع كمبدأ مساعد للحياة
والمعرفة، والقوة يجب دائماً أن تكون مصحوبة به :

اخلق الجسد من قبضة الغبار

الجسد الأقوى من الحجر الصلد

اخلق في داخله قلباً عارفاً بالألم

مثل نهر في حضن جبل^(٢).

ومن هنا يمكن القول إن فلسفة إقبال عن العمل بدأت من الإيمان القوي بالمبادئ
الأساسية للتوحيد ثم وجد تعبيره أولاً في طهارة ونقاوة المحرك وبعد ذلك في إيجاد
العلاقة بين الذات الشخصية والذات المطلقة عن طريق الصلاة، والذات يجب
حينئذ أن تتطور وتنمو في نضال دائم مع محيطها، قاهرة وليست مقهورة أو
خاضعة وفلسفة إقبال تحاول أن تؤكد جمال أعمال الخير أو الأعمال الصالحة،
وتكسبنا العمل الذي يمنح التطور الكامل للذات^(٣).

بعض مصادر فكر إقبال :

رأينا أن أساس فلسفة إقبال هي الذات الإنسانية وإقبال يؤمن بأن هناك ذاتية في
كل شيء حي أو موجود: النجوم في السماء، وما هو على الأرض، والذاتية حركة

هیچ نه معلوم شده که من چیستم
هستم اگر میروم گرزدم ونیستم
تنه محکم تراز سنگین حصارے
جو جوئے در کنار کوهسارے

(١) ساحل افتاده گفت گرچه بے زیستم
موج ز خود رفته نیز خرامد وگفت
(٢) تنه پیدا کن از مشت غبارے
درون او دل درد آشنائے

Iqbal, s Mind and Thouht p. 94. (٣)

عالية وسامية من خلال كل الأشياء الحية أو المتحركة، وقد بدأ إقبال بإيمان قوي بفكرة الخلود الإنساني في ثلاثة اتجاهات :

١ - الحصول على الحركة الشخصية

٢ - الحصول على الخلود الشخصي

٣ - وخلق الإنسان الكامل .

والحديث عن مصادر فكر إقبال حديث صعب فالسير توماس أرنولد يقول : إن محمد إقبال ليس مجرد صدى لأفكار الآخرين لكنه مفكر أصيل بكل تأكيد .

ويمكن أن نذكر بعض المصادر التي استفاد منها إقبال :

أولاً : المصادر الشرقية :

أ - القرآن والسنة

ب- المفكرون المسلمون مثل : الرومي والجيلي وغيرهما .

ثانياً : المصادر الغربية :

١ - الفسلفة اليونانية

٢ - جوته

٣ - فيشته

٤ - برجسون

٥ - نيتشه

أولاً : المصادر الشرقية :

١ - القرآن الكريم :

ترك إقبال ملاحظات خطية على كتاباته تجعلنا قادرين على تبيان العلاقة بين فلسفته والقرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يعترف بالذاتية عن طريق الحقيقة البسيطة التي ترفض تقبل فكرة النجاة من الخطيئة ، والقرآن يثبت بمصطلحات غير قابلة للخطأ أنه من المستحيل لذات أن تحمل وزر الأخرى :

﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام: ١٦٤]،
 وأبعد من ذلك فإن كل ذات تكون مؤهلة فقط بما هو واجب إلى المجهود الشخصي
 الخاص بها: ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها
 شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ [البقرة: ١٢٣]. وأن إثبات الذاتية لا يمكن أن يكون أكثر
 من مركز مؤكد: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنا
 وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. أما عن
 الحصول على الحرية الذاتية أو الحرية عن طريق الذات فيعترف القرآن بأن الذات
 شخصية حرة: ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾
 [الكهف: ٢٩]، وبكل تأكيد فإن الصلاة اليومية المنتظمة تعني أيضاً نجاة الذات من
 الحرية الميكانيكية عن طريق فهم وإدراك ما يحيط بها، فالذات تحصل وتنال حريتها
 والكون كله يعني أنه خاضع للإنسان الذي يسخره ثم يحصل على الحرية.

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسغ عليكم نعمه
 ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان: ٢٠].

والطريق الحيوي من الاقتراب من الكون هو ما يصفه الإسلام بالإيمان وطبقاً لما
 هو في القرآن فإنه مباح لكل إنسان أن يحصل على الخلود تحت ظروف معينة لكن
 على الإنسان أن يعمل من أجل ذلك: ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها
 قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٧-١٠] وما هو الطريق الأفضل
 لجعل الذات تنمو ولإنقاذها من فجورها؟ إنه طريق العمل: ﴿ تبارك الذي بيده الملك
 وهو على كل شيء قدير ﴾ [الملك: ١-٢]، وكما رأينا - وفي رأي إقبال فإن الحياة تعد
 مجالاً لنشاط الذات والموت يعد الاختيار الأول لنشاط الذات المنتجة - ونظرة إقبال
 إلى الإنسان الكامل موجودة في القرآن، والآيات التالية تشير بوضوح إلى الإنسان
 الكامل: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
 بالله ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والآية التالية تشير إلى قدرة الله على خلق الإنسان

الامل: ﴿إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم﴾ [المعارج: ٤٠-٤١]، وأنه ليس من الممكن أن نعطي تحديدات معينة ومفصلة عن الإنسان الكامل في لغة القرآن دون إعطاء نماذج عديدة، لكن الصفات المميزة الرئيسية للإنسان الكامل موجزة في الآيات الرائعة التالية: ﴿.. فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ [المائدة: ٥٤]. ولسنا بحاجة إلى نقاش تفصيلي لتوضيح الصلة بين الإنسان الكامل في القرآن وبين الإنسان الكامل عند إقبال.

وليس هناك أكثر من هذا توازيا بين الفلسفة القرآنية وفكر إقبال حيث يصف إقبال مراحل تطور الذات المتمثلة في: «الطاعة، والنيابة الإلهية، وطاعة الشرع، وضبط النفس التي ذكرت في القرآن في مواضع عديدة، وبالنظر إلى النيابة الإلهية يتضح من القرآن أن الإنسان مع كل أخطائه فهو خليفة الله على الأرض يقول تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني عاجل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠]. وأبعد من هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وفي رأي إقبال أن الذات يمكن أن تنمو مع بقية الذاتيات وليس في عزلة ففي داخل المجتمع يمكنها أن تحقق كل إمكانياتها السامية، وهذا في نفسه مطابق تماما للتعالم القرآنية: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وأكثر من هذا فإن المجتمع الذي وضعه إقبال كأحسن ما يمكن من أجل تحقيق تطور الذات يتبع الآيات التي وضعت من أجل المجتمعات الإنسانية في القرآن^(١)، ولكي نوضح هذه الصلة بين التعالم القرآنية وفلسفة إقبال سوف نحتاج إلى صفحات كثيرة.

وبالإضافة إلى الفكر الفلسفي فإن إقبالاً أيضاً استلهم في أدبه أكثر التراكيب من المصطلحات القرآنية والقصص القرآني مثل: ضرب كليم، چراغ مصطفوي^(١)، شرار بولهيبي، بانگ إسرائيل^(٢)، لات ومنا، چوب كليم^(٣)، قم بإذن الله، موسى وفرعون والطور، سركليمي، يوم النشور، ابراهيمي نظر، شريك زمرة، لا تحزنوا، آئينه كائنات^(٤)، لوح وقلم، طلسم سامري، آتش غرود^(٥)، ابراهيم كا ايمان^(٦)، تقدير إلهي، لا إله الا هو، بانگ «لا تخف»^(٧)، وغيرها من التراكيب التي استعملها إقبال بانسجام، وقوة بيان، وأكثر من هذا وضع الكلمات القرآنية للقوافي والريديف كما أن تشبيهاته النادرة مرآة صادقة لأفكاره القرآنية، فهناك أبيات مصرعها هو: «أشهد أن لا إله إلا الله»، كما أن النظم الخامس لضرب كليم ينتهي في تقفيته «لا إله إلا الله»^(٨).

ويمكننا قبل أن ننتهي من الحديث عن القرآن أن نتناول نموذجاً من شعر إقبال، هو تفسير بطريقته وأسلوبه للآيات ٦٣ - ٦٩ من سورة الواقعة: ﴿أفرايتم ما تحرثون أن أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ...﴾ الآيات. يقول إقبال:

«من الذي ينبت الحب في ظلمات الأرض!
ومن الذي يرفع السحب فوق أمواج البحر!
من الذي اجتذب الرياح المواتية من الغرب!
لمن هذه الأرض ولمن نور تلك الشمس!

(١) السراج النبوي.

(٢) صوت إسرائيل.

(٣) عصا موسى.

(٤) مرآة الكائنات.

(٥) نار غرود.

(٦) الإيمان الإبراهيمي.

(٧) صوت لا تخف.

(٨) خبايان إقبال ص ٤٩.

من الذي يملأ جيوب سنابل القمح باللاكيء !
ومن الذي علّم الفصول عادة التغيير !
يا مالك القرية هذه الأرض ليست لك
ليست لك ولا لأبائك ولا أنا أملكها^(١)
٢ - السنة النبوية :

أما عن أحاديث الرسول ﷺ فيحضرنا هنا الحديث المشهور : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» هذا الحديث يدور حول تفكير الإنسان في نفسه ومعرفته لذاته ، وهذا أساس فلسفة إقبال ، ومن ناحية تطور الذات حدد الرسول ﷺ هذا في قوله : «تخلقوا بأخلاق الله» ؛ فمن يقترب من الله أكثر هو الشخص الأفضل ، وحياة الرسول ﷺ كلها قُضيت في العمل الذي هو أساس فلسفة إقبال ، وبينما يرى البعض أن إقبالا يستعير أفكاره من فلاسفة الغرب المحدثين يقول إقبال : «أتخاف البلاء؟ إن الرسول ﷺ قد قال : «إن يوم البلاء للإنسان ليس سوى يوم الصفاء» .

وحين يصف فكرة المسلم عن الزمان فإن إقبال اعتاد أن يشير دائماً إلى حديث الرسول ﷺ : «لا تسبوا الدهر» .

المفكرون المسلمون مثل:

١ - الرومي:

تشابه الصورة التي تعرض لها الرومي في عصره مع الصورة التي تعرض لها إقبال في العصر الحاضر حيث اضطربت الماديات والروحانيات ، وهو ما دفعهما إلى اتخاذ العشق والوجدان وسيلة للوصول إلى الهدف المنشود ، ومن هنا كان التشابه الظاهر بين الرومي وإقبال ، نراه في «پیام مشرق» وفي «بال جبريل» ، ويمكن أن نختصر الحديث بالقول إن إقبالا وضع الرومي في مكانة المرشد الهادي ليس فقط من الناحية المعنوية لكن أيضا في الفن الشعري ؛ فأكثر غزليات «زبور عجم» و«پیام

(١) بال جبريل .

مشرق» مكتوبة بأسلوب الرومي^(١)، وأمثلة ذلك كثيرة^(٢)، والرومي بالنسبة لإقبال كفرجيل بالنسبة لدانتي، وكل من «الأسرار» و«الرموز» قد كتبتا في نفس وزن وطريقة أسلوب المثنوي، بل هو يفتح مقدمة «أسرار خودي» بيت من ديوان شمس تبريز:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى له في كل ناحية مجال^(٣)

وفي «جاويد نامه» صحب الرومي إقبالاً إلى الكواكب المختلفة وفي «بال جبريل» يعترف بتلمذته، مسمياً نفسه مريد هندي ومخاطباً الرومي كمرشد وفيلسوف وباختصار يتوافق إقبال مع الرومي في تعاليم الحياة عن النشاط والسعي بالإضافة إلى:

١ - الإنسان الكامل ٢ - العشق ٣ - تحقيق الخلود

٤ - العلاقة بين الذات المقيدة المفردة والذات المطلقة^(٤).

ونختم هذا بحديث إقبال في مقدمة أسرار خودي:

صير الرومي طيني جوهرأ من غباري شاد كونا آخرأ^(٥)

٢ - الجيلي:

أمد الجيلي إقبالاً ببعض الأفكار أثناء دراسته لتطور ما وراء الطبيعة في إيران، وهو الشيخ عبدالكريم الجيلي مؤلف كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل)، وقد أورد إقبال كلام الجيلي في كتابه تطور ما وراء الطبيعة في إيران^(٦).

(١) الأمثلة في كتاب «إقبال والرومي» لجناب سيد يونس شاه.

(٢) انظر خيابان إقبال ص ٢٥٣.

(٣) عزام: ديوان الأسرار والرموز.

(٤) S. A. Wahid: Iqbal p. 68.

(٥) عزام إقبال ص ٩٨.

(٦) فلسفة عجم: الترجمة الأردية ص ٥.

ثانياً: المصادر الغربية :

١ - الفلسفة اليونانية :

تركت الفلسفة اليونانية أثرها على الفلسفة الإسلامية إلا أن إقبالاً أشار دائماً وأكد على أن الثقافة الإسلامية بالضرورة تختلف عن الثقافة الغربية، ومن بين مفكري اليونان نال أرسطاطاليس إعجاب إقبال، وليس هناك اختلاف بين وجهة نظر أفلاطون وأرسطاطاليس، وهناك بعض الشبه بين الإنسان الكامل عند إقبال والإنسان الكامل عند أرسطاطاليس، وبالرغم من أن الإنسان الكامل لدى إقبال وأرسطاطاليس فيه اختلاف أيضاً إلا أن هناك بعض العبارات المتشابهة يقول أرسطاطاليس: «إنه يجب أن يكون في خدمة الناس، ورغم هذا يكون خجلاً حين تؤدي إليه خدمة» يذكرنا هذا بقول إقبال: «الحذر من منة الغير الحذر»، ويقول أرسطاطاليس: «إن شجاعته رزينه رصينه، صوته عميق موزون»، ويمكن أن نقارن هذا بقول إقبال: «ريق في حديثه قوي في عمله»^(١).

٢ - جوته :

نقد إقبال شعراء وحكماء الإفرنج - سوى القليل منهم - مثل: بايرن وكانت وهيجل ونيتشه وتولستوي وشوبنهاور واينشتاين وبرجسون، أما جوته فله عند إقبال مكانة خاصة، وهو يحسبه كالرومي «ليس رسولا لكنه صاحب كتاب» وذلك لأنه أولاً: رجح العشق على العقل، وثانياً: لأنه وفق بين أقوال وأفكار الشرق والغرب وجمعها معاً، وكتاب فاوست يظهر منه أهمية العشق عند جوته، أما كتاب الديوان المغربي فقد أجاب عليه إقبال بپیام مشرق أي رسالة المشرق الذي كتب تحت عنوانه: «جواب ديوان الشاعر الألماني جوته».

٣ - فيشته :

يرى البعض أن إقبالاً مال إلى مذهب فيشته في "السوبرمان" فنأدى بالفردية،

وقوم الإنسان كفرد، وجعله أصل الجماعة، وكذلك قرأ لفيشته ما يراه في «التاريخ البشري» من أن عظماء الأفراد هم الذين يكوّنون التاريخ، وليس أحداث الحياة وبالأخص يقول فيشته بدور الفرد في تكوين هذا التاريخ، وقد دافع إقبال عن هذا في خطاب إلى نيكلسون إلا أنه على كل حال قرأ لفيشته، وتأثر به واختلف معه وهناك تشابه ظاهري حاول إقبال نفسه أن يوضح أنه ليس تشابهاً حقيقياً^(١).

٤ - برجسون :

قام كثير من المفكرين بإيجاد نظريات مختلفة لإيضاح حقائق النفس الإنسانية إلا أن هناك تقارباً بين إقبال وبرجسون يجعل من الصعب علينا أن نجد حداً فاصلاً بينهما، وبرجسون استفاد من وجدان الصوفية، وتأثر حقيقة بالوجدان لأن خلاصة نظرياته هي: «أن أعظم ما عرفنا تماماً بحقيقة أشياء الكائنات هو ذاتنا فلو أنني بحثت في وجودي وتعمقت في ماذا «أنا» فإن ما يلاحظ فقط هو أنني قد انتقلت فقط من حالة إلى حالة أخرى، وأن وجودي هو عبارة عن هذه التغيرات». كما أن هناك تشابهاً بينهما في فكرة الزمان لكن برجسون قال فقط بزمان مستمر لكل وقت، وهو قريب جداً من الدهرية، لكن إقبال وجد ضرورة إثبات الارتقاء في كل شيء، يقول: «لا يبقى أي شيء ولا يستقر على صورة واحدة؛ إن تركيب مزاج الزمان إنما هو من ذوق الجدة». وقد قدم برجسون الأشياء فيما يتعلق بإمكانياتها الارتقائية لكن إقبالاً قد بين ضرورة الجرأة الجسورة والعمل الخلاق^(٢).

٥ - نيتشه :

تناول نقاد وشارحو إقبال بإفراط التعريف بتأثير نيتشه على إقبال. وكل ما هنالك أن إقبالاً نظر فرأى الغرب في ظلمة أضاءها نيتشه بشعاعات خاصة من التعليمات الإسلامية ولذا قال: «إنه مؤمن بالقلب كافر بالعقل»، ولا يتسع المجال هنا لأن نتحدث بالتفصيل عن التشابه بين تعليمات نيتشه وتعليمات القرآن ويكفي

(١) S. A. Wahid: Iqbal p. 73.

(٢) خيابان إقبال ص ٢٧٣ وما بعدها.

أن نقول بأن التماثل والتشابه في أفكارهما، يجعلنا نقرر أنها كانت رهينة التعبير القرآني الموجود في كلام الله عز وجل في كتابه الحكيم، ويمكننا بعد دراسة الإنسان الكامل عند نيتشه وعند إقبال أن نرى وجه الشبه ووجه الاختلاف. فنيثشه يعطي الإنسان الكامل امتيازاً خاصاً يتمثل في حب الخطر والاضطراب والصدقة والقدرة والذكاء... الخ.

وبالنسبة للمقاصد الخلقية هناك الحرية والعمل الخلق العظيم بجانب صحة الجسم والقلب والعزيمة والجبروت والقهر وحب الخطر، والعزم الشديد، والاعتزاز بالنفس وغيرها، والإنسان الكامل عند إقبال هو الذي ينطق التوحيد بقلبه، ويعمل على الارتقاء في كل قواه، وأن تكون صلاحياته عن طريق ربط أفعاله ببيئته المادية والذي يعمل على استحكام ذاته... الخ.

والفرق بينهما نابع من أن هناك فرقا من ناحية الكيف أو من ناحية الكم أو المرتبتين فهناك فرق أساسي بين تصور نيتشه للذات وتصور إقبال للذات، فنيثشه متشدد لا يعلم بقوانين المساواة والعدل بينما عند إقبال الإنسان إنسان بمعنى الكلمة يحمل بين جوانبه التعاطف والشفقة وباختصار أثبت نيتشه في الإنسان الأفكار الإلهية، فقد فتح بيت (لا) ولم يصل إلى (إلا)، وإقبال معجب بنيثشه من ناحية تعمير وتكميل الشخصية واستحكام الذات وضبط النفس والعلاقة الإنسانية لكن الذات عند إقبال هي فكرة نفي الذات أيضا التي تُكَمِّل مقدره الإنسان المؤمن عنده والتي تقوم عن طريق الارتباط بالمجتمع والكائنات والله^(١).

★★★★★

(١) خيابان اقبال ص ٢٦٧ وما بعدها.

- ٣ -

إقبال الأديب

أولاً: دواوين إقبال

١ - أسرار خودي (أسرار الذات) :

في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلا أنه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر من الترك تحطمت آماله . وحينئذ ظهرت في أفكاره ثورة عارمة تعارض أشد المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب والوثوق بهم؛ فبدأ يعمل على بناء فلسفة حديثة تؤدي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد وتربية الذات، ولم ير إقبال أي فائدة للترك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية؛ فبنى نظريته على التصوف ليس على أساس روح الضعف والسلبية وهو ما انتشر في العهد الصفوي بل دعا إلى القوة والاعتماد على النفس^(١)، ولم يقنط إقبال بل كرس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يكمن السبب في حدوث أخطائنا السابقة .

وقد وجد أن مرد هذا إلى الآراء الإغريقية التي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين، وأضحت سبب كل ما عقب ذلك من إنحراف، وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحول هذا الدين من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية . الأمر الذي أدى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية، وقد ندد بأفلاطون وشن حملة على الصوفية التي عدها مسئولة عن فكرة "وحدة الوجود" وقد أدى البحث بإقبال إلى وضع نظريته عن "خودي" أي "الذات" وهو يستهلها بالأبيات التالية التي اقتبسها من جلال الدين الرومي :

«البارحة طاف أحد المشايخ بالمدينة ويده قنديل وكان يردد :

(١) إقبال إيرانيون كي نظر مين كراچي ص ١٨١ .

(إنني مللت الجان ووحوش الغابات وأبحث عن إنسان يؤنس وحشتي)، وقد وجد زملاءه بطيئي السير .

وراح يبحث عن رجل مثل 'علي' أو 'رستم' بطل 'داستان' وقد أخبرته بأننا نبحث عن مثل هذا الرجل ولكننا لم نعره عليه .

وهنا قال الشيخ: «إن رغبتني هي في أن أبحث عما لا أستطيع أن أجده» .

وقد ركز إقبال كلامه في ديوان 'أسرار خودي' على الذات التي يركز فيها كل النشاط، وكل الحركة والتي هي لب الشخصية أي 'قلب الذات' (١).

نشرت منظومة أسرار خودي سنة ١٩١٥م فثار الناس لها بين راض وساخط ومستحسن ومستنكر، بل بين مصفق طربا يثني معجبا وصائح يتعجب ويستنكر . وقدم الشاعر لهذه المنظومة بمقدمة مثورة مجملة بحث فيها في نفس الإنسان ومذاهب الأمم فيها، وفي العمل واختلاف الفلسفات فيه، وحذف الشاعر هذه المقدمة بعد الطبعة الأولى ولكنها على إجمالها تبين المذهب الفلسفي الذي ذهب إليه الشاعر حين نظم كتابه (٢) يقول في المقدمة :

«ما هو هذا الشيء الذي نسميه 'أنا' أو 'خودي' أو 'ميس' الذي يبدو في أعماله ويخفي في حقيقته والذي يخلق كل المشاهدات ولكن لا يحتمل المشاهدة؟ أهو حقيقة دائمة أم أن الحياة تجلت في هذا الخيال الخادع، وهذا الكذب النافع تجليا عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة؟ إن سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال . . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على القدرة الفكرية في الأحاد والجماعات كما يتوقف على طباعها وفطرتها؛ فأمر الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر 'أنا' في الإنسان من خداع الخيال . وهي تعد الخلاص من هذا الفعل نجاة، وميل أهل الغرب إلى العمل ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث» .

(١) سجاد حيدر - محاضرة سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧م .

(٢) عزام: اقبال ص ٧١ - ٧٢ .

وقد كتب الأستاذ نيكلسون المستشرق الإنجليزي إلى إقبال يسأله أن يكتب مقالاً يوضح به مذهبه؛ فكتب إليه مقالاً أجمل فيه فلسفته وأثبتته نيكلسون في مقدمة ترجمة أسرار خودي والمقال أحسن مقدمة لهذه المنظومة ولفلسفة إقبال كلها، وقد نقله الدكتور عبدالوهاب عزام في كتابه عن سيرة إقبال^(١).

محتوى الديوان

١ - المقدمة :

تشتمل المنظومة على مقدمة يبين فيها إقبال مذهبه الجديد يقول في مطلعها :

قطع الصبح على الليل السفر	فهى دمعي على خد الزهر
غسل الدمع سبات النرجس	وصحا العشب بمسرى نفسي
جرب الفارس قولي موقدا	مصراعاً ألقى وسيفا حصدا
ويشير إلى أن الرومي هو الذي أيقظه، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :	
صير الرومي طيني جوهرًا	من غباري شاد كونا آخرًا

ب - فصول الديوان :

- ١ - أصل نظام العالم من الذاتية واستمرار أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية .
- ٢ - حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .
- ٣ - تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق .
- ٤ - ضعف الذاتية بالسؤال .
- ٥ - إذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سخرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

(١) المرجع السابق ص ٧٨ .

- ٦ - حكاية في معنى أن مسألة نفى الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .
- ٧ - في معنى أن أفلاطون اليوناني الذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وأدائها ذهب مذهب الغنم والاحتراز من خيالاته واجب .
- ٨ - حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية .
- ٩ - تربية الذات لها ثلاث مراحل :
- المرحلة الأولى : الطاعة
- المرحلة الثانية : ضبط النفس
- المرحلة الثالثة : النيابة الإلهية
- وفي هذا الفصل يقص قصصاً حقيقية أو خيالية لتصوير مذهبه .
- ١٠ - في بيان أن مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأن الجهاد وإن كان سببه - جوع الأرض - فهو حرام على الإسلام .
- ١١ - نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .
- ١٢ - الوقت سيف .
- ١٣ - دعاء " يختتم به المنظومة " ^(١) .

٢ - رموز بے خودي

رموز نفی الذات :

في عام ١٩١٨م نشر إقبال مثنوي "رموز بے خودي" وهو من حيث الاسم يبدو أنه ضد الكتاب الأول لكنه في الحقيقة يفسر، ويبين نفس النظرية. وإقبال هنا يكمل فلسفته بالتأليف بين الفرد والأمة أو بين الذات الكاملة وبين الجماعة التي تعيش فيها.

وبينما المنظومة الأولى تتناول الذات وتربيتها ولا تخلو من كلام عن صلة الفرد بجماعته فإن عسيرا أن يفصل الباحث أو الشاعر بين الموضوعين فصلاً تاماً. والمنظومة الثانية تعالج الموضوع الثاني: الجماعة نظامها وكمالها وتنشئة الفرد فيها، ولا يخلو كلامه في هذا من كلام في الذات كذلك.

محتوى الديوان

يبدأ إقبال المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمة، ثم يعقد الفصول التالية:

١ - الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد، وكمال تربيتها بالنبوة.

٢ - أركان الأمة الإسلامية :

١ - **التوحيد** : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى كما يعقد فصلاً آخرى للتمثيل.

ب - **الرسالة** : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية :

الحرية والمساواة والأخوة بين بني آدم، ويقص قصصاً شتى، وأن الأمة المحمدية قائمة على التوحيد والرسالة فلا يحدها مكان، وأن الوطن ليس أساس الأمة، وأن الأمة المحمدية لا يحدها زمان ودوامها موعود. وأن نظام الأمة لا يكون بغير القانون، وقانون أمة محمد القرآن، وأن نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدب بالآداب المحمدية.

- ٣ - حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ومركز الأمة الإسلامية الحرم .
- ٤ - الاجتماع الحقيقي لا يكون بقصد يقصد إليه ، ومقصد الأمة المحمدية حفظ التوحيد ونشره .
- ٥ - توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم ، وكمال حياة الأمة أن تحس ذاتها كما يحس الفرد ، وينشأ هذا الإحساس ويكمل بحفظ سنن الأمة .
- ٦ - بقاء النوع بالأمومة وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .
- ٧ - السيدة فاطمة الزهراء أسوة كاملة لنساء الإسلام .
- ٨ - خطاب إلى المسلمات .
- ٩ - خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .
- ١٠ - مناجاة إقبال الرسول الذي بُعث رحمة للعالمين .
- ويبين إقبال في هذه المنظومة فكرة أن " الوطن ليس أساس الأمة " فيقول : إن العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبين كيف هجر النصارى دين عيسى ، وتقطع أمرهم بينهم . . كل حزب بما لديهم فرحون ، ويذكر مكيا فيلي الإيطالي وأثره في سياسة أوروبا إلى أن يقول :

جعل الملك إلهها دينه كل قبح ناله تحسينه
وزن الحق بربع وجدى ولدى الملك خنوعاً مسجداً
صير الحيلة فناً محكما فزها الباطل فما أعلماً^(١)

ويخاطب المرأة المسلمة :

«احذري الزمان في سيرك وضمي أولادك إلى صدرك
هذه العصافير بعدت عن أعشاشها ، قبل أن تطير بها أجنحتها
يا فطرة نزاعة إلى العلا ، لا تغمضي عينيك عن سيرة الزهراء

(١) عزام - إقبال ص ١٣٧ .

لعل حُسيناً في حجرك يزهر، فيترعرع بستاننا وينضر^(١).

٣ - پیام مشرق

رسالة المشرق:

نُشر الديوان أول مرة سنة ١٩٢٣م، وكتب الشاعر فوق عنوانه: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾، وكتب تحته جواب "ديوان الشاعر الألماني جوته" وقدم هذا الديوان إقبالاً على أنه شاعر الفارسية الكامل؛ لأنه قدم إلى القاريء اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحوي مختلف أقسام الشعر الفارسي من الغزل والرباعي والدوبيتي والقطع والمثنوي وغيرها، ويصادفنا في الديوان الشعر الأخلاقي والسياسي والاجتماعي إلا أن أهم ما يجذب القلب حقاً هو الجانب الغنائي في شعره الذي يعجب به الإيرانيون إعجاباً كبيراً، وهو يثير العجب بطريقة اختياره للألفاظ والتراكيب^(٢)، ويمكن أن نرى ذلك حين كان ينتقل من الحديث عن جبال كشمير إلى الحديث عن صحراء العرب انتقالاً سهلاً:

يا ناقتي السائرة

يا غزالي التتاري

يا درهمي وديناري

يا قليلي وكثيري

يا حظي السعيد

تمهلي وتهديني في سيرك . . منزلنا ليس ببعيد

أنت الجاذبية والحسن

أنت الجمال الزاهي

(١) عزام - إقبال ص ١٥٢.

(٢) عبد الحميد عرفاني: إقبال إيرانيون كي نظر مين ص ١٨٨.

أنت حورية الوجه

أنت محسودة ليلي

أنت بنت الصحراء

تمهلي وتمهذي في سيرك . . منزلنا ليس ببعيد

والواقع أن حياة الناقه ترمز إلى حياة الإنسان .

والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها وضروب النبات فيها وألوانه وصنوف الرياحان وروائحه ، جمعت أشتات الزهر من المشرق والمغرب ، وإقبال في مقدمته لديوان " پیام مشرق " يقول :

«نظمت " پیام مشرق " لأجيب به على الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول في الشاعر الألماني هانبا : «هذه باقة من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ، ويتبين من هذا الديوان أن المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر الشرق . . . ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره والتي سماها هو باسم " الديوان الغربي " ؟! لا بد للإجابة عن هذا السؤال أن نتبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي أحتاج إليها في هذا البحث لم تيسر في الهند .

وقد اجتهد جوته في الديوان الغربي في إظهار روح العجمية في الأدب الألماني . . وأما " پیام مشرق " فقد كتب بعد الديوان المغربي بمائة سنة ولست في حاجة إلى الإبانة عنه فسرى الناظرون فيه بأنفسهم أن أكثر ما يحرصون إليه وهو النظر في الحقائق الأخلاقية والدينية والمذهبية والتي تتصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أن بين ألمانيا قبل مائة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابها ما ، ولكن الحقيقة أن الاضطراب الباطني في أمم العالم الذي لا نستطيع تقدير

خطره؛ لأننا متأثرون به هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً. كانت الحرب العظمى التي قامت في أوروبا قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه، وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً، وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان عالماً يرى هيكله البين في مؤلفات اينشتاين وبرجسون، لقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعالمية وسمعت من سنيور نيتي الذي كان رئيس وزراء إيطاليا قصة انحطاط الإفرنج المحزنة، ولكن وأسفاه! لم يستطع عباد القديم الذين سمعوا حقايقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يفور في الضمير الإنساني. . إن الشرق ولا سيما الشرق الإسلامي يفتح عينه بعد نوم القرون المتطاولة، ولكن يجب على أم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل في أعماقها، وأن عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً. هذا قانون الفطرة الثابت الذي بيّنه القرآن في كلمات يسيرة وبليغة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. إنه قانون يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي وقد اجتهدت في كسبي الفارسية أن أبين للناس صدقه^(١).

محتوى الديوان

يشمل الديوان الأقسام التالية :

- ١- شقائق الطور، وهي رباعيات
- ٢- الأفكار: وهي إحدى وخمسون قطعة نجد من بينها: الوردة الأولى، دعاء، الربيع، غناء النجوم، بين الله والإنسان، العشق، الجنة، الجمهورية، إلى مصطفى كمال باشا، الطائفة، لغز سيف الإسلام في بلاد الإفرنج، وغيرها.
- ٣- الخمر الباقية: وهي قصائد رمزية من الضرب الذي يسمى في اصطلاح

(١) إقبال. پیام مشرق. ترجمة د. عبدالوهاب عزام. المقدمة.

الأدب الفارسي غزلاً وهو غير الاصطلاح العربي فهو في اصطلاح شعراء الفرس أبيات قليلة لا يلتزم فيها الشاعر موضوعاً واحداً، وعدد الغزليات في هذا القسم خمس وأربعون.

٤ - نقش الإفريخ: وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة يذكر فيها إقبال بعض شعراء أوروبا وفلاسفتها، وينقد مذاهبهم وآراءهم فيقبل منها، ويرد فهو يتحدث عن هيئة الأمم وشوبنهاور ونيتشه وعن الفلسفة والسياسة وهيكل وبرجسون وغيرها.

٥ - الدقائق: وهي قطع صغيرة وأبيات مفردة ألحقها بالديوان.

٤ - بانگ درا

صلصلة الجرس:

نُشر هذا الديوان أول مرة سنة ١٩٢٤ م. وقد بدأ به الدكتور عبدالوهاب عزام ترجمته لدواوين إقبال، لما يحوي شعر الصبا الذي نظمه قبل منظومتي الأسرار والرموز وغيرهما. وقد عرفنا الشاعر بتاريخ القصائد في هذا الديوان إجمالاً إذ قسمه إلى الأقسام التالية:

القسم الأول: إلى سنة ١٩٠٥ م: وفيه زهاء ستين قصيدة وقطعة نظمها منذ شرع ينظم الشعر إلى أن سافر إلى أوروبا سنة ١٩٠٥ م، وفي هذا القسم قصائد قومية ووطنية وقصائد إسلامية وإنسانية.

القسم الثاني: من ١٩٠٥ - ١٩٠٨ م: وهو ما أنشأه في أوروبا حينما ذهب إليها للدرس وهو زهاء ثلاثين قصيدة وقطعة، وهذا القسم جدير بالعناية بما يبين عن شعور الشاعر أول عهده بالإقامة في أوروبا ورؤيته حضارتها في مواطنها على اختلاف وجوهها، وتعدد مظاهرها.

القسم الثالث: من ١٩٠٨ إلى ١٩٢٤ م: وهو تاريخ نشر الكتاب، وفيه زهاء

ثمان قصائد وقطعة، وآخر القصائد الطوال في هذا القسم قصيدتان عنوانهما: "خضر راه" و"طلوع إسلام"، أنشد الأولى في احتفال خاص للمسلمين سنة ١٩٢٣م؛ فوصف ما أصاب الدولة العثمانية في هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وذكر في الثانية انتصار الترك في حرب الاستقلال، وهو لم يذكر الحوادث صراحة، ولكن أشار إليها إشارات يدركها القاري، وفي هذا الديوان شعر لإقبال أنشأ بعضه في صباه وبعضه في سن الخمسين^(١).

وفي "بانك درا" نجد أعظم قصائد الرثاء عند إقبال، وفي القصيدة التي رثى بها أمه يقول:

«كل ذرة في العالم رهينة القدر، وكل شيء مجبور.

السماء مسخرة والشمس والقمر مسخران والكواكب مسخرة أيضاً...

الموت رخيص رخص نسمات الصباح

هذه الدنيا مليئة بالزلازل والصواعق والمجاعة والدواء

وما أكثر ثبات الدهر

الموت في كوخ المفلسين وفي قصر المترفين

الموت في الصحراء والبيت والمدينة والحدائق والقفور

يقيم حفلته في بحر السكون ويغرق السفن في أحضان الأمواج

ليس هناك مجال للكلام ولا للشكوى

في هذه القافلة

لا نسمع إلا صوت الجرس ولا نملك إلا العين الدامعة

ولكن سوف تنتهي أيام الابتلاء هذه وراء السموات السبع

لا تحزن لو كانت الورود والزهور مشقوقة الصدر في هذه الحديقة

(١) عزام. إقبال.

ولو كانت العصافير مسخرة للشكوى . . .
 إن الموت رسالة اليقظة في لباس النوم
 ولا يخاف من الطيران من اعتاده
 والموت يحاول أن يطير ولا يطير
 يقول الناس إن مرضى الموت لا دواء لهم
 وجرح الفراق لا يلتئم إلا بمرهم الزمن .
 ثم ينتهي إلى مناجاة أمه :
 «إن حياتك يا أماه كانت أنور من البدر
 وكان سفرك أجمل من سفر الزهرة
 فليكن مرقدك مضيئاً مثل قصور السحر
 وليكن بيتك الترابي مملوءاً بالنور
 فلتمطر السماء على قبرك قطرات الندى
 ولينمو النبات الأخضر على بيتك»^(١).

وتعتبر هذه القصيدة من أشهر قصائد الرثاء في اللغة الأردية وأروعها، فهو
 يجوب في غموض أسرار الحياة والموت والقانون الذي تسلط عليه، وهذه الفلسفة
 تجعل روحه تنفذ إلى الأسرار والمعاني في حكمة الحياة وفلسفة الموت فتعطيه ثباتاً
 وشجاعة لمعالجة هذا الفقدان^(٢).

ويصادفنا أيضاً مرثية فاطمة تلك الفتاة التي كانت تسقي الماء للمجاهدين
 الوطنيين في رمال صحراء ليبيا المحرقة .
 «يا فاطمة أنت مجد الأمة الإسلامية

(١) ديوان بانگ درا.

(٢) S. A. Wahid: Iqbal his art and thought p. 188.

كل ذرة في جسمك بريثة وطاهرة
 كانت هذه السعادة من نصيبك
 أن تسقى غزاة الإسلام
 جاهدت في سبيل الله عزلاء
 بدون سيف ولا ترس^(١)

٥ - زبور عجم

نشر عام ١٩٢٩م وهو من أجود شعره وأدق معاني وأبعده مرمى صدره بكلمة إلى القراء يقول فيها: «تجذب عيني شعرة حيناً، وترى عيني العالمين حيناً، إن وادي العشق سحيق وطويل، ولكن طريق مائة سنة تُطوى باهتة حيناً، جد ولا يهن أملك وعزمك، فرب سعادة تواتي على قارعة الطريق حيناً»^(٢).

قال أربري في مقدمته لترجمته الإنجليزية: «إن القاريء سوف يجد نفسه في عالم جديد من الفكر والمشاعر، عالم مليء بالأمل والطموح العالي، في عالم يحوي رؤية أعظم مفكر يرى في متاعب هذه الأزمنة فجر عمر جديد»^(٣).

محتوى الديوان

وهذا الديوان أربعة أقسام :

الأول: فيه دعاء، وست وستون قطعة أكثرها بدون عنوان.

الثاني: فيه خمس وسبعون قطعة تقل فيها العناوين أيضاً.

الثالث: حديقة السر الجديد (كلشن راز جديد) وهو على طريقة "كلشن راز"

(١) ديوان بانك درا.

(٢) عزام. اقبال صد ١٨٣.

(٣) المقدمة: A. J. Arberry: Psalms Lahore 1948.

الذي ألفه الشيخ محمود شبستري إجابة لأسئلة في التصوف أرسلها إليه بعض الصوفية، ولهذا سمى إقبال منظومته "كلشن راز جديد"^(١). وفيه يجيب إقبال على تسعة أسئلة فيها دقائق فلسفية وصوفية.

والسؤال الأول مثلاً: «أنا في حيرة من فكري، ما الشيء الذي يسمى فكراً؟ أي فكر يدلنا على الطريق؟ لماذا تكون الطاعة حيناً والمعصية حيناً؟».

والسؤال التاسع: «من الذي انتهى إلى سر الوحدة؟ وما الذي انتهت إليه معرفة العارف؟».

القسم الرابع: كتاب العبودية: ويبين فيه آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف.

وهذه الأقسام كلها تعرف باسم "زيور عجم" وقد جمعت في مجلد واحد عليه هذا العنوان، ولكن يتبين من العناوين الداخلية أن القسمين الأولين هما زبور العجم وألحق بهما القسمان الأخيران بعنوانين منفصلين.

٦ - جاويد نامه

الكتاب الخالد:

طبع هذا الديوان سنة ١٩٣٢م ومعناه: الكتاب الخالد، وفيه تورية إلى جاويد ابن الشاعر، وهو مثنوي في بحر الرمل مثل منظومتي الأسرار والرموز وهو من أعمق أشعاره يحتاج القارئ فيه إلى زاد من المعرفة بالتصوف والفلسفة والتاريخ.

وجاويد نامه قصة سفر في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي فيها زهاء ألفي بيت، تبدأ القصة بمقدمة فيها مناجاة وفصول أخرى، إلى أن تظهر روح جلال الدين الرومي فيشرح أسرار المعراج وهو دليل الشاعر في هذه المرحلة ثم يأتي زورابه وهو روح الزمان والمكان فيحمل الشاعر ودليله جلال الدين إلى العالم العلوي.

(١) انظر ترجمة د. حسين مجيب المصري بعنوان روضة السر الجديد - مكتة الأنجلو القاهرة.

ويزور الشاعر أولاً " القمر " وهنا قدمه الرومي إلى الحكيم الهندي المعروف باسم " جهان دوست " (محب الدنيا) يجلس تحت شجرة يأكل ويشرب في تأمل وتفكر على طريقة اليوجا الهندية وحديثه مع الرومي واضح وهو يبين للإنسان أن الطريق إلى التقدم يكمن في المزج بين الثقافة الشرقية والغربية، فالشرق قد ركز على الروحانيات مهملاً الماديات بينما الغرب قد ركز على الماديات مهملاً الروحانيات .

«إن الشرق قد رأى الله وفشل في أن يرى العالم المحسوس، والغرب نهض في العالم ونسي الله» .

ويوافق الحكيم الهندي على ملاحظات الرومي؛ لكنه ينقل إلى الشاعر أخباراً مشجعة وهي أن الشرق النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النوم والانشغال .

ويذهب الشاعر إلى وادي برغميد حيث يرى الشاعر كتب بوذا وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ . والشاعر لا يقابل الرسل شخصياً بل من خلال كتبهم وهو يشرح تعاليم كل رسول على لسان أربع شخصيات . فتعاليم بوذا تشرح على لسان فتاة راقصة، بينما تعاليم زردشت على لسان أهرمن، وتعاليم المسيح على لسان تولستي وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وها هو يوضح عصيان أبي جهل المتأصل :

«قلوبنا جريحة بسبب محمد

فتعاليمه قد أضاعت الكعبة

إنه يحكي هلاك قيصر وكسرى

ويسلب الشباب من حوزتنا

ضربته حطمت اللات ومناة

يا أيتها الكائنات انتقمي منه

فدينه يلغي كل فروق الوطن والجنس
ومع أنه من قريش فهو ينكر فضل العرب
ليس في دينه تمييز بين كبير وصغير
فهو يأكل مع غلامه في طبق واحد .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى " عطارذ " حيث يقابل جمال الدين الأفغاني وسعيد حلیم باشا، وهما من الشخصيات الإسلامية العظيمة في الشرق في القرن التاسع عشر، وهنا يقدم الرومي الشاعر على أنه " زنده رود " أو " النهر الحي " وهو الاسم الذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب، وفي إجاباته على أسئلة الأفغاني يصف الشاعر الأخطاء التي ترتكبها أم الشرق خاصة الترك والفرس والعرب في تغريبهم لأنفسهم ويقارن سعيد حلیم باشا بين الشرق والغرب، ويبين أن إنقاذ وخلص الجنس البشري يكمن في المزج والتأليف بين كلا الثقافتين أو كما يعبر الشاعر في تزواج العقل بالعشق :

«في الغرب، العقل هو مصدر الحياة

في الشرق، العشق هو سر الحياة

من خلال العشق يصبح العقل عارفاً بالحق

كما أن العقل يعطي الأساس المحكم لعمل العشق

انهض وضع أساساً لعالم جديد

يمزج بين العقل والعشق .

ويحكى سعيد حلیم باشا بعد ذلك للنهر الحي : (زنده رود) أن دين الله قد أصابه الفساد من جراء تعصب " الملا " فقد اقتصرت وظيفته على خلق المتاعب .

«إن دين الكافر هو التدبر من أجل الجهاد

ودين الملا يخلق الفساد باسم الله» .

ويبحث جمال الدين الأفغاني الشاعر على ضرورة أن يبلغ الروس رسالته التي يقارن فيها بين الإسلام والبلشفية، وحسب رأي الأفغاني ليس هناك ما هو مشترك كثيراً بين الإسلام والبلشفية والروس ما زالوا متورطين في نفس اتجاهات الغرب عن المذهب العقلي القائل بأن المعرفة مستمدة من العقل المحض، والآن حان الوقت لكي يتخلص الروس من اللادينية المادية، ويوافقوا على القرآن كدستور وهو فقط الذي يعني الامتزاج بين العقل والعشق.

وينتقل الشاعر من عطار "كوكب" الزهرة حيث يزور مسكن الآلهة القديمة، ويأخذ الرومي الشاعر إلى إقليم يقع مباشرة تحت نهر حيث يقيم فرعون وكتشنر، ويقدم فرعون الاعتذارات لأنه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى، ويحذر الآخرين من أن يكونوا أكثر حذراً في مثل هذه الحالات، ويقارن الرومي بين الأثوقراطية "حكم الفرد الإلهي" والاستعمارية في الشرق.

ومن "فينوس" يتجه الشاعر إلى "الريخ"، ويناقد الشاعر مع حكيم المريخ مشكلة القضاء والقدر، وفي رأي الحكيم أنه من الممكن بالنسبة للإنسان أن يغير قدره، والإنسان يجب أن يحاول أن يحرص على السيطرة التامة على مصيره :

«لو لم يناسبك القدر

فالرغبة من الله قدر مختلف

لو أنك تحتاج قدراً متجدداً

فالله يمكن أن يخلق الأقدار اللامتناهية».

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى "كوكب المشتري" حيث يتقابل مع الشاعر غالب والصوفي منصور الحلاج وغيرهما، ويناقد معهم فلسفة الحياة والموت وبينما تستمر هذه المحادثة يظهر الشيطان على مسرح الأحداث، ووصف الشيطان هنا رائع ويحتاج إلى دراسة مفصلة.

يصل الشاعر بعد ذلك إلى كوكب " زحل " حيث يقابل أرواح المتهمين بالخيانة العظمى ضد أوطانهم ، مير جعفر من البنغال وصادق من الدكن والاثنان في قارب يكافحان دوغماً أمل ضد عاصفة مثيرة في بحر من الدماء ، وفي تلك اللحظة :

«انشقت السماء وولدت حورية حسناء

نزعت الحجاب عن وجهها

ولا يزال على جبينها نار ونور

ولا يزال في عينيها سرور

حلتها كانت أرق من السحاب

ولحمتها وسداها من عروق الورد

إلا أنه مع كل هذا الجمال ، كانت هناك سلاسل وقيود

وعلى شفيتها أنات مؤلمة .

قال الرومي : انظر ، إن هذه هي روح الهند

إن قسوة أناتها سوف تكون حرقه ولهيبا في الكبد» .

ويصل الشاعر إلى ما وراء الأفلاك وأول من يقابل ، يقابل نيتشه الذي ظل طوال حياته يحاول البحث عن الله لكنه فشل لأنه اعتمد أساساً على العقل الذي لا يؤدي إلى شيء ، وبعد نيتشه يطير الشاعر إلى قصر عبدالصمد حاكم البنجاب ، ثم يقابل أخيراً الشاعر الشيخ سيد علي همداني والشاعر غني من كشمير ، ويشير بعد ذلك إلى بيع البريطانيين لكشمير :

«يا رياح الصبا لو تمرين بجنوا

فبلغني رسالتي هذه إلى هيئة الأمم

إنهم باعوا الفلاحين والمحاصيل ، والأنهار والحدائق

وباختصار ، باعوا كل الأمة ، وما أرخص ما باعوا به» .

ويقابل الشاعر كذلك نادر شاه وأحمد شاه الأبدالي، والشاعر الهندي بهرتري هري، وبينما هو يستعد لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمع الصوت الإلهي المقدس يوضح له أن السر الحقيقي للتقدم والتطور يكمن في نمو وتطور الفرديات والمجتمعات وهنا تنتهي الرحلة.

وفي النهاية يخاطب الشاعر الشباب عن طريق ابنه جاويد فينصحهم بتجنب الرفقة الشريرة، وأن يُنموا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاح المستمر:

«إنه من الخطأ أن تنطق بكلمة سيئة
 إن الكافر كالمؤمن هو من خلق الله
 كُل قليلا ونم قليلا وتكلم قليلا
 ودر حول نفسك مثلما تدور البوصلة حول المركز
 إن منكر الله كافر عند "الملا"
 ولكن عندي أن من ينكر الذات أشد كفراً
 ولتكن دائماً مخلصاً في كل معاملاتك
 وتخلص من خوف الملوك والحكام
 لا تترك أبداً العدل تحت أي ظرف
 لذة الحياة ليست سوى التحليق بالذات
 فالعشق ليس مكاناً مناسباً لفطرتها».

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام: «كانت هذه المنظومة أول ما فكرت في ترجمته من دواوين إقبال، ولكن بدا لي من بعد أن أقدم عليها رسالة المشرق ثم ضرب كليم ثم الأسرار والرموز ولا أدري متى يتيسر لي ترجمتها»^(١).

(١) عزام. إقبال ص ١٨٧. وقد ترجمها ودرسها د. سعيد جمال الدين، وكذا الدكتور حسين مجيب المصري وطبعت الترجمتان.

٧ - مسافر

دعا نادر شاه أكابر الهند : محمد إقبال ، ورأس مسعود وسليمان الندوي إلى زيارة أفغانستان ، ورأى إقبال في أثناء سفره غزنة والأطلال ؛ فتأثر بذلك ونظم في ذكرى هذا السفر منظومة " مسافر " حيث أخذ يعظم الأمة الأفغانية وملوكها نادر شاه والرجال العظماء الآخرين .

زار إقبال قبر السلطان محمود الغزنوي والحكيم سنائي ، وأنشد هناك أشعاره التي صور بها عظمة وجلال بلاط السلطان ، ويقف إقبال أمام سنائي يشكو له من تعب قلبه ؛ فيجيب عليه الحكيم ، فيصل الجواب إلى أذن إقبال ؛ فتسكب الدموع غزيرة من عينيه ، ويسمع صوت الشاعر الفرخي فيرن في قلب إقبال المحترق ، وكم تغنى إقبال بغزلياته في خرابات غزنة تلك التي هيجت روح " المسافر " (١) .

وقد تحدث حديثاً عذباً عن خيبر ، يصور ما يحمله لهذا المكان من محبة في قلبه ، وماله من ذكرى ، كما تحدث عن مدينة كابل ، وكيف أنها ليس لها نظير ، فإنها ماء الحياة بل إن عين الحبيب تستمد سرمديتها من سوادها فهي بلدة خالدة ، بل إنه يقول : « إن الشמוש نائمة في جبال هذا البلد » (٢) .

وإقبال في ديوانه شديد الإعجاب بشجاعة الأفغان وحريرتهم ، وما غلب على الديوان هو زيارته ووقوفه على قبر السلطان محمود الغزنوي ، وقبر أحمد شاه المللق بـ " دراني " ، وختم المنظومة بأبيات خاطب فيها الملك ظاهر شاه والد نادر شاه ، وقد قتل نادر شاه بعد عودة الشاعر من أفغانستان مخلفاً ابنه ظاهر شاه (٣) .

(١) عبدالحميد عرفاني ، ترجمة ضرب كليم ، المقدمة .

(٢) لطف الله بدوي ، حيات إقبال ص ١١٣ .

(٣) عزام ، إقبال ص ١٨٨ .

٨ - بال جبريل

جناح جبريل :

نشر هذا الديوان عام ١٩٣٥ م، ويحتوي على الأقسام التالية :

- ١ - إحدوي وستون قطعة تتناول أفكاره الشائعة في شعره في صور شتى ورباعيات قليلة .
- ٢ - قصائد نظمها في الأندلس حينما زارها وهي دعاء في مسجد قرطبة وقصيدة طويلة رائعة في وصف هذا المسجد ، وقصيدة عن المعتمد بن عباد في سجنه ، وأول نخلة غرسها عبدالرحمن الداخل في الأندلس ، وقصيدة عن إسبانيا ، ثم دعاء طارق في المعركة .
- ٣ - ومن عيون القصائد في القسم الثالث منظومة عنوانها ، لينين أمام الله وهي في صورة تمثيلية رائعة .
يخاطب لينين الله :
«يا من تظهر آثارك في الأنفس والآفاق
فالحقيقة أن ذاتك حية باقية
لكن كيف لي أن أعرف هل أنت هو أم لا؟
في كل لحظة تتغير نظريات العقل
إن ما اعتقدته ، لا شيء أكثر من خرافات الكنيسة
أمنت اليوم به بعد أن رأيت هذا العالم الثابت
هل تأذن لي ، أود أن أسأل سؤالا :
لماذا لم تستطع مقالات الفلاسفة أن تلقى جوابا
أين هو هذا الإنسان الذي أنت إليه

هل هو الإنسان الترابي الذي يعيش تحت السموات
 إن آلهة الشرق هم الأوربيون البيض
 وآلهة الغرب هي الدولارات اللامعة
 هذا العلم، هذه الحكمة، هذا التدبر، هذه الحكومة
 كلها تمتص الدماء ثم تعلم المساواة
 إنك أنت القادر والعاقل لكن في عالمك
 كثير من العمال في حالة سيئة
 متى تغرب شمس الرأسمالية هذه
 إن العالم ينتظر يوم الجزاء .
 وهذه الشكوى التي عرضت الحقائق من جانب لينين تحرك الملائكة فينشدون
 نشيداً جماعياً :
 «العقل مازال بلا زمام، العشق مازال بلا مقام
 أيها الرسام الخالد، مازال رسمك ناقصاً
 إن السكير والفقيرة والأمير والشيخ في حضن خلق الله
 وما زالت الأقدار القديمة هي هي في عالمك» .
 ويسمع الله هذا الغناء الجماعي ؛ فيأمر الملائكة أن يحرقوا كل سنابل القمح التي
 لا تعطي الغذاء لمن زرعوه ورعوه :
 «انهضوا وأيقظوا فقراء عالمي
 هزوا أسس قصور الأغنياء
 أثيروا الحمية في دماء العبيد بنار الإيمان
 أعطوا المتواضع الذليل قوة نزال الشاهين

أحرقوا كل سنابل القمح في الحقل

الذي لا يعطي الخبز للزارعين .

كما يوجد في هذا القسم أيضاً أشعار عن فلسطين ومنظومة عنوانها: " الملائكة يودعون آدم خارجاً من الجنة " ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي والمريد الهندي، وأبيات عنوانها على قبر نابليون وأخرى عنوانها: " مسوليني " .

٤ - قطع أخرى كثيرة متفرقة عن موضوعات مختلفة^(١) .

ولا يوجد في الأدب الأردني كتاب يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العمق وسعة المطلب والبيان، وما يلفت انتباهنا هنا هو أن إقبالاً يحكي خواطره الخاصة عن أسفاره إلى أسبانيا وفلسطين، وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص بالمحاورة بين إقبال والرومي، فالمريد الهندي (إقبال) يسأل بالأردية والرومي يجيب عن كل سؤال بأبيات من المثوي وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار إقبال^(٢) .

(١) عزام، إقبال ص ١٨٩ .

(٢) عبد الحميد عرفاني . ضرب كليم . المقدمة .

٩ - پس چه باید کرد أي أقوام شرق ؟

ماذا يجب عمله يا ائمة الشرق ؟

وهو آخر مثنوي لإقبال وقد نشر بعض الأشعار سنة ١٩٣٦م بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، ووضع عليها كلها عنوان المنظومة التي ذكر فيها حرب الحبشة وعصبة الأمم وهو العنوان الذي صدرت به هذه الأسطر ولكن فيها عناوين متعددة في موضوعات مختلفة مثل :

خطاب الشمس ، الحكمة الكلّيمية ، الحكمة الفرعونية ، لا إله إلا الله ، الفقر ، الرجل الحر ، في أسرار الشريعة ، كلمات إلى الأمة العربية . . . الخ .

وهذه المنظومات في جملتها حكمة بالغة في شعر بليغ ، نفثها الشاعر حين أحزنته أحوال المسلمين ، وحزبه ما رأى من فتون الحضارة الأوربية وضلالها ، وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمم الضعيفة^(١) .

والشاعر يوصي وينصح الأمم الشرقية لإقامة الروابط الاقتصادية والثقافية فيما بينها ، ويبيّن لها أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة المتعددة والعودة إلى أحكام الإسلام ، وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة . فقد كان قلب إقبال يحترق دائماً من جراء أوضاع الأمم في الشرق^(٢) .

(١) عزام ، إقبال ص ١٩٠ .

(٢) عبد الحميد عرفاني . ضرب كلّيم . المقدمة .

١٠ - ضرب كليم

نشر سنة ١٩٣٧م، ولم يُنشر في حياته ديوان بعده، وهو ديوان مفصل إلى أبواب منها نظرات في الإسلام والتربية، والمرأة والفنون الجميلة، والسياسة وغيرها. والفلسفة في هذا الديوان واضحة ظاهرة في أفكار معينة، وموضوعات محدودة ودعوة إقبال فيه واضحة.

يحتوي الديوان على الأقسام التالية :

١ - الإسلام والمسلمون :

وهو أطول الفصول. وفي هذا القسم يلقن إقبال الإيمان والتوحيد ويقول: إن ارتقاء النفس الإنسانية أو الذات أول شرط من شروط الإيمان بوجود الله الواحد ووحدانيته، ويجب على المسلمين أن يجعلوا القرآن، وأقوال الرسول وأحكام الإسلام نبراساً لهم، وليست تلك السفسطة والفلسفة، والعلم والمعرفة حقاً أشياء ضرورية لكن يجب أن تكون مقترنة بالقلب، ولا يُحبذ إقبال التأويلات والتفسيرات الغير ضرورية، وهو يعتقد أن الوجدان الظاهر هو أحسن مفسر للحقائق العرفانية، وقد شرح مسألة الجبر والاختيار بطريقة غاية في السهولة، وأوضح أن تاريخ الأمم يكون في حالة كل تقدير تابعا لجد وجهد البشر، وأن الرجل المؤمن فقط هو الثابت على الأحكام الإلهية^(١).

٢ - التعليم والتربية :

يقول إقبال: إن الغرض النهائي والمقصد الأعلى هو تربية ورقي الذات وإن قراءة وحفظ النظريات الفلسفية لا يصيب الإنسان بأي أذى وإقبال قد حكم حتماً على طريقة التعليم الغربية وعلى مقلديها بأنهم كمن يقلدون الأعمى في عماء أما ما يُقال عن حرية الفكر لدى الغربيين فما هي إلا طريقة تؤدي إلى إغراق الفكر، ويجب بل ينبغي أن نحفظ الفكر والنظر السليم بالاعتماد على الإيمان والتوحيد.

(١) عبد الحميد عرفاني. ضرب كليم. المقدمة.

٣ - مقام المرأة في المجتمع :

يوضح إقبال الحرية النسائية (حرية المرأة) ويعرفها بحفظ المكان والمقام المقدس للأم والأخت، وإقبال كان معروفاً بما يحمله من محافظة ورعاية للمرأة وأنوشتها، وكان يكره تشبه المرأة بالرجل .

٤ - آداب الفنون الجميلة :

لا يرضى إقبال أبداً بأي وجه من الوجوه بفكرة الفن للفن، وفي رأيه أن الآداب والدين والفنون الجميلة كلها يجب أن تكون عاملة ومساعدة في ارتقاء كمال مدارج الذات، والأديب والفنان الحقيقي هو ذلك الشخص الذي يجعل أفكاره وفنه من أجل تربية وسمو الإنسان ورفقي الفكر .

٥ - سياسيات الشرق والغرب :

في هذا القسم ينقد إقبال النظام الرأسمالي، ويستحسن إلى حد ما الثورة الروسية، ويقول: بأنه يجب أن نحطم النظام القديم البالي (الرأسمالي) وهو لا يعجب بسياسة الإفرنج .

٦ - أفكار محراب گل أفغاني :

وهو آخر قسم، يشتمل على عدة قطع بعنوان مقتطفات من أفكار شاعر اللغة البشتونية "محراب كل" وفيها ينقد إقبال سياسة الدول الغربية، ويحذر شعوب الشرق من التقليد السطحي للثقافة الأوروبية، كما أوصى بحفظ شعارات وسنن الإسلام^(١).

ويقول د. عزام: «إن فلسفة إقبال القوية تتجلى في هذا الديوان، والديوان في جملة ضرب يفجر الماء من الحجر، لا موسيقي ولا غناء كما قال إقبال:

(١) عبد الحميد عرفاني . ضرب كليم . المقدمة .

كفاح سديد وضرب شديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر^(۱)
 ومن أجل هذا سماه ضرب الكليم، ويرمز إلى قصة موسى حين ضرب بعصاه
 الحجر؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.
 ويقول غلام أحمد پرويز: «إن هذا الكتاب سماه العلامة إقبال "ضرب كليم"
 ووصفه بأنه "إيدان العصر الحاضر بالحرب"^(۲).
 ويمكن الرجوع إلى الترجمة الرائعة للأستاذ عبدالوهاب عزام لنرى نماذج من
 شعر إقبال في هذا الديوان.

۱۱ - ارمغان حجاز

هدية الحجاز:

وقد نشر بعد وفاته، وفيه آخر أفكاره، وختام نظرياته ويحوي منظومة مهمة
 عنوانها مجلس شوري إبليس، وأرمغان حجاز هو موضوع دراستنا في القسم
 الثاني من هذا الكتاب.



(۱) به زور دست وضربت کاري کا ہے مقام میدان جنگ میں نہ طلب کر نوائے جنگ

(۲) عزام. ضرب کليم. المقدمة المترجمة لغلام پرويز ص ز.

ثانياً : أدب إقبال

١ - الفن الشعري عند إقبال

أ - رأي إقبال في فن الشعر

يرى إقبال أن الشعر هو إطار الفلسفة الحقيقية حيث يكون موضوعه موجه إلى الطبيعة الإنسانية ليقويها، ومُعينا للجنس البشري في نضاله ضد كل ما هو شر وخيبيث، أما الشعر الذي لا يتجه إلى تحريك العواطف في النفس الإنسانية من أجل الخير. ولا يساعد على الاتجاه إلى النور؛ فقد أخفق تماماً في رسالته، فوظيفة الشاعر الحقيقية - عند إقبال - هي أن يهيئ الإنسان لمزيد من السيطرة والتغلب على مشاكل الحياة، وجعله قادراً على قهر كل العوائق، ومن هنا وقبل أن ندرس شعره فإنه من المفيد أن نرى نظريته عن الفن عامة، وفن الشعر خاصة ففي رأيه أن الهدف الحقيقي لكل فن هو خلق الحياة البشرية جميلة خصبة، والفن الذي يخفق في هذا يخفق في تحقيق أعظم أهدافه:

«يا أهل النظر، من المفيد أن يكون لديكم نظر سليم

لكنكم لم تروا حقيقة الأشياء، فأين هو النظر؟

إن مقصود الفن هو تحقيق حرقة الحياة الأبدية

أن يُبقي النفس يجعله كالشرر

إن الأمم لا تستطيع أن تنهض بدون معجزة

ما هو الفن بدون ضرب الكليم»^(١).

فينبغي على الفن أن يعمل على مساعدة الإنسانية أمام ما يواجهها من مشاكل.

(١) اے اہل نظر ذوق نظر خوب ہے لیکن
مقصود هنر سوز حیات ابدی ہے
یہ معجزہ دنیا میں ابھرتی قومیں
جو ضرب کلمی نہیں رکھتا وہ هنر کیا
جو شے کی حقیقت کو نہ دیکھے وہ نظر کیا
یہ ابک نفس یا دو نفس مثل شرر کیا
جو ضرب کلمی نہیں رکھتا وہ هنر کیا

ولا معنى لفن لا يكون هذا هدفه . يقول إقبال في المقدمة التي كتبها لديوان الشاعر غالب والمسمى : "مرقع چغتائي" : «أرى الفن خادماً للحياة والشخصية . . . أثبت عني هذا الرأي سنة ١٩١٤م في ديواني "أسرار خودي" وأوضحته مرة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة في القصيدة الأخيرة من ديوان "زبور عجم" حيث حاولت تصوير روح الفنان الأمثل الذي يتجلى العشق فيه توحيداً بين الجمال والقوة . . لعل إيقاظاً واحداً من نفس مسفهة ، تستطيع إغواء النفس بغنائها أو تصويرها ، شر على الأمة من جيش لآتيله أو جنكيز . وكما قال نبي الإسلام في امرئ القيس أعظم شعراء الجاهلية : «أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار»^(١).

والفنان يظل في نضال مع بيئته حتى تكون له اليد العليا . وهذا النضال يجعل القوى الداخلية لحياته قادرة على أن تبسط نفسها وتخلق الفن ، الذي يساعد على تنمية شخصية الفرد أو ذاته التي ينبغي أن تكون الهدف الصحيح لكل فن ، ومن هنا فالفن الذي يقوي الذات هو الطيب ، والفن الذي يضعفها هو الخبيث ، وقد ضاق إقبال بأولئك الذي يتحدثون عن "الفن من أجل الفن" ففي رأيه أن الفن ينبغي أن يوجه لخدمة الحياة ، وجعلها أكثر إشعاعاً وجمالاً والوظيفة الحقيقية للفن ليس تقديم التسلية أو تقديم السرور لكن إيقاظ العواطف السامية في الإنسانية ، ويرى إقبال أن الفنان ينبغي ألا يحاكي الطبيعة بل ينبغي أن يطبع نفسه عليها ويصور شعوره فيها ، ويقول : إن الإنسان خلاق لا مقلد ، وصائد لا صيد ، وإشارة إلى الفنان المبدع يقول الإنسان لربه :

«أنت خلقت الليل وأنا صنعت الصباح
أنت خلقت الصلصال وأنا صنعت الكوب
أنت خلقت الصحارى والجبال والغابات
وأنا صنعت البساتين والحدائق والأياتك

(١) عزام ، إقبال ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

أنا الذي صنعت المرأة من الحجر

أنا الذي حولت السم إلى شراب نافع»^(١).

والفن يقدم محاولات الإنسان من أجل رؤية حقائق الحياة والفنانون العظماء لا يمكن أن يروا وجوب الالتفات إلى تسليية الإنسان عن طريق الألعاب الفكرية، لا يدفعهم في هذا سوى حرصهم على أن تبقي آثارهم خالدة. ولكي تتحقق وظيفة الفن النبيلة ينبغي أن يحقق أشياء خاصة حددها إقبال في الأبيات التالية:

«يجب على النعمة أن تترى على جنون الحب

يجب أن تكون كالنار حلت في دم القلب

إن النعمة التي لا يكون لها معنى تبقي ميتة بلا حياة

وحرارتها إنما هي - فقط - من النار الميتة

هذا الفاضل الذي سما على الفطرة

كشف سره لأعيننا

لقد خلق عالماً جديداً

وأعطى قلباً جديداً لحياتنا»^(٢).

وميدان كل فنان هو الجمال وهدف كل فن هو التعبير عن الجمال وهذا يتحقق عن طريق المثالية والفن الحقيقي هو التعبير عن الجمال مع خلق الأمان في قلب الإنسان تلك التي تولد الحب الذي يمكنه أن يحل كل المشكلات الإنسانية.

- | | |
|------------------------------|-----------------------------|
| (١) توشب آفریدی چراغ آفریدم | سفاک آفریدی ایاغ آفریدم |
| بیابان وکھسار وزاغ آفریدی | خیابان وگلزار وباغ آفریدم |
| من آتم کہ از سنگ آتینه سازم | من آتم کہ از زهرنوشینه سازم |
| (٢) نغمه باید جنون پروردهء | آتشے در خون دل حل کرده |
| نغمه گر معنی ندارد مرده ایست | سوز او از آتش افسرده ایست |
| آن هنر مندے کہ هر فطرت فزود | راز خود راب برنگاه ما کشود |
| آفرید کائنات دیگرے | قلب را بخشد حیات دیگرے |

ومن هنا جاءت دعوة إقبال إلى خلق الأمل . وهناك اختلاف بين الأمل عند إقبال والأمل عند بقية الشعراء الكلاسيكيين ، فالأمل عند إقبال له مطلب بسيط وواضح وهو العمل والدعوة إلى النشاط . فإقبال يرى أن الهدف من الحياة هو تسخير الكائنات ، لكن من أين يبدأ الدعوة لتسخير الكائنات؟ من الأمل . وما هو هذا الأمل؟ إنه داعي العمل على خلق الذات ، فلو لم يكن الأمل فلن تكون الذات سوى شيء جامد صامت ، ولو اتخذت الذات صورة الجمود والخمود فما هو الداعي لخلق الأدب؟ لذا فيمكن القول بأن الذات هي روح الحياة ، والأمل هو روح الذات والأمل ليس فقط قادراً على خلق أدب عال لكنه أيضاً يمكن أن يحيل حياة الباطل إلى حياة الحق ، ويحطم سلاسل العبودية ، ويستطيع أن يستعمل نعمة الحرية استعمالاً صحيحاً .

وهذا الأمل مبني على الحق والصدق وليس له علاقة بأعمال الباطل أو أفكاره أو أوهامه . وأوضح إقبال هذا حين قال : «إنه لكي نرى الشيء الجميل الحسن يجب أن نضع الأمل قائدنا ودليلنا» .

ومن هنا جاءت معارضة إقبال لنظرية " الأدب من أجل الأدب " التي أوضحها في مقدمة " مرقع چغتائي " فبينما يرى أصحاب نظرية " الأدب من أجل الأدب " ومنهم هيجل وشوبنهاور وفيشته وغيرهم أن الأدب خادم للحسن وهو ذلك الخلق المبدع الذي يرتبط ويتصل بذيل الحقيقة المطلقة يرى إقبال أن الأدب يجب أن يرتبط بالحياة^(١) .

وأرى لزاماً هنا أن أشير إلى أن نظرية " الأدب من أجل الحياة " دخلت في الأدب الأردني حديثاً جداً . وقد تحدث عن هذه النظرية الأستاذ أختار حسين في كتابه : " أدب اور انقلاب " (الأدب والثورة) فقال : «إن العمل الأدبي جزء من الحياة المعاشة والأدب هو مرآة الحياة وحافظها»^(٢) .

(١) إقبال ريبو . يونيه ١٩٦٢م ص ٥٩ .

(٢) أختار حسين . ادب اور انقلاب ص ١٥ .

وإقبال يشير إلى أن نظريته في الأدب شيء مختلف عن هذه وتلك يقول :

«إن رسالة غيري شيء ورسالتي شيء آخر

إن أسلوب الكلام لمن عانى العشق شيء آخر

إنكم قد سمعتم نوح الطير المحبوس

لكن اسمعوا: إن نوح الطير المرتفع في القمة شيء آخر»^(١).

ب - الموضوعات الشعرية

بهذا المقدمة البسيطة لفكرة إقبال عن الفن يصبح من السهل فهم أشعاره فالفكرة الأساسية لفنّه الشعري هي الرغبة في خلق الحقائق الصادقة التي تمكن من رقي الإنسان والموضوع الرئيسي له هو أن يقدم ما يساعد القاريء في نضال الحياة ولتحقيق هذا كان من الضروري أن ينظم شعره عن الحياة ففي هذا عظمة الشاعر .

ومن هنا نجد في شعره الحكمة العلمية والتفائل الهاديء وقوته مثل قوة جوته تكمن في أنه ليس فقط معلما أو مفكرا لكنه أيضا وأساسا رسولا للإنسانية وهناك حقيقة يجب أن نذكرها دائما وهي أن لدى إقبال نبضتين تخفقان مليتان بقوة التعبير الفني وهما :

إيمانه في القدرة الإنسانية على التطور اللامحدود، ثم وضع الإنسان الفريد في الكون وهاتان النبضتان توجهان شعره .

بالإضافة إلى أن هذا نرى رحابة شعره فهناك ضمن موضوعاته : «قطة بين ذراعي فتاة إنجليزية، المباني التاريخية في قرطبة، زيارة لقبر نابليون، شكسبير، فيشته، غالب، جوته، اينشتاين، لينين الخ»، بل أنشد عن كل الموضوعات على كوكبنا وعلى الكواكب الأخرى كما هو في جاويد نامه . وهذه الرحابة في شعره تحتاج إلى تعدد الاستعمالات في الفن الشعري وما عند إقبال ضخمة وهائل فقد

(١) ديوان بانك درا.

ترك لنا شعراً بلغتين وكان على وشك أن يكتب بالثالثة^(١) حين وافته المنية ، وما عدا الشعر الدراسي فلا يوجد أي نوع من أنواع الشعر لم يكتب فيه إقبال فقد كتب شعراً غزلياً وفلسفياً وملحمياً وصوفياً وهجائياً، كتب في الرثاء والمدح والرباعيات وتقف أعماله جنباً إلى جنب في كل نوع من أنواع الشعر مع أعظم الأعمال العالمية . فشعره الفلسفي يذكرنا بالرومي ، وشعره الملحمي يذكرنا بدانتلي وملتن وشعره الغزلي يذكرنا بشلي وبندر ورونسارد وحافظ . أما شعره في الرثاء فيقف نداءً لأشعار المتنبي أما تصويره للطبيعة فيعيد للأذهان وردورث^(٢) .

ج - المذهب الأدبي لإقبال

المزج بين الكلاسيكية والرومانسية :

من الصعب أن نحدد أي المذاهب الأدبية تسود شعر إقبال ، لكنه من الواضح أن الأساس عند إقبال هو التأليف المتقن والمنسجم بين الكلاسيكية والرومانسية ، فهناك انصهار التوهج الرومانسي مع التركيب الكلاسيكي ، هناك الحدث الرومانتيكي في شكل كلاسيكي هناك كبح جماح النفس مع الصرامة والبساطة البالغة ، ولما كانت الحياة في رأي إقبال تحمل بين طياتها مصادر التطور من هنا وجب ألا يكون هناك حد لنزعات الشاعر المبدع . وإذا أريد تفسير كيف وفق إقبال بين الرومانسية والكلاسيكية فالأجدر بنا أن نقتبس من أشعار إقبال في " تذكراه فطرت " حيث يحكي إقبال قصة سقوط آدم ، يعطينا قدراً من المعلومات عن ميلاد آدم وعصيان الشيطان . وشخصية الشيطان شخصية رومانسية عالية . وهو يؤمن في الحياة بالحركة والخلق والإبداع . وشخصيات إقبال تتميز بحب الحياة والانفعال والهيام بالإبداع . وسقوط الشيطان يعزى إلى الحقيقة القائلة بأن تمرده وعصيانه العقلي يجعله غير مناسب لأن يتمرن على أي تحكم نفسي . والفكرة الأساسية لشخصيته

(١) أي اللغة العربية .

(٢) S. A Wahid: Iqbal. p. 109 .

هي رفضه للطاعة، ومأساته تكمن في أنه لا يستطيع أن يُغيّر قدره حين أمره الله أن يسجد لآدم. يخاطب الشيطان الله:

«لست أحقق - كمن خلق من نور - فأسجد لآدم

فقد خلق من تراب، أما أنا فأصلي ناري

اضطربت الدماء في عروق الكائنات من نيرانني

إنني أسيطر على سرعة العواصف والرعد والبرق

إنك خلقت مجرة النجوم وأنا سبب حركتها

أنا حياة كل شيء في العالم

إنني لا أتوسل أبداً بالسجود لإنسان بلا جوهر

إنني قاهر بلا جهنم، وقاض بلا يوم للحشر

لقد وهبت الروح إلى الجسد وأنا أعطيت الحرارة إلى الروح

إنك تبين طريق السلام والاستقرار وأنا أقود إلى الاضطراب واللاسكون

إن الإنسان ذو الأصل الترابي "أحمق" قصير النظر

ولد في حضنك لكنه نضح في حضني»^(١).

ويخطط الشيطان لسقوط آدم فزين له أن حياة الهدوء والسكون في جنة عدن

خالية وتعوزها الحرارة والحمية، فلو أراد آدم أن يتمتع بالحياة الواقعية فعليه أن

يخلق الشعور:

«إن الحياة المليئة بالحرقة والحرارة أحسن من السكون الدائم

إن الحمامة تصبح شاهينا حين تناضل تحت الشبكة

وأنت لا تعرف شيئاً سوى السجود

فانهض كالسرو الفارع واخط متمهلاً إلى العمل

أنت لا تعرف أن الوصل الآن يعني نهاية الشوق

إن سر الحياة الدائمة هو الحرقة الناقصة .

ويتبع آدم نصيحة الشيطان فيخرج من جنة عدن فيكتشف سروراً بهيجاً وسط اضطراب وفتنة الحياة، وهذا الاضطراب والهياج خلق رغبات جديدة في قلبه، فيفقد إيمانه القديم البكر بقيمة الأشياء، ويبدأ في التساؤلات والشكوك، وحين يبدأ إقبال في وصف آدم يغير أسلوبه وإبداعه الفني :

«ما هذا السرور الذي يجعل الحياة في حرقة وحرارة دائمة

والذي يذيب بنفس واحد قلب الجبل والوادي والصحراء

أنا الكل الناقص الاحتراق أنا كلي الشوق المؤلم

لقد استسلمت بالتأكيد إلى الشك إذ أنني ضحية البحث الدائم» .

وفي المشهد الأخير يظهر الإنسان أمام الله يحمل خطيئته، ويسلم بأنه على الرغم من أنه ضل فإن وجوده كان يعوزه شيء مهم بدون تجربة الغواية الكبرى التي أحكمها له الشيطان :

«مع أن مكروه قاذبي عن طريق الصواب

فلدي أمل أن تغفر لي ذنوبي وتغفر لي خطيئتي

حتى يُذاب هذا الصنم الحجري بالآهة المحرقة

كان من الضروري عليّ أن أكون مريداً تابعا للشيطان

لقد أوقع العقل الفطرة الذكية في الشرك

الشيطان المخلوق من نار سبب عصيان آدم المخلوق من طين»^(١)

والمنظومة كلها نموذج رائع ومثال طيب على المزج بين الرومانسية والكلاسيكية فالأسلوب الفني يتغير مع الموضوع كما يوجد تطابق ملحوظ بين العروض

(١) تذكره فطرت.

والقافية، وبين موضوع الشعر.

عرض إقبال في المنظومة رسالة الإنسان على الأرض بجمال وروعة، فقيمة ميلاد آدم في ذاتها حيوية وسامية، وهذا يجعلنا ندرك الوضع الحقيقي للإنسان في نظام الكون؛ لم يكن هناك أي حماس، الأسرار الإلهية كانت كما هي الأسرار الإلهية، الرغبة لم يكن لها مكان بين الأشياء، الحياة كانت هاجعة، وعن طريق العشق حاول الإنسان أن يمتص أسرار الطبيعة وأن يطور الذات عن طريق مواجهة نفي الذات فهدف الحياة هو تطوير القوى البشرية الخفية التي تظهر حين يستطيع الإنسان أن يسخر العالم المادي ويمكنه أن يقوم بهذا عن طريق تقوية الذات، والشيطان يرمز إلى عالم الحس، والإنسان يستطيع أن يصل إلى هدفه فقط عن طريق إخضاع عالم الحس^(١).

مثال آخر يوضح المزج بين الرومانسية والكلاسيكية الثلاثية المعروفة بأغنية 'لينين أنجلز وأمر الله' حيث أضفى إقبال على فنه فتنة عالمية، فبينما لينين لم يؤمن بالله طوال حياته، يجد نفسه فجأة وجها لوجه مع الله، ولم يكن من الممكن له أن يستمر في إنكار الله وكيونته لكنه ظل مرتبكا متحيرا فيسأل الله:

«أخبرني إله من أنت؟ كانت الرجال البيض آلهة الشرق

بينما الملائك المسيطرون هم آلهة الغرب

يوجد قدر كبير من البؤس في العالم

ما هو اللون البادي على وجوه البشرية في المساء؟

هل سببه الرسم والتلوين، أم أنه من السكر؟

إنك أنت العادل القوي القادر، لكن العمال في عالمك

ما زالوا يتحملون كثيراً من المظالم، متى ستنتهي الرأسمالية؟

(١) يوسف حسين. روح إقبال ص ١٣٣.

إن العالم ينتظر متضايقاً نافذ الصبر يتوق إلى يوم الحساب»^(١).

ويأمر الله عماله السماويين أن يهزوا أسس كل مجتمع يقوم على المظالم والآثام، وأن يوقظوا أولئك الفقراء الذين قاسوا طويلاً من جراء قناعتهم الساذجة والتي لا تدانيها قناعة ويخاطب لينين الله :

«يا من تظهر آياتك في الأنفس والآفاق

فالحقيقة أن ذاتك حية باقية

لكن كيف لي أن أعرف هل أنت هو أم لا

ففي كل لحظة تتغير نظريات العقل

هل تأذن لي أود أن أسأل سؤالاً :

لمَ لم تستطع مقالات الفلاسفة أن تلق جواباً ؟

أين هو هذا الإنسان الترابي الذي يعيش تحت السموات؟!

إن آلهة الشرق هم الأوريون البيض

وآلهة الغرب هي الدولارات اللامعة

هذا العلم، هذه الحكمة، هذا التدبر، هذه الحكومة

كلها تمتص الدماء ثم تعلم المساواة».

وتحرك هذه الشكوى التي أطلقها لينين الملائكة فينشدون نشيداً جماعياً :

«العقل مازال بلا زمام، العشق مازال بلا مقام

أيها الرسام الخالد، مازال رسمك ناقصاً

إن السكير والفقير والأمير والشيخ في حضن خلق الله

مازالت الأقدار القديمة هي هي في عالمك».

بعد هذا الغناء الجماعي يأمر الله الملائكة أن يحرقوا كل سنابل القمح التي لا تعطي الغذاء لمن زرعوه وحفظوه:

«انهضوا وأيقظوا فقراء عالمي هزوا أسس قصور الأغنياء

أثيروا الحمية في دماء العبيد بنار الإيمان

أعطوا المتواضع الذليل قوة نزال الشاهين

أحرقوا كل سنابل القمح في الحقل الذي لا يعطي الخبز للزارعين

إن المدنية الحديثة ليست سوى زجاجة للمصنع

علم شاعر الشرق آداب الجنون»^(١).

فألسلوب هو أسلوب الشعر الكلاسيكي لكن الموضوع رومانتيكي وخطاب لينين يعبر عن روح مرتبكة متحيرة تبحث عن شيء، وتتوق إلى التعليم بينما شخصيته شخصية رومانسية بكل ما في الكلمة من معنى، والقافية والوزن في الغناء الجماعي للملائكة يذكرنا بالموسيقى العلوية السماوية بينما صور أوامر الله كمنغمت مقدسة تعبر عن عظمة وجلال الله.

وفي 'سرود أنجم' أي أغنية النجوم يصف الشاعر النجوم وكيف تتحرك في مسارها الفسيح اللامتناهي في سيمفونية رائعة عذبة فهي بالرغم من قناعتها بالحياة فهي مازالت تبحث عن عالم جديد. ويستخدم الشاعر السجع بالإضافة إلى أنه يلمس جميع جوانب الموضوعات التاريخية بفتية وجاذبية ملحوظة، فبينما النجوم تسير باحثة عن مجالات سماوية جديدة فالإنسان قابع دونما شعور برسالته العظيمة، ماذا يمكن للإنسان أن يحقق لو أنه فقط قد عزم وقرر أن يغير هذا الموقف من القناعة بالأشياء كما هي:

«حياتنا نظامنا، نشوتنا تبخترنا

دوراننا بلا هدف، هو الحياة الدائمة لنا

الدوران في الفلك هو كل عملنا، فنحن ننظر ونسير
جسدك بالنسبة لنا ذرة، سنواتك بالنسبة لنا لحظة
إننا نبحت عن عالم، فنحن ننظر ونسير»^(١).

الرمزية :

أما عن الرمز فقد استعمله شعراء الأردية والفرسية بكثرة حتى قبل أن تصبح
الحركة الرمزية عامة في أوروبا، لكن إقبالاً أعطى الرمزية في هاتين اللغتين اتجاهات
جديدة وكثافة وقوة حتى إنه يمكن القول بأن الحركة الرمزية هي من الملامح البارزة
الجلية في فن إقبال.

والشعر الرمزي في الواقع هو بداية نوع من الشعر الصوفي الذي يعتمد في
تكنيكه على ميتافيزيقياته، وهذا يدل ضمناً على وجود الرمزية بكثرة في كتابات
إقبال، ولا يمكن للدارس أن يغفل هذه الحقيقة، ومثل دانتى حاول إقبال أيضاً أن
يخلق بمساعدة رمزيته خيالاً مرثياً للعالم الغير مرئي، ورمزية إقبال لا تعطي شكلاً
أو جوهراً لكن امتزاج وتفتح الحياة واضح فيها. فهي لا تُسمى الأشياء بل تخلق
غلافها الجوي أو أشعتها، وجمال رمزية إقبال يكمن أساساً في حقيقة أنها تختلف
تركيباً عن تلك التي استخدمها الشعراء الآخرون في الأردية والفرسية، والرمزية
عند إقبال نراها في: إبراهيم وغمرد - موسى وفرعون - حسين ويزيد. فهي فقط
قصص تراجيدية عرضية للاجتهاد الديني في تاريخ الإنسان، لكنها عند إقبال تدل
على النضال الأبدي بين الخير والشر، فرهاد وپرويز قصة تدل على المنافسة في
الحب لكنها عند إقبال تعبر عن الحب والعقل، محمود وإياز تدل على الملك
وخادمه المحبوب لكنها عند إقبال تعبر عن العلاقة بين العاصمة وعمالها - وهكذا -
وهو يصف النجوم كحصاد في حقل يُجمع في مرزعة الليل. ورمزية إقبال هذه
أمدت الشعر الأردني والفرسي بغنى لم يعرفه من قبل»^(٢).

(١) المرجع السابق ص ١١٨.

(٢) S. A. Wahid: Iqbal p. 122.

ويرى الأستاذ الدكتور يوسف حسين أن كمال شعر إقبال كان في رمزيته حيث تكون " الكناية أبلغ من التصريح " إلا أنه لم يتخذ طريق الرمزية الغربية ولم يتجه في كلامه إلى الغموض والألغاز . وقد استفاد بالجزء الخاص بالرمز في الغزل الفارسي والأردني ، ومن هنا لم يظهر في شعره التعليمي هذا الجفاف المعهود في الأشعار التعليمية وأدب إقبال لا يمكن أن يفهم منفصلاً عن الحياة أو بعيداً عنها فلم يكن يُهمل سرد الروايات ، وكان يبين ويشرح بأسلوب بياني جميل بالإيماءات والإشارات ، فقد برته على أداء المطالب بالاستعارة والكناية قدرة خارقة^(١) . وكمال الرمزية في أنها تبقى في حافظة السامع أو تبقى متجددة ، ولإقبال في هذه الناحية مكانة خاصة وما فعله إقبال يمكن أن يوجز فيما يلي :

«إنه لم يترك أسلوب بيان الروايات القديمة ولكن أظهر نشاط الحياة وحركتها في التكوينات القديمة المتلاشية ، كما استعمل بروعة فائقة الطرق الفنية القديمة لترجمة أفكاره الجديدة، وكان إقبال يعارض بشدة الخروج على التقسيمات العروضية قائلاً: «إننا لو خالفنا قاعدة العروض فإن قلعة الشعر تنهدم، وعلى الشعراء الحاليين أن يتبعوا أسلوب التعمير وليس التخريب»^(٢) .

وبينما يرى الأستاذ سيد عبدالواحد أن النزعة العامة لإقبال هي في اتجاه الرمزية فإن د . يوسف حسين يرى أنها في اتجاه الرومانسية التي كانت في الأصل رد فعل للفلسفة العقلية التي كانت نتيجة طبيعية للضعف في الحياة ، فبدأ النظم خالياً تماماً من كل جاذبية ويستمر د . يوسف حسين مشيراً إلى أن إقبالاً أيضاً مثل جوته مزج بين الرومانسية والكلاسيكية ، ولم يكن أبداً يغمض عينيه عن قواعد اللغة والأدب المسلم بها وحتى لفظ " قلندر " قد استخدمه استخدماً رمزياً ورومانسياً^(٣) ، وإقبال في نظر مجتبي مينيوي " من أصحاب الألم الرومانسيين " ، وهو يريد أن يحرك ويشير

(١) د . يوسف حسين ، روح إقبال ص ١٣٨ .

(٢) إقبال نامه ص ٢٨ .

(٣) د . يوسف حسين . روح إقبال ص ١٣٨ .

الشوق والرغبة في قلوب الآخرين، وهو يخالف أولئك الشعراء الذين لا يحملون الماء، والذين لا يتأثرون بعذاب الآخرين^(١) إلا أن ما هو جدير بالذكر أن إقبالاً لم يكن رومانتيكياً في معانيه تلك المعاني التي روجها كل من هيغل وشوبنهاور وفيشته وغيرهم من أصحاب المذهب الرومانسي^(٢).

د - رسالة شعر إقبال

أولاً: الدعوة إلى الجد والجهد:

يدعو إقبال إلى الجد والجهد ويرى أن المصائب والآلام في حياة الإنسان ما هي إلا أشياء اعتبارية وتحملها من أكثر البواعث على بلوغ الإنسان الكمال المنشود. يقول:

«يا من جلست على الساحل جلسة القناعة والهدوء
انهض لأنه لا يزال لك عمل مع الدردور والتمساح»
«اخرج من عزلة البرعم مثل الشذي
وامتزج مع نسيم السحر وتعلم الهبوب».

ثانياً: الدعوة إلى استمرار الجهاد:

الإخلاق إلى الراحة والدعة مرادف للموت لذا لا ينبغي للإنسان أن يكتفي بحالة واحدة ويرضي بما هو فيه ما دامت الأبواب مفتوحة فالحياة هي الحركة الدائمة والجهاد المستمر.

«لو كان يومك هذا تكرر لأمسك فليس في ترابك شرارة الحياة»

وهو يشترط أن يقترن الجد المستمر بالعلم لأن مفتاح المحاسن ذلك العلم الذي يقوي العزيمة ولا يكون مجرداً عن الروحانية.

(١) مجتبي مينيوي. إقبال لاهوري ص ٣٢.

(٢) إقبال رويو سنة ١٩٦٢ يونيو.

ثالثاً: التعميم:

من معالم رسالة شعر إقبال التعميم. فرسالته لا تخص طبقة دون طبقة بل تشمل الجنس البشري بأجمعه، وتسعى لتحويل العالم الإنساني كله إلى كتلة واحد:

«إن التمييز الجنسي والقانوني قد أباد الشعوب

فهل يعرف أهل وطني ذلك ويفكرون فيه

فلا يكون لساني مقيدا بلون خاص

فليكن البشر شعبي والعالم وطني».

وهو يرى أنه ليس في العالم نظام اجتماعي يضمن حرية الفرد التامة كما يضمنها النظام الاجتماعي الإسلامي.

رابعاً: الاعتماد على النفس:

إن أكبر داء الشرق عامة والمسلمين خاصة فقدان عزة النفس وضياع علو الهمة

يقول إقبال:

«اعرف حقيقتك أيها الزارع

لأنك أنت الحب وأنت المزرعة وأنت الماء وأنت المحصول

هل يرتعش قلبك من خوف الطوفان

مع أنك أنت الربان وأنت البحر وأنت السفينة وأنت الساحل

وأأسفاه على جهلك لأنك أصبحت محتاجاً إلى الساقى

مع أنك أنت الخمر وأنت الدن وأنت الساقى وأنت المحفل».

خامساً: الدعوة إلى محاربة الجمود:

لكل زمن مقتضياته وضروراته والزمن يتغير فمقتضياته وضروراته أيضاً تتغير

ومن هنا فالجمود من أكبر العوائق في سبيل التقدم الإنساني :

«أهدم القديم وأقدم على بناء الجديد

فإن كل من بقي في مشكلة "لا" لم يصل إلى "إلا"

غير العالم بكل نفس تُخرجه، وامنض في هذا الرباط القديم كالزمن^(١).

سادساً: الدعوة إلى غرس الذاتية وتربيتها:

وهذا هو موضوع فلسفته الخاصة، بسط مبادئها في جميع دواوينه وعلى الأخص الأسرار والرموز، وقد سبق الحديث عن هذا.

هـ - أثر الأدب العربي في أدب إقبال

لو قرأ إنسان أدب الرومي ونيتشه وبرجسون وفيشته والجيلي والفلسفة الإسلامية، والفلسفة الهندية القديمة والفلسفة الأوربية الحديثة وما كتبه الشعراء الألمان والإيطاليين والإنجليز، وكذلك الغزل الفارسي والغزل الأردني، ثم قرأ شعر إقبال فإنه يحس أن إقبالاً قرأ كل هذه الأشياء وتأثر بها إلا أن الأدب العربي الذي يعد عنصراً هاماً جداً عند إقبال قد تجاهله الكثيرون.

والأثر الذي تركه الشعراء العرب في الشعراء الإيرانيين لا يحتاج إلى بيان، وعن طريق الفارسية انتقل هذا الأثر إلى الأردية بل على حد قول المستشرق الأسباني فارسياغوس إن مضامين وأفكار الشعراء العرب قد تركت أثرها الواضح على كل الشعراء المسلمين، ويقول هذا المستشرق: «إن حياة العرب تقوم على السفر والترحال. فهم اليوم هنا، وغداً هناك بحثاً عن رزق جديد وعيون الماء، وعن المروج والمراعي الجديدة، وقد ترك هذا في شعرائهم أثره فظهر لديهم: فراق الأحبة، فرقة الطريق، القوافل العابرة...»^(٢) الخ.

وانتقل كل هذا إلى شعراء المسلمين، وتأثر إقبال بالأدب العربي، وقرأ العربية

(١) المقتطف فبراير ١٩٣٨.

(٢) إقبال ريوبيو يولية ١٩٦٨ م.

عن طريق سيد مير حسن ، وقد أشار إلى هذا عبدالقادر^(١) ، فأقبال تعلم الفارسية وأجادها ولاشك في هذا لكن الحق يقال إن العربية قد تغلغت كثيراً في روحه فالعربية متعلقة بالعرب ، والعرب أعزاء عليه وقد خلق هذا نصيباً من الحب في عقله وقلبه مما أثر على بيئته الذهنية . ومن يدري فقد تكون حركة تسلسل الحياة في الجزيرة العربية وما فيها من حركة دائمة ثابتة هي العامل المهم الأساسي في بناء النظام الفكري العام لإقبال ، ومن هنا كان لكل من إقبال وطاغور طريقاً منفصلاً فالإثنان يرجعان إلى أصل واحد كما أنه ليس هناك أي فرق بينهما سواء في التاريخ السياسي أو الطبيعة الجغرافية لكل منهما إلا أن الجغرافية الذهنية والتاريخ الفكري قد تغير فورث أحدهم فلسفة السكون والآخر فلسفة الحركة إلا أن هذا الارتقاء الفكري عند إقبال كان تدريجياً ففي الجزئين الأولين من بانك درا نرى قلة التأثيرات العربية والإسلامية . وبعد العودة من أوروبا تغير الخط الفكري فترجع عن القومية ، واتجه إلى الأمة ، وقد بدا هذا في الجزء الثالث من بانك درا ، وفي أسرار خودي ثم ظهر هذا جلياً في أرمان حجاز .

والأثر العربي في كلام إقبال يظهر بطرق مختلفة فبعض الكلام واضح وصريح وبعضه بالإشارة والتلميح والبعض الآخر في الصور الخيالية وهو يقول بصراحة : إن العرب هم مؤسسو التمدن والنظم الأخلاقية ، وبيّن إقبال أن العرب ساكني الصحراء ، هم فاتحوا العالم والمحافظون عليه وهم زينة العالم ، وفي القصص التي استوحاها إقبال من القرآن والحديث ونظمها في شعره تأثر فيها إلى حد كبير ببعض عناصر الأدب العربي ، ويتضح هذا في بانك درا حين نظم قصة الخضر فيجعلنا نشعر ، ونحس بأصوات الرحيل في الصحراء ، وقيظ الرمال والقوافل تلقي رحالها حول ماء العيون كما نرى امتزاج روح الإسلام الصافية ، والشعر العربي السلسل ، كذلك مناظر النخيل في الصحراء والواحات تلك التي لم يشاهدها إقبال بعينه ، فبعد مؤتمر المائدة المستديرة وفي أثناء عودته فإنه مر بالقاهرة وبيت المقدس أما ما

(١) مقدمة بانك درا . ط كراچي .

ذكره عن صحراء العرب فقد كان من بنات خياله ، ولقد أوحى كلمة النخيل وبيت المقدس لإقبال أن ينشد نظمه الشهير بـ " ذوق وشوق " حيث يذكر جبل أضرم حيث تقع مكة في واديه كما يذكر الكاظمة التي كان يطلقها العرب على منزل الحبيب يقول الشاعر العربي :

ألم يبلغك ما فعلت ظباه بكாظمة غداة لقيت عمرا

كما أشار الإمام البوصيري إلى المدينة المنورة بكلمة كاظمة :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة أو أومض البرق في الظلماء من أضرم

وعن جبل أضرم يقول الشاعر :

بانت سعاد وأمسى حبلها الصرما واحتلت الغور والأجرع من أضما

وحين تطالع آثار إقبال الشعرية نرى هذه التأثيرات العربية واضحة . فقد بدأ يستخدم القافلة ، والزمام ، والمقام ، والسبيل ، والخيمة ، والنخل ، والنخيل ، وغيرها من الكلمات العربية وسوف يأتي ذكر هذا تفصيلا .

وهو في " مسجد قرطبة " يخاطب المسجد على طريقة الشعر العربي ومع أنه أنشد هذه القصيدة في إسبانيا لكنه ساح في فضاء إسبانيا بذهن عربي ، ولهذا ظهر النظم بمزاج عربي . فهو يشبه أعمدة المسجد بهجوم النخيل ، نخيل صحراء الشام ، وقد اختار صحراء الشام خاصة لمناسبتها لهذا المقام فمن الشام كان عبدالرحمن الناصر باني المسجد ، ومثل هذه الأشعار أيضا نجدها في بال جبريل ، وكذلك في جاويد نامة نرى هذا التأثير حين يخاطب المهدي الهادي فيتحدث إقبال عن الناقة وعن السبيل والصحراء وأوراق النخيل ، كما أن الخلفية الأساسية لجاويد نامة عربية الأصل ، وهو يشدنا إلى كتاب أبي العلاء المعري " رسالة الغفران " وهو عن السير في الأفلاك ووصف مناظر الجنة حيث يلتقي بعدة شعراء من شعراء الجاهلية الذين لم يروا عهد الإسلام ويتساءل الشاعر :

«لقد رحلتهم قبل أن تروا نور الإسلام فلماذا لا تذهبون إلى الجنة» ويلتقي بالشعراء واحداً واحداً فيقدم كل منهم حججه وبراهينه .

وكان أبو العلاء المعري متشككا حتى نفر منه أهل الدين المتمسكين بعقيدتهم وبعد المعري جاء محي الدين بن العربي بكتابه الفتوحات المكية حيث تتبع نفس الطريقة من حيث السير في الأفلاك ، ولقد تأثر دانتي بالفتوحات المكية ، وأشار إقبال إلى هذا في أكثر من موضع ، وكذلك أشار جوستاف لوبون إلى الأثر الذي أخذته دانتي من ابن العربي^(١) كما يوجد في جاويد نامه الطواسين الأربعة : طاسين جوته ، طاسين زرتشت ، طاسين المسيح ، وطاسين محمد ويبدو أن هذا من تأثير كتاب الطواسين للحلاج .

ويذكر إقبال من الشعراء العرب ، العتبي - المعري - عمرو بن كلثوم - البوصيري - كعب بن نصير - زهير بن أبي سلمى - امرؤ القيس وغيرهم ففي أرمان حجاز ضمن في شعره بيت عمرو بن كلثوم :

صبت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

اكر اين است رسم دوست داري بديوار حرم زن جام ومينا

وإقبال يستخدم في شعره قنديل الرهبان الذي استخدمه شعراء العرب فامرؤ القيس يقول :

تضيء الظلام بالعشي كأنها منارة ممسٍ راهب متبتل

تأثر إقبال بهذا وقال :

إن ليل هذا الجبل والوادي صدر مظلم ليس فيه طائر ولا موج ماء

صار مضيئا من قنديل الراهب حتى كأنك تظن أنه الشمس

وفي " پس چه بايد كرد أي أقوام شرق " ينصح العرب بالتخلص من عبودية الإفريغ :

(١) إقبال ريويو يولية ١٩٦١ .

لو أردت النجاة من خداعه فابعد جماله عن حوضك
 وقد قال زهير بن أبي سلمى في معلقته :
 ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم
 كما نجد في أسرار خودي تأثير شعر البوصيري، وأشار إقبال نفسه إلى هذا،
 يخاطب إقبال مسجد قرطبة قائلاً :

جلالك وجمالك دليل على الإنسان الرباني

فإنك جميل وجليل وهو أيضا جميل وجليل

وحين نقرأ هذا البيت نتذكر شعر عبدالرحمن الناصر باني مسجد قرطبة :

إن البناء إذا تعاضم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن
 وقال أبو فراس الحمداني :

صنائع فاق صانعها ففاقت وغرس طاب غارسها فطابا

د - الإبداع الشعري

أولاً: التجديد في التعبيرات الشعرية :

أ - الشعر الفارسي :

مظهر الجدة والابتكار شيء ملحوظ في شعر إقبال على الرغم من أنه لم يكن -
 حقيقة - ضد مقاومة التمسك بالتقاليد فهو يستخدم كلمات خاصة واصطلاحات
 ليحبر عن أفكاره الأصلية، بعض هذه الاصطلاحات ابتكرها هو وبعضها
 استخرجها من القديم فأحالتها إلى حالة جديدة تماما، وعبارات إقبال أيضا تمثل حجر
 الأساس لقنطرة الإلهام الشعري ولأن نزع حجر الأساس يسبب السقوط المفاجيء
 للقنطرة الداخلية لذا فلو حاولنا استبدال الكلمة الأساسية أو الاصطلاح الأساسي
 بآخر فإن التعبير الفني ينهار والتعبير بالنسبة للتجربة الشعرية يعتمد على الكلمات

والمصطلحات التي تشكل جوهر الفكرة ذاتها وعلى سبيل المثال فإن كلمة
"قلندرانه" هي المحور الذي يرتكز عليه سحر هذا البيت :

مررت " بالبيت " من الخارج لكنني ذكرت كل ما في البيت
كيف أن قلندراً مثلي قال ما لم يُقل من قبل ^(١) !

فكلمة قلندر عند إقبال ترمز إلى الرجل الذي يتحدى التقاليد والشكليات
وإقبال يجعل هذا البوهيمي ممثلاً في الناظر الذي يمكن أن يعرف أسرار البيت دون
الدخول فيه وتعبيره هذا يفرض بنفسه وزنه وأهميته، هذا من ناحية الفكرة إلا أن
كلمة قلندرانه تعطي سحراً جديداً وتهب الشعر حياة حقيقية ^(٢). وكانت أمنية
الأستاذ سيد عبدالواحد أن يقوم الدارسون بتحقيق هذا الكلمات، وقد تحققت
أمنيته أخيراً، ومن بين من بحثوا في هذا الأستاذ محييط طباطبائي، ونشر بحثه في
كتاب بالأردية بعنوان: "إقبال إيرانيون كى نظر مين" (إقبال في نظر الإيرانيين)،
والدكتور سيد محمد يوسف ونشر بحثه في مجلة إقبال يناير ١٩٦١، والأستاذ
ماهر عبدالقادر ونشر بحثه في نفس المجلة عدد يوليه ١٩٦١ كما أن الدكتور يوسف
حسين تحدث عن هذا بإسهاب في كتابه "روح إقبال". وسوف أكون هنا موجزا
حين أتعرض لهذا الموضوع إذ إنه يحتاج بنفسه إلى بحثه خاص.

يرى الأدباء الإيرانيون أن من ألم وأحاط بنظم ونثر سعدي وشعر حافظ يرى
آثار الغرابة في التعبير حين ينظر إلى كلام إقبال من الناحية النقدية، كما يرى
المضمون المهم والتعقيد اللفظي والمعنوي، ويعتقد أن هذا كان نتيجة لاختلاف
الأسلوب الشعري الناتج عن عدم سيطرة الشاعر على اللغة الفارسية، هذا بينما من
وجهة نظر بعض النقاد من التركستان وأفغانستان والهنود أن البديع في شعر إقبال
رائع وأحلى من الشهد. على حد ما يقولون. إلا أن هذه التعبيرات الجديدة التي
يعدها القاريء الإيراني ضعفا في التأليف أو غموضاً في المعنى أو تجديداً في

(١) زبرون در گذشتم زدرون خانه گفتم سخنے نگفته را چه قلندرانه گفتم.

(٢) S. A. Wahid: Iqbal p. 132

الأسلوب إنما هي كلها مبنية على أصول البلاغة القديمة التي بقيت ودامت في شعر كل من قدسي وصائب وبيدل وشوكت وغني وغالب، والعلماء الهنود قد جمعوا في كتبهم اللغوية هذه الألفاظ والمصطلحات التي هجرت في إيران الآن إلا أنها بقيت رائجة في القرون الماضية في الهند وأفغانستان وتاجيكستان وبخارى وسمرقند وكثيراً ما استشهد الشعراء في مجالسهم الأدبية بكلام صائب وكليم ونظيري وعرفي، ويبدو أن سبب هذا الاختلاف في استعمال الألفاظ والتعبيرات بين شرق إيران وغربها هو انقطاع الصلة بين اللغة الفارسية في الهند وإيران، لكن الحقيقة أن اللغة الفارسية نفسها قد تعرضت للتغيير منذ حوالي ٢٠٠ سنة في إيران. وبعد موت نادر شاه اضطربت الأحوال في الهند وانقطع آخر حبل يصل الأدب في كل من البلدين، ومن هنا اضطرت الناس للزحف إلى بلاط الهند أو بلاط إيران طلباً للشهرة والجاه، واتخذ كل منهم مقره في أحد البلدين ونتيجة لذلك انقطعت سلسلة الشعر والنثر التي ظلت متصلة بين البلدين مئات من السنين، فقلد شعراء الهند أسلوب وبيان شعراء العهد الصفوي، فقتبعوا صائب وبيدل وفيضي وكليم وقدسي بينما حدث العكس في إيران فترك الشعراء أسلوب العهد الصفوي والهندي، بل إنه مع بداية عهد كريم خان بدأت ثورة على سياق الكلام الهندي^(١) بين شعراء أصفهان واتجه الشعراء بعد ذلك إلى شعر ما قبل العهد المغولي.

وعارض "هاتف" و"آذر" و"مشتاق" و"عاشق" و"رفيق" أسلوب الشعر الهندي، وبعد ذلك نقل "نشاط" و"مجمر" و"حبا" هذه المعارضة من أصفهان إلى طوران. ونتيجة لذلك أغمض شعراء العهد القاجاري عيونهم مرة واحدة تاركين أسلوب شعراء العهد الصفوي وبدأوا في تقليد كلام المتقدمين. واتخذ شعراء العصر القاجاري أسلوب الشعر الفارسي للعهد الساماني والغزنوي والسلجوقي أساساً لهم فقلدوا الفرخي والعنصري ومسعود وسنائي. وشيء جدير بالذكر هنا أيضاً وهو إدراج الترجمات الأوربية إلى الفارسية ثم ما كان له من تأثير

(١) السبك الهندي.

على طريقة البيان والأسلوب الذي ينتج عن درايتهم واطلاعهم على اللغات الأجنبية للشعراء المعاصرين فحدث التغيير في الأسلوب . ولم يكن هذا من نصيب شعراء الفارسية بالهند .

كان هذا بإيجاز هو سبب وجود التفاوت بين الأسلوب الأدبي لشعراء إيران المعاصرين والشعراء الهنود .

يقول الأستاذ محيط طباطبائي : « ولقد اعتبر المرحوم وحيد دستگردي هذا التفاوت في طريقة البيان نقصاً في شعر شعراء الهند ، وقد دارت بيننا مناقشة حول إقبال فقال سيادته :

« إن هذا الاتهام في المضمون والتعبيرات الفارسية الغربية التي لا تعجب بها أبداً إنما هو نتيجة لعدم الألفة والتركيز على صحة الكلام الفارسي ، وعدم تعرف الشعراء الهنود على العبارات الأخرى أو تمكنهم منها فاعتبروها كلها خطأ » ، ويستطرد قائلاً : « لكن حين يتبع الإنسان سلسلة الشعر الفارسي من أيام حكيم نظامي ليصل إلى مير خسرو وحسن دهلوي ، وبعد أن نصل كل هذا بشعر الجامي وطاهر دكني ونمد هذه السلسلة حتى طالب وكليم ومسيحا وقدسّي وصائب وفيضي . فإننا نصل إلى آثار بيدل وغني وغالب وبعد أن نطالع طريقة الفصاحة والبلاغة وكيفية استعمال الألفاظ وبيان المضمون فسوف نرى أن شعر إقبال من نفس الروضة الأدبية التي قطعت في ازدهارها هذا الشوط من الزمان ، وبعد أن نطالع ديوان بيدل وصائب ثم نطالع آثار إقبال المنظومة فإننا لا نرى في شعر إقبال أي نوع من غرابة اللفظ أو إبهام المعنى »^(١) .

وأكد هذا الرأي الأستاذ سعيد نفيسي والدكتور آقاي خطيب^(٢) .

(١) أحمد ميان اختر إقبال إيرانيون كي نظر مين . مقالة الأستاذ طباطبائي .

(٢) المرجع السابق .

ب - الشعر الأردني :

هذا من ناحية الشعر الفارسي . أما من ناحية الشعر الأردني فإن لغة إقبال في شعره الأردني صافية سلسة ، وهذه السلاسة أوجدت في فنه الحسن والجاذبية بل إن بريق ولعان إقليم البنجاب الذي نشأ فيه إقبال يظهر بوضوح في لغته وعلى لسانه ، وإقبال قدم في شعره الأردني أشعارا لشعراء إنجليز لكنه أضاف إلى موضوعاتهم أشعارا مليئة بالفكر ومن بينها بعض الموضوعات كانت اللغة الأردنية وأدبها أبعد ما تكون عنها ، وكان من الصعب عليه أن يضع المضامين الفلسفية في قالب الشعر الأردني لكن الشاعر قام بهذا مما ساعد على إثناء وتطور اللغة الأردنية ، وكانت له قدرة كاملة على اللغة الأردنية . وأوجد إقبال اصطلاحات جديدة في اللغة الأردنية تماما كما فعل في الفارسية وأثرى الأدب الأردني بما أدخله من استعارات وتشبيهات حديثة . فصور الطبيعة في شعره الأردني ونظم عن " الهملايا " وصور الفراشة والبلبل وغيرها حيث توجد قوة التصوير سواء من ناحية الخيال والفكر أو البيان والإبداع ، بالتشبيهات والاستعارات الرقيقة ، كما ترجم إقبال إلى الأردنية أشعارا من الإنجليزية في بال جبريل ترجم عن السنسكريتية من مهاكوي وغيرها بل كان يأخذ شعر كل من حافظ وغالب ويعيد خلقه من جديد ، وإذا أردنا أن نأخذ مثالا لشعره الأردني فليكن قصيدة " شكوى " وهي من منظومات الدور الأول للشاعر إلا أنها تعد من شوامخ فنه ولها وزنها في الشعر الأردني .

كما أدخل إقبال المضامين القديمة في استعمالات حديثة وذلك في الموضوعات الدينية مثل كافري ، دين داري ، پيران حرم ، مقدر ، عرش برين ، ملت بيضاء ، طواف ، حج ، زكاة ، روزه ، نماز ، أذان ، جماعت ، حرم ، توحيد ، جهاد ، يد بيضاء ، مسيح ، جمال جلال ، نور كلیم ، خليل معجزه ، وحي ، زناد ، مصحف ، جبريل وغيرها ، هذا بالإضافة إلى آلاف المصطلحات الجديدة التي استحدثها إقبال مثل : صدى خوان ، افتراق بولهي ، شيوه هائي خانقاهي ، بازيجه تأويل ، رسم وراه ، خانقهي ، سرور أزلي ، حضرت يزدان ، فطرت احرار ، قبا پوش وكلمه

داري، مجاهدانه حرارت، علم لاهوتي، شيخ كليسا، نماز بي قيام، محروم يقين، گلبانگ انا الحق، رسم شبيري، بوئي رهباني، كلیم بيتجلی، مسیح بي صلیب، فقر وراهبي وغيرها.

أما المصطلحات الفلسفية فقد استحدثها إقبال لشرح المسائل الفلسفية في أشعاره ومن بينها: معركة بود ونبود، نظام هست وبود، طلسم شش جهت، زمان ومكان، صفات ذات، حق عين ذات، حادث، قديم، قلب ونظر، عرفان، لا زماني، وحدت أفكار وکردار مشاهدة، ثبات، بقاء، فناء، نقش گر حادثات، غياب وحضور، مقام كبرياء، طلب صادق، انداز آفاقي، مقامات آه و فغان، نشاط رحيل، فكر حكيمانه، گرمي أفكار، اندیشه بي باك وغيره.

ومن بين المصطلحات السياسية: دست دولت آفرين، أعضائي مجالس، مجلس شوري، دهریت، سلطاني، سياست افرنگ، جوابگي خوئي غلامي، ملوکیت پرويز، أمير قافله وغيرها^(١).

ومن بين المصطلحات المتنوعة: لاله كاري، طلسم سامري، تقدير ام، خارا شگافي، قنديل رهباني، آهنگ، فقر غيور، ضرب كلیم، بال جبريل، شراب زندگی، حیات زندي، سرور بربط هستي، آئینه دار هستي، ذوق آگهي مست، شراب تقدير، ذوق تبسم، کشاکش پيهم، ذوق جستجو، لذت خودي، صبح دوام، زندگی جهان، ضربت روزگار، فيض شعور، تقدير حواس ذوق فردا، لذت امروز، تسخير جهات، کاروان زند، نشاط رحيل، رسم شاهبازي، طائر لاهوتي، لذت يكتائي، كوكب تقدير، سرنهاني وجود، تقاضائي وجود، آئين مكافات عمل، داغ آرزو، تقويم حیات، عيار ممكنات وغيرها.

ومن الجديد بالذكر هنا أن اللغة الفارسية كانت منبعاً رائعاً للكلمات والمصطلحات الخاصة بالتعبير عن أفكاره، ويقال إن هذا أحد الأسباب التي جعلته

(١) طاهر فاروقي، خيابان إقبال ص ٢٩٦.

نبدأ الكتابة بالفارسية^(١).

ثانياً التجديد في القوالب الشعرية :

أنواع المقاطع الشعرية المستخدمة في النظم الفارسي والأردي قياسية بشكل عام إلا أن إقبالاً نتيجة لحاجته إلى أنواع أكثر في إيقاعات النظم استحدث عدة أشكال جديدة من القطع الشعرية ، والقطعة عبارة عن قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب وقد تكون أيضاً جزءاً من قصيدة لم يقدر لها أن تكتمل كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها صاغها الشاعر من البداية ليعرض فيها غرضاً من الأغراض ، وفي كثير من الأحوال يدل أسلوب القطعة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها منذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها .

ومثال تجديد إقبال هذا نراه في منظومة " زيور " فمع اللازمة (العبارة التي تتكرر على نحو موصول في القطعة) " انهض من السبات العميق " فإنها تحتوي على قطع تتكون كل واحدة منها من ستة أبيات ، الأربعة الأولى بنفس القافية ونفس الوزن والبيت الخامس له وزن أطول والسادس له وزن أقصر وكل من البيت الخامس والسادس يتطابق في القافية مع الأبيات الأولى وتتكرر في كل قطعة^(٢).

وفي منظومة " سرود أنجم " فإن كل قطعة تتكون من خمسة أبيات ، الأربعة الأولى بنفس القافية وفي نفس الوزن لكن البيت الخامس في وزن مختلف ، ولا يتطابق في القافية مع الأبيات الأخرى . ويتكرر هذا مع نهاية كل قطعة . وفي منظومة " انقلاب " تتكون القطعة من أربعة أبيات في القطعة الأولى فإن الأبيات الأربعة الأولى تتطابق في القافية ولكن في بقية القطع فإن الثلاثة أبيات الأخيرة فقط تكون متطابقة في القافية ، والكتابة عن هذا الموضوع لا يمكن أن تستوعب كل ما جدده إقبال إلا أن هذه الإشارة كافية لإيضاح هذه الخاصية في فن إقبال الشعري ، والنغمة الختامية الملائمة لأشكال القطع الشعرية تحتاج إلى استقصاء للأسباب أكثر

(١) د. يوسف حسين . روح إقبال ص ١٤٨ .

(٢) طاهر فاروقي . خيابان إقبال .

تفصيلا من هذا، وعلى سبيل المثال في منظومة " سرور أنجم " تنساب القافية متدفقة لتبين الهدوء لا الحركات السريعة للنجوم إلا أنه في منظومة " انقلاب " نرى القافية متواتبة والنعمة الختامية متمهلة متريثة ناعمة لتصور الوصول التدريجي للثورة .

وقبل أن أترك هذا المقام أحب أن أشير إلى البحور الشعرية المحببة عند إقبال وللمتمثيل على هذا نأخذ ديواني إقبال " بانك درا " و " بال جبريل " ، فأكثر منظوماتهما في بحر الرمل المثلث المحذوف " فاعلاتن فاعلاتن فاعلن " والمنظومات الأربعة الأولى في بانك درا، هماله، كل رنگين، عهد طفلي ومرزا غالب، في هذا البحر كما أن هناك عدة منظومات من منظومات الدور الأول في هذا البحر وهي : خفتگان خاک استفسار، سيد كي لوح تربت پر، رخصت اي بزم جهان، ناله فراق وداغ، وفي الجزء الثاني من بانك درا توجد أربعة منظومات، وفي الجزء الثالث تسع عشرة منظومة في هذا البحر ومنها : شمع اور شاعر، والده مرحومه كي ياد ميس، خضر راه، وهي من المنظومات الذائعة، وكذلك منظومة " جبريل وإبليس " وهي النظم الثامن لبال جبريل .

في منظومات بال جبريل يوضح إقبال بعض جوانب فكره المليئة بالعواطف حيث يستلزم التوازن وحسن ترتيب " الأوتاد والأسباب " في أركان النظم فيخلق هذا نعمة رائعة سهلة سلسلة بتوازن الأركان وروعة الأداء مما يدفع القارئ إلى الإنسياب في التجربة الفكرية جنبا إلى جنب مع التجربة الشعرية للشاعر، ومن هنا دقق إقبال في ترتيب أركان البحر ليخلق الأداء الرائع والتوازن بالإضافة إلى النعمة والانسجام، ويعد هذا من الخصائص المشتركة لبحوره المحببة، وأعجب إقبال كثيرا ببحر الرمل المثلث المخبون المقطوع " فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن " وهذا الوزن هو وزن الكثير من الغزليات والمنظومات الشهيرة خاصة في الأردية. فبالإضافة إلى " شكوى وجواب شكوى " توجد عدة منظومات في القسم الأول والثاني والثالث لبانك درا إذ أن هذا الوزن يصلح لأداء مختلف لسلسلة الأفكار بطريقة تمتاز بدرجة كبيرة من الترنم كما أن لهذا الوزن قدرة على أداء المضامين الغزلية .

والبحر الثاني هو " المضارع المثنى الأخرى المكفوف " مفعول فاعلاتن مفاعيل فاعلن " ، وقد نظم مير وغالب غزليات في نفس البحر . ومن منظومات هذا البحر المنظومات الأربع الأولى في الجزء الأول لبانك درا : شمع وپروانه ، وأفتاب وشمع ودرد عشق . والمنظومات العشر الأولى في الجزء الثالث ومنها : محبت ، جام هند ، شبنم اور ستارے ، شبلي ، وحالي ، فردوس میں ایک مکالمہ ، پیوستہ رہ شجر سے وغيرها وبشكل عام فكل منظومات بال جبريل الصغيرة مثل " ہسپانیہ ، لینن ، فرمان خدا ، روح ارضي آدم کا استقبال کرتی ہے " . أبو العلاء معری وغيرها كل هذه في هذا البحر الذي يمتاز بسهولة وحلاوة أنغامه وتجانسها كما أنه مفعم بالقوة والحمية والهباج وسرعة نفاذه إلى القلب .

يقول في منظومه : « روح ارضي آدم کا استقبال کرتی ہے »

كھول آنكھ، زمین دیکھ، فلك دیکھ، فضاء دیکھ

افتح العين وانظر إلى الأرض ، إلى الفلك ، إلى الفضاء

وفي منظومة : " لینن في حضرة الله :

اس انفس و آفاق میں پیدا تیری آیات

یا من آیاتک ظاهرة في الأنفس والآفاق

فشطرا البيت هنا يدلان على قوة تصور الشاعر ، وهذا ناتج عن التجانس والانسجام بين مزاج البحر نفسه ، وبين حلاوة الشعر وقوة الأفكار .

وبحر المضارع المثنى الأخرى " مفعول فاعلاتن مفعول فاعلاتن " من البحور المحببة عند إقبال لأسباب بديهية فهو بحر سهل بماله من ترنم ونغمات وجميع منظومات الجزء الأول من بانگ درا في هذا البحر : ايک آرزو ، ترانه هندی ، جگنو ، هندوستانی بچوں کا قومي گيت ، كل هذه ترجمان للشاعرية الصادقة والإحساسات العظيمة لإقبال تلك التي سيطرت على بقية إحساساته في هذه الفترة .

وفي الجزء الثاني يوجد فقط نظم واحد ولا يوجد أي نظم آخر في بال جبريل في هذا البحر، والسبب هو أن هذا البحر لم يكن ليترك ذهن إقبال في زمان إقامته في أوربا لأنه كان سيبعده عن المتانة الفكرية التي هي من الخصائص الشعرية لبال جبريل، ومما يؤكد ذلك اختياره لبحر آخر وهو الهزج المثنون "مفاعلين مفاعلين مفاعلين مفاعلين" وهو غنائي إلى درجة كبيرة، كما أن سلامة أركانه تتيح للشاعر فرصة ترتيب ألفاظه لتتطابق مختلف صورته المحببة لديه بالإضافة إلى خلق الأثر الغنائي المؤثر وحين تظهر التأثيرات الرومانسية؛ فهذا هو البحر المطلوب أما حين يسيطر الفكر، كما هو الحال في بال جبريل فيكون الابتعاد عن هذا البحر والفكرة هي أن إقبالاً كان يستخدم البحور في منظوماته متطابقة ومنسجمة مع تطوره الفكري^(١).

ثالثاً: التجديد في الخيال:

الخيال هو المهوبة الطبيعية الخاصة بالشعراء فخيال الشاعر من ناحية يعبر عن الفكرة العقلية والروحية في شكل معين، ومن ناحية أخرى عن المعنى الأسمى الذي يراه. ومن هنا فإن كل الشعراء بالضرورة يمتلكون الخيال والفرق بينهم هو - فقط - في مسألة الدرجة وإقبال كفنان قد وهب أسمى القوى التخيلية سواء في ابتداء المعاني أو الأفكار تماماً مثل التأويل والتفسير؛ فالشعراء في جميع اللغات قد كتبوا عن "الوحدة" لكن معالجة إقبال لهذا الموضوع مملوءة بمثل هذا العنصر المثير للشفقة الذي لا يخطيء أبداً في تحريك العاطفة الحية في أي قارئ وفي إثارتها:

«ذهبت إلى شاطئ البحر وقلت للموج المضطرب

إنك دائماً في احتياج فأني مشكلة لديك؟!

توجد آلاف اللآليء اللامعة في جيبيك

لكن هل تملك مثلي جوهر القلب في صدرك؟

اضطرب وهرب بعيداً عن الشاطيء ولم يقل شيئاً

(١) طاهر فاروقي . خيابان اقبال ص ٣٦١ .

وأخذت نفسي إلى حضرة الله ومررت بالشمس والقمر - وقلت :
لا توجد ذرة في دنياك تعرفني
العالم خال من القلب وقبضة غباري هذه هي كل القلب
إن الروضة جذابة لكنها لا تناسب أغنيتي
جاءت الابتسامة على شفتيه لكنه لم ينطق بشيء .»

فالخيال متنوع مما يخدم في تقوية التأثير العاطفي المركز، وانسجام الأفكار مع
الخيال واضح عن طريق حقيقة مفادها أنها جميعها ناتجة عن نفس الشعور الكامن
في الشاعر، لكن الخيال التفسيري الذي تفوق فيه إقبال، له قيمة ومغزى روحي
فهو يقدم موضوعه عن طريق تقديم صفات تكمن فيها القيمة الروحية وعلى سبيل
المثال يقول في قطعة بعنوان " الندى " :

«في قميص الزهر الجميل توجد إبرة الشوكة
مع أن هناك شوكاً إلا أنه محروس من الرفقاء
مع كل هذا العشق المسعور
هو في حزن الصديق
ووجوده من الربيع^(١) .»

فعن طريق عرض صفات الشوكة، يثير الشاعر في الإنسان الشجاعة التي تمكنه
من مواجهة الصعاب وآلام الحياة، وفوق هذا فإن الحياة تكون ناقصة دون ذلك .
والعلاقة بين الخيال والعاطفة علاقة متلاصقة جداً، ولذا فإن العاطفة العميقة
ترقق الخيال، والمنظر الخيالي يرقق العاطفة، ومن هنا فإن الدرجة العالية للخيال

(١) دربه رهن شاهد گل سوزن خار است خار است وليکن زند بمان نگار است

از عشق تراست

در پهلو يار است

اين هم ز بهار است

تتطابق عامة مع تطور العواطف وأن قوة المخيلة العالية عند إقبال تدل على أن عواطفه عميقة لكنها سليمة ومضبوطة .

رابعاً: معالجته للطبيعة :

ترك إقبال كمية ضخمة من الأشعار في وصف الطبيعة، ومن الملامح الرئيسية لفن الشعر عند إقبال حبه الجارف الواسع للطبيعة وهو يتصور كل موضوعات الطبيعة كأشياء تعيش مثلنا ومعالجته للطبيعة هو أساساً معالجة موضوعية والطبيعة دائماً يقدمها بمشاعره الشخصية ، يصف الربيع فيقول :

«انهض فالربيع قد حل على الجبل والوادي

والهزار يغني متشياً

والطوطي والدراج

وعلى شواطئ الجداول

ظهرت الورود وشقائق النعمان

اخرج وتفرج

فالربيع قد حل على الجبل والوادي»^(١).

فوصف الربيع هنا ليس فقط ساحر وفتان بل إنه أيضا يمثل صورة مصغرة لرسالة إقبال: استيقظ، انهض، اعملن، تحرك، ليس هناك وقت لأن تبقى ساكناً فتأثير الربيع هو منهج الحياة والحيوية لكل شيء فحين نقرأ الشعر نشعر بوجودنا يخفق بالحياة . وبصرف النظر عن هذه المعالجة فإن إقبالاً يستخدم الطبيعة بتأثير عجيب فيما يمزجه من مجاز واستعارة وتشبيه وهو يستخدمها كخلفية لشعره فهي تمد بأسباب الحياة، وتقدم عن طريق الكناية المحتوى الداخلي لرسالة شعره . ومن أمثلة ذلك :

(١) S. A. Wahid: Iqbal p. 127

(ساقبي نامہ):

«السماء الزرقاء والهواء في سرور
 خرجت من أوكارها الطيور
 النهر يزحف تحت الجبل
 قادماً كالظافر ينساب متهادياً
 انظر إليه يقفز إلى أعلى أو يتقطع أمام الصخور
 ثم يخرج مندفعاً بالمنحنيات والملتويات
 فقط انظر قليلاً أيها الساقبي ذو الوجه المضيء
 كيف يُبلِّغ هذا النهر رسالة الحياة»^(۱).

ففي مقابل استخدام الطبيعة كخلفية فإن الشاعر يبلغ فلسفته عن الحياة بتلك القصة الرمزية التي ساقها عن نهر الجبل، فتماماً مثل النهر الذي يتقدم بثبات رغم كل العوائق ينبغي على الإنسان أن يطور شخصيته عن طريق السمو والارتفاع في حياته.

وتفوق إقبال أيضاً في وصف مشاهد الطبيعة، وهذا الشعر الموضوعي التصويري يغلب على منظوماته المبكرة، وعن طريق المثالية الفنية كان يجعلنا نرى جمالاً كنا نمر به دون أن نعيه التفاتاً، يصف منظر أريفيا فيقول:

«الخضرة على طول الجانبين

ماء النهر الصافي يجعل المنظر رائعاً

(۱) فضا نیلی نیلی هوا میں سرور
 وہ جوہے کہستان اچکتی ہوئی
 اچھلتی پھسلتی سنبھلتی ہوئی
 ذرا دیکھ لے ساقی، لالہ فام

تھرتے نہیں آشیان میں طيور
 اٹکتی لچکتی سرکتی ہوئی
 بڑے بیچ کھا کر نکتی ہوئی
 سناتی ہے بہ زندگي کا پیام

منظر الجبال رائع جذاب
 وهذا الماء يرتفع ليراه الموج
 الأغصان المملوءة بالورود تتدلى على الماء
 كحسنا تنظر في المرأة
 والنهر يتساقط حتى تقوم
 الأزهار بالوضوء
 أما أنا فوضوئي سوف يكون بالدموع
 ودعائي بالانتحاب والعويل»^(۱).

فمثل هذا الشعر - بصورة عامة - شعر موضوعي "غير ذاتي" إلا أن هذا الوصف عند إقبال تشوبه اللاموضوعية والميزة الرئيسية لهذا الشعر الوصفي تكمن في أن إقبالا يجعلنا نشعر بأننا في قلب المنظر نفسه كما أن الأثر يزداد نتيجة للمحافظة على روح الوصف.

وليس من الممكن أن أعرض هنا، عرضاً شاملاً وكاملاً، معالجة إقبال للطبيعة إلا أنه يجب أن يشار إلى دقة الوصف التي تميز بها إقبال وعلى سبيل المثال هذا الوصف لاقتراب الخريف:

(۱) صف باندهے دونوں جانب بوئے کھڑے ہوئے ہوں
 ندي کا صاف پانی تصویر لے رہا ہو
 ہو دلفریب ایسا کھسار کا نظارہ
 پانی بھی موج بن کر اٹھ اٹھ کے دیکھتا ہو
 پانی کو جھو رہی ہو جھک جھک کے گل کی تھنی
 جیسے حسین کونی آئینہ دیکھتا ہو
 پھولوں کو آئے جس دم شبنم وضو کرانے
 رونا مرا وضو ہو نالہ مری دعا ہو

«إن بتلات الأزهار تتساقط في الخريف

كما تتساقط اللعب الملونة من يد طفل يغفو»^(١).

خامساً: البلاغة والفصاحة:

من أهم الخصائص المشاهدة في شعر إقبال بلاغته وفصاحته المملوءة بالعاطفة الواضحة الجليلة دون مجهود، فهو في هذا يصل إلى قمة علوية، بالإضافة إلى الاتساق اللحني في اللغة مهما كان الموضوع الذي يطرقه، ونشاهد نفس تدفق الأفكار المغلفة باللغة الجميلة بحيث يجد الفرد صعوبة في أن يفرق: هل هذا هو روعة الفكر نفسه أم روعة التعبير؟ أي منهما مصدر البهجة والروعة؟ وبصرف النظر عن القيمة العظيمة لفكره فإن شعر إقبال نال الشهرة نتيجة للألفاظ المتقاة والخيال الحي المشرق المفعم بالحيوية، فقد نجح إقبال نجاحاً ملحوظاً في إعطاء فلسفته أداء شعرياً، وقوة وجدة خياله تعتبر مآثره لفصاحته وبلاغته الفريدة، بالإضافة إلى الجرس الموسيقي وقد قرر أحد أصدقاء إقبال أن إقبالا كان حين ترد عليه حالة التأليف فإن تدفق الشعر يبدو متواصلاً مستمراً. وهذه التلقائية كانت نتيجة لسجيته الشعرية^(٢).

ويقول د. يوسف حسين: إن كلام إقبال يمثل أمام أعيننا جوهر البلاغة في المعاني والألفاظ فقد قدم الصور المجردة بروعة فائقة في قالب الحياة والحركة، واختيار شكل الاستعارة لأفكاره، وصوره المحسوسة؛ فكثير من الشعراء كتبوا الكثير من الأشعار فيما يتعلق بزوال الحسن إلا أن إقبالا قد كشف النقاب في منظومته "حقيقت حسن" عن الجوهر الأبدي للكائنات بطريقة نادرة فريدة التي تعد من ناحية المحاسن اللفظية والمعنوية من أحسن منظوماته:

«سأل الجمال الله ذات يوم:

(١) بيتان بهولور كي گرتني هيس خزال مين اس طرح

دست طفل خفته سے رنگین کھلونے جس طرح

S. A. Wahid: Iqbal p. 133. (٢)

لماذا لم تخلدني في هذه الدنيا؟!
 فأجاب الله : هذه الدنيا كالم رسم
 إنها أسطورة ليل العدم الطويل
 ولأن هذه الدنيا خلقت من ألوان التغير
 فالجميل هو ذلك الشيء الذي حقيقته الزوال
 كان القمر في مكان قريب فسمع هذه المحادثة
 وأشاع هذا بين الفلك وسمعتة نجمة السحر
 وبعد أن سمعت نجمة السحر هذا الكلام
 قالت للندی، فعرف كاتم أسرار الأرض كلام الفلك
 فترقت الدموع في الأزهار من رسالة الندى
 ودمى قلب البرعم الصغير من الغم
 وذهب الربيع من البستان باكيا
 والشباب الذي جاء منشرحاً خرج متألماً^(١).

كم هو رائع المصراع الأخير : « والشباب الذي جاء منشرحاً خرج متألماً ». فالشاعر يشير في هذا النظم إلى أن الحياة خاضعة للتغير والتبدل، وكذلك الحسن والشباب أيضا لا يستغني عن التغير. وهذا ناتج عن تصور إقبال لحقيقة الذات المتعلقة بالزمان فالذات عبارة عن التغير الدائم، والتغير المليء بأسرار العمل قابل للحدوث في الزمان لكنه يبقى في الداخل إلى الأبد، لأنه يكون فيما فوق الزمان، وبسبب التغير تنال الذات سموها.

ولإقبال أيضا منزلة كبيرة في التصور الأدبي فهو يقدم الأشياء التي لا حياة فيها في شكل محسوس حتى تظنها، وقد دبت فيها الروح، ومثال هذا نراه في "بزم

(١) من ديوان باب جبريل، "حقيقت حسن".

أنجم* فهو يتحدث عن غروب الشمس وأحاديث النجوم بقدر بليغ من التشبيهات الرائعة، والذوق الأدبي الرفيع^(١).

وفي شعر إقبال نماذج عمدة للصور الشعرية يضع فيها الحياة الساكنة، وهي تتوق إلى الاضطراب والنشاط، وما ذكرته سابقا من شعره في وصفه للخضرة والربيع يعبر عن خيال رائع لم يطرقه أحد من قبل كما أنه في عرضه للمنظر يعطي صورة الفطرة من سرّ الألفاظ وفي منظومته "كشمير" نظم شعرا جسده الحقيقة أمام العين فاستعمل بدقة الوزن والبحر المناسب للمضمون. يقول إقبال:

«القي بالقدم في كشمير وانظر الجبل والتل والوادي والمدفن

انظر الحشائش الخضراء هنا وهناك وانظر الحدائق المملوءة بشقائق النعمان . . .

واستنشق نسيم الربيع في موجة إثر أخرى، ولتري الطيور في جماعات . . .

انظر إلى الحمام، وإلى الزرزور أزواجا على أشجار الموز . . .

نبتت شقائق النعمان من الأرض، والموج يلعب على وجه النهر

انظر إلى التراب وقد مليء بالشرر، وانظر إلى الماء يتكسر من موجه

انظر إلى الفتاة البرهمية الصغيرة . . شقائق النعمان في وجنتيها والصدر فضي . . .

افتح العين على جمال وجهها ثم انظر إلى نفسك» .

وفي أثناء تجواله في أفغانستان كتب أشعاراً في مدح قندهار بأسلوب غاية في

الرصانة والإحكام وهو يصف الربيع:

«رنگها بوها هواها آبها

آبها تايدده چون سيمابها

لالهها در خلوت كهسارها

نارها يخ بسته اندر نارها»

(١) د. يوسف حسين، روح اقبال ص ١٥٢.

«الألوان، الروائح، الهواء، والمياه

المياه تبرق بلمع السيوف

شقائق النعمان في خلوة الجبال

النيران تداخلت مع الثلوج المترامية» .

فصوت الهاء لم يستعمله الشاعر ليضبط الوزن فقط لكن صوت الهاء يظهر الهيبة والروعة، ولنرى الفرق بين وصفه لكشمير ووصفه لقندهار، لنقدر كمال شعره، الذي يعد ترجماناً لمدى صحة سيطرة الفطرة، وهذا الوجدان الشعري إنما هو في الواقع روح البلاغة^(١).

ولا أريد أن أطيل بل يكفي أن أنقل قول د. يوسف حسين: «إن إقبالاً ملك التشبيه ولو أردنا مثلاً لذلك فلنقرأ منظومته "جگنو" (اليراعة)، وكذلك "بزم أنجم". وقد استخدم إقبال في الاستعارة والكناية ألفاظاً خاصة للقادة السياسيين مثل: خاك باز، مور ومگس، إبليس كي فرزند، وارث جنگيز وپرويز .

(١) د. يوسف حسين، روح إقبال ص ١٥٢ - ١٥٣ .

٢ - الاتماط الشعرية التي نظم فيها إقبال

أ - الشعر الغزلي

الغزل هو الشعر في قمته ، الشعر في عاطفته وانفعالاته ، الشعر في أنقى أشكاله ، يتغنى بالعواطف التي تعبر عن الحياة الحقيقية للحب والخوف والفرح والغضب والأمل والإخلاص . فالشعر الغزلي حتى ما أخرجته اللغات الأوربية يتقاسم بدرجة كبيرة الخصائص الرئيسية للغزل وهي الأنغام والتلقائية ، وقد أبدع شعراء الأردية والفارسية غزلياتهم إلا أن كثيراً منها لم تكن فيها وحدة الموضوع لأن الشاعر لا يقصر نفسه على عاطفة واحدة . وقد أشار إقبال إلى الافتقار إلى هذه الوحدة قائلاً : « إن فراشة خيال الأدب الفارسي نصف ثملة لأنها تنتقل من زهرة إلى زهرة ويبدو أنها عاجزة عن مراجعة الحديقة ككل ولهذا السبب فإن أعمق الأفكار والعواطف في الأشعار يتم التعبير عنه بطريقة مفككة منفصلة في الغزل الذي يهب الرقة واللفظ إلى روح الفنان»^(١) . لكن شبلي نعماني يرى أن هذا من أعظم ما يمكن أن يحققه شاعر حين يكون قادراً على أن يعبر عن عاطفة ما ببيت واحد من الشعر^(٢) . ويمكن أن يكون قول شبلي هذا ناتجاً عن تأثره بالشعر العربي .

ومهما يكن فإن الافتقار إلى الوحدة يسلب الغزل كثيراً من تأثيره والغزل بمثل هذه الحالة لا يحمل عاطفة أو وجداناً إلا أن القوة والجدوة والتكرار صفات تجعل الحالة المعالجة في الشعر تستحق الانتباه ، وهذا مما جعل الغزل الذي يحمل هذه الصفات من أكثر الأشكال الشعرية ذيوياً ، وبالإضافة إلى الشكل فالمضمون يستحق الانتباه أيضاً فالغزل يمثل مشكلاً للتجارب^(٣) .

(١) المقدمة The Development of Metaphysics in Persia

(٢) شبلي : شعر العجم (٢/١٩٩) .

(٣) S. A. Wahid: Iqbal p. 136 .

والشعر الغزلي في الأردية والفارسية له شكل خاص يعرف باسم "غزل مسلسل" وهو يملك وحدة الموضوع، وسعدي شيرازي كان أول شاعر في الفارسية حاول أن يجرب يده في هذا الشكل، وخسرو من أكبر شعراء الفارسية، ولد بالهند وتفوق في كتابة "غزل مسلسل" ومع أن إقبال كتب شعراً غزلياً بجميع أشكاله إلا أنه تفوق أيضاً في "غزل مسلسل" وإقبال قد ترك لنا شعراً غزلياً يقف جنباً إلى جنب مع أجمل الأشعار في العالم. وكما يقول نيكلسون إن أشعاره تذكرنا دائماً "بشيلي" الذي يعطينا مقياساً لشعر إقبال الغزلي، لكن ما هي أسباب عظمته كشاعر غزلي؟

الأسباب الرئيسية لعظمة إقبال كشاعر غزلي:

أولاً: هذه الأسباب ليست بعيدة عن خاطرنا وأولها يتمثل في الطبيعة الذاتية لفن إقبال الشعري، والغزل من أبرز وأسمى الأساليب المناسبة للغناء التي تعالج لحظات البهجة والسعادة كما أنها تزخر بالعاطفة والوجدان لدى كل فرد، وفي هذا يكمن السحر العظيم والفن الخلاق، وشعر إقبال في هذه الناحية يعيد إلى الأذهان التجارب المتشابهة في حياة القارئ الخاصة، وكل شعر غزلي يجب أن يكون ذاتياً، وأن يجسد التعبير الحي للتجربة الشخصية، وإقبال الذي يؤمن بأن كل الفنون يجب أن تكون ذاتية كان رائعاً في وصف تجاربه الخاصة.

ثانياً: إن إقبالاً يتغنى أساساً بالحياة وهذا يحتم عليه وحدة الموضوع وهو ينسج أشعاره من اهتزازات الرغبة وتدفق العاطفة وهو ما يستوقف خيالننا، ويوقد بالعاطفة تجاربنا البسيطة عن الحياة، كل هذا يتم بخيال حيوي متحرك نشط لا يخفق أبداً في تحريك استجابتنا العاطفية، وهو في كل أغانيه حتى ذات الأفكار المبهمة، العميقة الفلسفية يتحرر من العزلة الاصطلاحية التي يفرضها الموضوع بحيث يصبح الموضوع جزءاً من الحياة العادية للإنسان، ومن هنا يوضع إقبال في منزلة الغزليين العظماء كحافظ وغالب.

ثالثاً: كان لدى إقبال إيمان شديد بأن شعره سوف يجعل الجنس البشري قادراً على أن يصل إلى الهدف الأعظم من وجوده وهذا الإيمان ينعكس في شعره العاطفي وهذا هو السر الحقيقي لذلك التدفق التلقائي لأشعاره الغنائية، فهو يغني لأنه لا يستطيع أن يمسك نفسه عن الغناء؛ فقلبه مملوء ولا يستطيع أن يسكن أو يهدأ كما أن هناك شيئين ضروريان للشعر الغزلي الكامل:

١ - العاطفة الأصلية التي تصحبها القوة والعمق.

٢ - التمكن والسيطرة التامة على اللغة لتعطيها التعبير المناسب.

وإقبال دائماً كان له أذن حادة مميزة للألحان والنغمات، وكان بغريزته يختار الكلمات والأوزان التي تخدم في تحسين قافيته واتساق لغته، ومثال ذلك:

«مع هذا الربيع وتغريد العندليب على هذه الحال

اكشف الوجه، انشد الأغنية، وأنت في نشوة على هذه الحال

أدعو نسيم الربيع أن يتبع خيالي

الذي يزين الوادي والسهل بمثل هذه الأزهار والزينات

إن قلبي لم يوهب لأحد وليس راضياً بالدارين

وفي يوم الحساب سوف أنال الجزاء الطيب على هذه الحال».

ومثال آخر:

«انتظموا حول قبوري ينوحون

الشجعان أصحاب الوجوه الجميلة كفينوس وأصحاب الأجسام الرقيقة

هم كالورد، صدورهم بيضاء كالفضة

إن درس حكماء الإفريج قد زادني معرفة

إن مصاحبة أصحاب النظر قد منحت قلبي متوهجاً محرراً

يا من تبحث في المدرسة عن الأدب والعلم والذوق

هل يبحث أحد عن الخمر في مصنع الزجاج؟» .

رابعا: من الملاحظ أنه في كل الأشعار الغزلية فإن صوت النبضات الغزلية يخفت كلما تقدم الشاعر في السن وهذا يقودنا إلى الحديث عن تصنيف الشعر الغزلي إلى صنفين :

٢ - العقلي

١ - العاطفي

فبمرور الزمن تضعف عاطفة الشاعر ويذوي الغزل العاطفي المتوهج ويبدأ الشاعر في كتابة أشعار عقلية أكثر فأكثر حيث يحل العنصر التأملي محل التوهج والحماس العاطفي ، وهذا يتفاوت بين شاعر وآخر من الشعراء الغزليين الكبار ؛ إلا أنه عند إقبال لا نلاحظ هبوط مستوى التوهج والحماس الغزلي ، والسبب الرئيسي لهذا هو نزعه إلى الزهد ، فالزهد غلّف أفكار إقبال ، وبمرور الزمن فإن تأثيره ونفوذه تعمق أكثر فأكثر ؛ فلم يكن هناك انتقال في الشعر الغزلي من العاطفي إلى العقلي ، ويرى البعض أن هذا يحدث في بعض الأشعار الأردية حيث يتجه إقبال في النهاية إلى العنصر التأملي في شعره لكن أولئك الذين درسوا إقبالا جيدا يفندون هذا الاقتراح بتحفظ كبير . فالتلقائية باقية ولم تضعف وهي دائما على درجة عالية ؛ لكن في بعض الأشعار خاصة في بال جبريل يُصدم الإنسان بالافتقار إلى التلقائية والسبب في هذا هو تحول إقبال إلى تعبيرات جديدة نظراً لتطور وجهات نظره كما أنه لم تعد هناك حاجة ملحة لاستخدام التعبيرات الجديدة التي ابتكرها في البداية ولنلاحظ هذه الغزلية :

«الساقبي (الذي يسقيني) قد حطم كل الفروق بيني وبينك

حين أعطاني شرابا من لا إله إلا هو

لا خمر ، لا شعر ، لا ساقبي ، لا صوت الصنّج والرباب

يوجد فقط صمت الجبال وحافة النهر وشقائق النعمان الحزين

انظر إلى من لا علاقة له بالسائل عن الحانة

لقد ألقى بكأسه على الأرض ليصل إلى ينبوع الحياة
ومن فيضه اكتسب الورد وشقائق النعمان جمالاً متجدداً .

والشعر الفارسي يزخر بالزهد الذي يسهم كثيراً في اتساع سحر الغزل الفارسي
وجاذبيته، والزهد يجلب تجارب جديدة، ومع الزمن يزداد الشاعر زهداً، وهذه
التجارب الجديدة في نفسه تؤكد بلاغة وتلقائية مشبوبة بالعاطفة^(١).

الخصائص الرئيسية لشعر إقبال الغزلي :

تحدث باختصار عن الأسباب الرئيسية لعظمة إقبال كشاعر غزلي والآن يمكن
البحث عن الخصائص الرئيسية لشعره الغزلي :

كما ذكرت فإن الزهد روح محرّكة للشعر الفارسي، وإقبال يذكر أن أول شاعر
زاهد هو العراقي^(٢)، وذكر أن الزهد يأتي بأسماء سنائي والطار والرومي وجامي
إلى أذهاننا. ومعظم الشعراء الزاهدين قدموا التعاليم الأخلاقية التي لم تكن سوى
عويل وشكوى اليأس إلا أن إقبالاً في شعره الغنائي هنا يقدم تريباقاً منعشاً لكل
العلل، ويجب أن يشار هنا إلى أفكار إقبال عن الجمال والحب، وهو في شعره يميل
قبل كل شيء إلى الخير والجمال ويحيل حتى الشر إلى خير.

والجمال الذي يروق له أكثر هو جمال القوة والنضج والكمال؛ فالجمال هو
تجربة حيوية وليس صفة الأشياء؛ فجمال العقاب والباز أكثر إلهاماً من جمال
البلبل، ومنظر الجبل الضخم يملؤه بالسرور، وكم تحدث إقبال عن الهملايا،
والعشق عند إقبال هو القوة التي تقوم ليس فقط بحل كل المصاعب الإنسانية، لكنه
أيضاً القوة لكل ضعف إنساني والموطد لكل عناصر الكون المنفصلة، وفلسفة إقبال
عن الحياة التي تقوم على النشاط المتواصل المستمر والاشتياق النهم، كل هذه هي
نفسها خصائص حية، لكن رغم أن الحب يزيد من قلقنا إلا أن هذا القلق نفسه هو
الذي يجعل الحياة تستحق أن تُعاش :

(١) . S. A. Wahid: Iqbal p. 141 .

(٢) إقبال نامه ص ٤٤ .

«إنني أنشد هذا الكلام الذي يمنح المرح والطرب والرقص

فمن العشق يستريح القلب رغم كل هذا القلق»

وإقبال لا ينسى سيطرة العقل :

«أنا عبد حر ، العشق إمامي

العشق إمامي ، العقل عبدي

يا عالم اللون والرائحة (الحياة الدنيا) إلى متى هذه الصحة

إنك تفتنى وتموت أما أنا فإني حي باق بالعشق» .

ولنتناقش الآن مكانة إقبال بين الشعراء الغزليين في الأردية والفارسية كحافظ

وخسرو وغالب ومير وداع وغيرهم فلكل من هؤلاء الشعراء عيوبه الخاصة أجملها

باختصار شديد فيما يلي :

أ - ما عدا القليل منهم ، فإنه لا توجد وحدة الموضوع الذي يتغير في كل بيت .

ب - الافتقار إلى الإخلاص والصدق لأن الشعراء لم يخوضوا في العواطف

التي يصفونها ، ومثال ذلك أن كل شاعر غنائي سواء في الأردية أو الفارسية يتغنى

بالحب إلا أن معظمهم ، وضعوا أنفسهم داخل أديرة ، وخلوات وأروقة ، ولذا فلم

يعرفوا مطلقاً ما هو الحب ، وتحسنت الأحوال قليلاً حين أدخل أبو سعيد الزهد إلى

الشعر فبدأ المشاركة في تجارب الزهد والتعبير عنه .

وبرغم هذه العيوب إلا أن السحر الخارق الذي يكمن في جمال اللغة وحيويتها

وتجدد الخيال قد أعطى الأشعار الغنائية الجاذبية . فالعواطف المصورة تكون في

معظم الحالات غير حقيقة وغير طبيعية إلا أن جمال اللغة كان طاغياً شديداً لا يمكن

مقاومته ، ولا يعطي فرصة لتحليل العواطف . وحين نذكر أن شعر إقبال الغزلي كان

خالياً من كل هذه الأخطاء نضيف إلى ذلك أنه ينفذ إلى الروح بقوة بل يخلق قوة

الروح التي تفتقر إليها جميع الأشعار الشرقية ، من هنا لن يكون من الصعب أن

نحدد مكانة إقبال بين شعراء الأردية والفارسية الغزليين فهو يوضع في مصاف العظماء مثل حافظ وغالب، وبالرغم من أنه لم يكتب كثيراً إلا أنه كما قال: «لا أحد يجد الخطأ في الكمان لأنه ليس فيه سوى أوتار قليلة»^(١).

مفهوم الغزل عند إقبال :

يعبر شاعر الغزل دائماً عن تجاربه الداخلية ويظهر أسرار الحيشيات الكامنة في نفسه عن طريق الرمز والكناية، وفي حالة شدة العاطفة والجذب يكون الرمز والكناية من أبلغ ما يمكن لبيان التسلسل المنطقي للأفكار، والشاعر الفرنسي بودلير يعتقد أن شدة العاطفة والجذب من اللوازم الفنية للشاعر الصادق، وإقبال أبان وأوضح حالة السكر والجذب هذه بلفظ "قلندري"، وقد ميزه عنصر حركة الجذب عن شعراء الغزل الآخرين، وشعره في الأصل ترجمان لسكره وجذبه، ورغم أننا نرى الهدوء والجمال في غزل حافظ إلا أن عنصر الجمال والجلال فيه قليل، فتصور الفن عند إقبال فيه جوانب عناصر الجمال والجلال كلاهما، ومع قدرة إقبال على الرمز نضيف سيطرته الكاملة على الألفاظ، وهنا نرى أحسن النماذج لكتابة الشعر الرمزي ولم يكن الرمز في غزل إقبال بلا روح؛ فقد أخرج عن طريقه أفكاراً خالدة بما كان يقوم به من وضع اللفظ القديم في المعنى الجديد فألفاظ مثل: ميخانه شعاع، وشبنم، شمع، وپرويز وغيرها كلها كانت تبدو كألفاظ مريضة ضعيفة في دور إنحطاط الأدب إلا أن إقبالاً بث فيها بحرارة أنفاسه روحاً جديدة مما جعل الألفاظ تعبر عن الحركة والنشاط.

وفي الغزليات الفارسية نلاحظ تغليب العنصر الغنائي على ما عداه كما أن الشاعر ينتقي البحور والأوزان التي تتناسب مع المضمون وإقبال هنا يعرض الشراب والنغمة والخمر والحانة والزلف والخال والوجنات وغيرها، وقد استعمل كل هذا استعمالات مجازية وهو في غزله الأردني أظهر أفكاراً رائعة، وقد كتب في بداية زمانه الشعري غزلاً قال فيه:

(١) S. A. Wahid: Iqbal p. 150.

«لقد التقطت القدرة الإلهية قطرات خجلي على أنها لآلى».

وكان هذا أول بيت شعري استرعى انتباه الناس ، وكان قد ألقاه في ندوة شعرية حضرها عندما كان تلميذا صغيرا^(١).

الأقسام الرئيسية لغزليات إقبال :

يقسم د. آقاي خطيب غزليات إقبال من خلال كتابه " زبور عجم " و " پیام مشرق " إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : تلك الغزليات التي هي من حيث اللفظ مقتبسة ومقلدة لشعراء الغزل العراقي المعروفين ، حيث اقتبس من حافظ والرومي ، واقتبس مباشرة الأوزان والقوافي والرديف وجزءاً من التركيبات المستعملة في غزليات حافظ والرومي واستعملها واقترب كثيرا في بعض المواضع من مضامين وأفكار حافظ والرومي .

القسم الثاني : الغزليات التي لم يقلد فيها مباشرة غزليات حافظ والرومي لكنه استعمل بعض الألفاظ والاصطلاحات التي تخرج أحيانا عن حدود الأسلوب العراقي ، وقد وقع تحت التأثير الكامل لأسلوب هذين الشاعرين الغزليين وفي الجزء الذي اختار فيه الرديف في الغزل الذي لا يوجد في كلام شعراء الأسلوب العراقي الآخرين .

القسم الثالث : تلك الغزليات التي تقترب كثيرا من الأسلوب الهندي وهي بالقياس إلى سائر الغزليات الأخرى قليلة فاهتمام إقبال الأكبر كان متوجها إلى العصر الأول لأسلوب الشعر الهندي ، ومن هنا فإنه لا يوجد في كلامه من حيث الألفاظ والمعاني هذا الضعف اللفظي والمعنوي الذي تميزت به العصور المتأخرة لهذا الأسلوب الشعري .

ويضيف د. آقاي خطيب : «إن إقبالا كان موقفا حين يأتي بأعظم الأفكار تعقيداً وأدق المعاني في قوالها اللفظية وكان بيانه خاليا من الحشو والزوائد كما كان

(١) محاضرة ألقاها السفير الباكستاني السيد سجاد حيدر بجامعة الأزهر نوفمبر سنة ١٩٦٧ م.

مختصراً فصيحاً سلساً سليماً إلا أنه يؤخذ عليه شيء واحد وهو أن آثاره ليست على نسق واحد أي أنه يوجد بين أبياته المحكمة والمتينة في غزلياته وسائر آثاره، نماذج من الأبيات تقل من حيث جزالة اللفظ واللطافة والمعنى وجمال الأسلوب عن سائر الأبيات»^(١).

وإذا كان الشعراء القدماء قد استعملوا الغزل في مختلف الموضوعات واستعمله كتاب القصائد في المدح والتشبيب بعد أن استعملوه في العشق، واستخدمه أهل الزهد لإظهار العواطف الإنسانية إلا أن إقبالاً قد ألبسه لأول مرة لباس الفلسفة الجديدة^(٢).

ب - المثنوي

ليست هناك حاجة إلى الإفاضة في الكلام عن هذا الضرب من ضروب النظم؛ فالقافية فيه تكون في جزئي البيت الواحد، وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات، وهذا الضرب من ضروب النظم موجود في الشعر الأوربي كما أن كل المنظومات الطوال في اللغة الفارسية سواء كانت قصصية أم تعليمية تقع في هذا الضرب من النظم ومن أمثلتها "الشاهنامه" للفردوسي و"بنج گنج" لنظامي الكنجوي، و"هفت اورنگ" لجامي و"المثنوي المعنوي" للرومي وهذا الضرب فارسي النشأة لم تعرفه الأشعار العربية القديمة، وإن كان بعض الشعراء الذين كانوا أصلاً من فارس قد استخدموه في نظم الأشعار العربية المتأخرة التي عرفت باسم "المزدوج" منذ نهاية القرن العاشر الميلادي "أواخر الرابع الهجري"^(٣).

كتب إقبال عدداً من القصائد الطوال التي يمكن تصنيفها بالمثنوي، وهو ضرب واسع من ضروب الشعر كما أشرت وقد وجد المثنوي أساساً لأنه كان من الصعب الاستمرار في قافية واحدة داخل القصيدة الطويلة.

(١) إقبال إيرانيون كي نظر مين . مقالة د . آقاي خطيب .

(٢) المقدمة Arberrý . Persian Psalms .

(٣) براون . تاريخ الأدب في إيران ص ٣١ .

أهم مثنويات إقبال :

من أهم مثنويات إقبال أسرار خودي ، رموز بي خودي ، گلشن راز جديد ، بندگي نامه ، مسافر ، پس چه بايد کرد ، ساقی نامه ، و جاويد نامه ، وقد طبعت كل من أسرار خودي ، رموز بي خودي ، مسافر ، پس چه بايد کرد ، و جاويد نامه منفصلة بينما طبعت " گلشن راز جديد " ، " بندگي نامه " ضمن زبور عجم ، وساقی نامه ضمن بال جبريل .

والتصنيف بالشكل لا يعطي أية فكرة عن جوهر المثنوي ، وقد يكون ضروريا لأن نحاول تصنيفه طبقا للجوهر أي المضمون ، وعلى سبيل المثال قد يكون المثنوي ملحميا وقد يكون فلسفيا أو تعليميا أو نقديا ، ويمكن أن يقال إن معظم مثنويات إقبال تعرض شعرا فلسفيا . كما أن معظم أشعاره الفلسفية يمكن في الحقيقة أن تصنف على أساس أنها أشعار ميتافيزيقية ، وهناك هجوم من بعض النقاد على الشعر الفلسفي ، وهم الذين يرفضون أن تقدم الفلسفة في إطار شعري إلا أن القصائد الفلسفية عامة موجودة في الفارسية ومعظمها على درجة عالية من الجودة ، وكان النظامي قد قدم في " سكندر نامه " أول مناقشة فلسفية في شعر رائع جميل ، و قصائد إقبال الفلسفية هي تماما كقصائده الميتافيزيقية رائعه ، وفصاحته وبلاغته تهب القصائد قوة التأثير علاوة على إثارة العواطف ومن أشهر منظوماته :

١ - الأسرار والرموز :

وتحتوي على الحكايات الأسطورية ذات المغزى وهناك واحدة أو أكثر منقولة عن المؤلفين الأوربيين المعاصرين له ولهذا أهميته في جذب انتباه القاريء وإزالة الرتابة ، وأسرار خودي منظومة تضع المبادئ التي تحكم تطور الشخصيات الفردية ، أما في الإشارات الرمزية فقد وصف إقبال قاعدة المبادئ التي يتمركز عليها المجتمع الإنساني المثالي الذي يرى إمكانية تنظيمه لو أننا نظمنا المبادئ الأساسية للأخوة الإنسانية ، ولا يمكن أن يتحقق هذا في أي مجتمع غير المجتمع

الإسلامي^(١)، والأدعية الغنائية في نهاية كل من الأسرار والرموز جديدة بالملاحظة سواء من ناحية اختيار البيان والأسلوب أو من ناحية العاطفة، وأسرار خودي قد نالت شهرة عالمية حين ترجمت إلى الإنجليزية. ويقول البروفسور نيكلسون في مقدمة ترجمته: «إن عديداً من الصفحات - في الأصل - هي شعر من النوع الذي لو قرأه إنسان لمرة واحدة لا ينسأه أبداً، مثل وصف الإنسان الكامل وتلك التوسلات والأدعية الطاهرة التي ينتهي بها الكتاب»^(٢).

٢ - گلشن راز جديد :

يحتوي على مشاكل صوفية عويصة إذ يضع الشاعر تسعة أسئلة ثم يستمر في إعطاء الإجابات لها وقراءة هذه المنظومة تذكرنا بكلمات جوته: "إنني أميل إلى الاعتقاد بأن الفن الشعري من المحتمل أن يكون هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تفي بالغرض من أجل التعبير عن مثل هذا الغموض لأن هذا الغموض قد يكون له تأثير مخيف ومناف للعقل في النثر لأن ما يمكن أن ينقل هو فقط عن طريق التناقض الذي لا يكون العقل مجهزاً للموافقة عليه"^(٣).

٣ - بندگي نامه :

منظومة عن شياطين العبودية وموضوعها يعبر عن الفكرة الأساسية في أن الشخصية الإنسانية يمكن أن تتطور فقط في إطار من الحرية فالعبودية في أي شكل سواء كان سياسياً أو اقتصادياً تنحرف بالرقى البشري، وتعيد بحركة الخلق في الإنسان، نتيجة لما يقوم به العبيد من تعليلهم أنفسهم بالأفكار الزائفة حتى عن الفنون الجمالية، ويشير إقبال إلى الأغراض الفنية للحرية والسعادة، يقول عن التاج (تاج محل):

«القلو نظرة واحدة على هذا الجوهر الصافي

(١) S. A. Wahid: Iqbal p. 154 .

(٢) R. A. Nicholson. The Secrets of the Self p. xx .

(٣) S. A. Wahid: Iqbal p. 156 .

انظر إلى التاج في هذه الليلة المقمرة
 إن مرمره يبدو متدفقا أسرع من الماء الجاري
 إن اللحظة هناك أطول من الأبد
 إن روح الإنسان قد أذاعت هنا سرها
 وثقبت الأحجار بأشياء رفيعة كالأهداب
 وعشق الإنسان إنما هو عيار للحكم على الجمال
 إنه يقوم بإخفاء الجمال تماما مثلما يظهره «

٤ - تسخير فطرت :

وبعض قصائد إقبال الطوال في شكل ملحميات وأهمها: تسخير فطرت
 وجاويد نامه، وتصنيف الشعر إلى شعر ملحمي وآخر غنائي وثالث درامي هو
 أساساً تصنيف "شكلي" ولو أننا اعتبرنا الفردوس المفقود للتون والكوميديا الإلهية
 لدانتي من الملحميات، فإن تسخير فطرت وجاويد نامه تعد هي الأخرى من
 الملحميات وهو يحكي في تسخير فطرت قصة الفردوس المفقود والفردوس
 المسترد، فقد كان مغرماً بمثل هذه الموضوعات في شبابه، ويرى إقبال أن أي إنسان
 يمكنه عن طريق ترقية ذاته أن يحصل على الجنة وليس من خلال وساطة أو شفاعة
 أحد، ومن هنا يمتلك العالم المحسوس، ولكسب الجنة يجب على كل إنسان أن
 يعتمد على نفسه ويثق بها لا أن يلجأ إلى الآخرين، وعالج الشاعر الموضوع بأصالة
 كاملة وأسلوب لبق جميل فصور الدراما الإنسانية بأكملها: خلق الإنسان وسقوطه
 وانصلاحه من خلال جهوده الذاتية، والفكرة الأساسية للمنظومة هي الإيمان وكل
 بيت يلهم القارئ الإيمان ويثبه القدرة على تحقيق رسالته المباركة على الأرض أي
 الخلافة الإلهية.

٥ - جاويد نامه :

يرى بعض الدارسين أن ديوان جاويد نامه يوضع في درجة واحدة مع شاهنامه الفردوسي، ومثنوي جلال الدين الرومي، وگلستان سعدي، وديوان حافظ. وفي جاويد نامه كان الشاعر مرافقا للرومي الذي يمثل بالنسبة له فيرجيل بالنسبة لدانتي، يطوف بالكواكب المختلفة ويقابل الشخصيات التاريخية، وللحكم على هذه المنظومة ينبغي علينا أن نضع أماننا اعتبارين :

أولهما : الأسلوب والبلاغة وفيما يتعلق بالأسلوب الفارسي فإن جاويد نامه، ينتمي إلى منظومات الدرجة الأولى وهو يتفوق في عظمة التعبير وجمال الأسلوب.

ثانيهما : من ناحية الموضوع فإن المنظومة تعالج النزاع الأبدي للروح عن طريق حكاية النضال الإنساني ضد الخطيئة، وهو يبين للجنس البشري الطريق إلى البهاء والسلام وفي كل بيت يجعلنا الشاعر نشعر أن لديه شيئاً يمكن أن يقال لكنه لا يستحق القول ليس هذا فقط لكنه يستمر في النظم لإدخال السرور والبهجة، ومن هنا نرى الأسلوب تماما كالموضوع بحيث صارت المنظومة قطعة من الإبداع الفني.

هذه هي أهم مثنويات إقبال ودراسة هذه المثنويات تجعلنا نرى أن لدى إقبال الغنى في الفكر والجمال الفني، وهو أمر ليس من السهل وجوده حتى في كتب أعظم الشعراء^(١).



ج - الهجاء

ليس من السهل دائما تحديد هوية الهجاء إلا أنه من الناحية الأدبية تعبير عن حالة ناتجة من الإحساس بمزاج خاص تجاه حالة معينة، وكلمة الهجاء استخدمها بعض أدباء القرن العشرين لبيان نوع خاص من الشعر اشتهر بالشكل الهجائي، والبعض يضم إليه أي نوع من الشعر المكتوب بمغزى هجائي إلا أنه يمكن القول بأن العمل الأدبي يتسم بالهجاء عن طريق بواعثه وروحه المنفردة، ومن هنا فإن العديد من موضوعات إقبال يمكن أن تصنف ضمن الشعر الهجائي، والإنتاج الكلي في هذه الناحية ليس كبيراً، ومعظم المقطوعات الهجائية الرائعة تبرز مع الأشعار الأخرى، وإقبال كان يحيد عن الموضوع الرئيسي ليهجو الناس أو المنظمات أو النظريات وكان يفعل ذلك بمنتهى الفن حتى لا يظهر هناك أي ملل أو تنافر، ومع هذا فإن روح الهجاء تكون ظاهرة جداً في بعض القصائد لدرجة أنها تصنف ضمن الشعر الهجائي دونما تردد، ومعظم الهجاء يتركز على إحساس عال كما أن الشاعر يحمل مساحة عريضة من الخيال والعاطفة ولما كان منظر شياطين الدين يهز إقبال من داخل روجه فقد تفجرت عبقريته في الهجاء.

ويوجد في اللغة الفارسية والأردية قدر كبير من الشعر الهجائي له صفات فنية على درجة عالية، وقد نجح إقبال في إخراج صوت جديد للهجاء في هاتين اللغتين، ومثله كتب مير حسن في الأردية وكمال إسماعيل الأصفهاني في الفارسية هجاءً على جانب عال من وجهة النظر الفنية كما أن الأشعار تأتي متوازنة ومنطقية وذات مغزى، ولكن يمكن القول دونما تردد أن إقبالا كان أول شاعر يكتب شعراً هجائياً دونما غرور أو قسوة؛ فشعره الهجائي بصفة عامة متحرر من الخطأ الذي يلاحظ عامة لدى معظم الشعراء، فمع أن إقبالا كان يتألم كثيرا من شياطين السياسة والدين والاجتماع إلا أنه لم يتجه إلى القسوة في هجائه لهم؛ فقوته تكمن في الهدوء ووضوح الفكرة والأسلوب والترابط المنطقي^(١).

هجاؤه رجال السياسة :

وعلى سبيل المثال وإيضاحاً لما مضى ، فإن إقبالاً حين تأثر بشدة من خداع
وخيانة بعض الساسة كتب يقول :

«تراه مع من يجوبون الكنيسة حيناً

ومع الوثنيين في مواكبهم حيناً آخر

مذهبه وقانونه الربح والخسارة

عنكبوت في رداء حيدري

يتظاهر أمام الناس بحماية الدين

لكنه زنار الكافرين

يعامل الكل بالابتسام ولا يصادق منهم أحداً

إن الثعبان ثعبان ولو رأيت يضحك » .

واللحن والاتساق يتضح من الأبيات السابقة في الأصل كما أن الهجاء خال من
أي عداء شخصي ، وهذا يعطي للأبيات روح الانفعال ومظهر النبل والشرف ،
وبالرغم من أن بعض موضوعاته الهجائية خاصة التي كتبت عن مكيا فيلي وحسين
أحمد هي هجاء مباشر ضد أشخاص إلا أن القاريء يدرك لأول وهلة أن
الشخصيات هنا تعبر عن طبقة معينة أو منظمة بعينها .

هجاؤه المتعصبين للقومية :

وكما هو معروف فإن إقبالاً ينكر بشدة أو ينفر من فكرة القومية بمفهوما الضيق
ويعتبر أن معظم المتاعب في أوروبا ترجع إلى القومية العدوانية التي تحمل الأوبئة
والأمراض التي تعمل على تقسيم الإنسانية إلى أقسام منفصلة داخل سدود المياه
الإنسانية الجارية ومن هنا يخاطب إقبال حسين أحمد :

«إن العجم حتى الآن لا يعرفون أسرار الدين وإلا

فما هذا الذي صدر عن حسين أحمد القادم من ديوبند؟

يا للعجب !!

لقد نادى من أعلى المنبر أن " الملة من الوطن "

إنه لا يدري شيئا عن تعاليم مقام محمد العربي

اتبع رفقاء المصطفى فهذا هو كل الدين

إذا لم تلحق بهم فسوف تكون بعيدا عن الدين .

وحسين أحمد في هذه الأبيات من القوميين الذين يريدون أن يتعاملوا مع الجنس البشري فقط على أساس الجماعات وهو من أولئك الذين كانوا على استعداد لارتكاب الجرائم المخيفة ضد الإنسانية باسم القومية ، وحسين أحمد هنا يمثل " القومي ذو العقل الضيق " على طول السنين وفي جميع البلدان ، ولا نرى هنا أي عداة أو خصومة شخصية في الهجاء كما يوجد في الأبيات عنصرا مثيرا للشفقة والعاطفة القلبية ، يقول إقبال عن ميكافيلي :

« هذا الفلورنسي عابد الضلال

غطى باطله على البصائر والأبصار

كتب للطغاة من الحكام كتابا

فبذر بذور الشقاق بين الناس

حوّل دينه المملكة إلاها معبودا

وصور منطق المذموم في صورة المدوح

نشر البهتان في أرجاء البلدان

وصير تفكيره الزور فنا مرموقا .

ويقدم إقبال في هذه الأبيات تلك الطبقة من السياسيين الذين ليس لهم مبادئ والذين يبيعون القانون لكسب المزايا والفوائد .

هجاؤه للمنافقين من رجال الدين :

يهجو إقبال المنافق والإنسان المعوج الذي يتظاهر بالصلاح والتقوى :

«إن القادة الروحيين وصلوا إلى مكانتهم بفضل بياض شعورهم

هم أضحوكة للأطفال في الشوارع والطرق

قلوبهم لا أثر فيها للإيمان بالله

ولكنها عامرة بأصنام الشهوات

وكل ذي حية طويلة يتصدى للدعوة والإرشاد

حمانا الله من قوم يتخذون الدين تجارة

بالليل والنهار يجوبون البلاد مع الأتباع والأنصار

لا يستجيبون لدعاء ذي الحاجة أو المحروم

ينظرون ولا يبصرون

في قلوبهم فقر ، وصدورهم من الحكمة خواء» .

كما أن غرور رجال الدين وتكبرهم وطريقتهم الإعلانية بشكل أثار رد فعل في

مستنقع التعصب المتمثل في التمسك الشديد بالشكل تم التمسك بالرأي والقطع به

كل هذا دعاه إلى أن يهجم بعنف وبعقلية نافذة وبمنتهى السخرية والتهكم :

«إن الدين الحقيقي خجل من الكافر

والملا مع أنه مؤمن إلا أنه يكفر الناس

إن الندى قد ظهر لنا كالمحيط

وبالنسبة له فإن بحرنا لم يبد له سوى ندى

ليس له نصيب من حكمة تعاليم النبي

وسماؤه مظلمة إذ أنها بلا كواكب

نظرتة قصيرة، ذوقه أعمى، يتجول دون هدف
 الملة أصبحت بأقواله متفرقة إلى أفراد
 إن دين الكافر يتمثل في التخطيط والتدبير للجهاد
 ودين الملا يخلق الفساد في سبيل الله».

وإقبال في أشعاره كان يعلن عن قدرته على كشف الشياطين المعاصرين له ومن
 هنا جاءت آراؤه التي لها وزنها الذي يبعث على الاحترام والمعرفة الشخصية،
 ومن خلال الأبيات السابقة نرى أنه بينما كان بعض الهجائيين يقدمون ضحاياهم
 بصورة مضحكة عن طريق مرافقتهم لأبطال أسطوريين والبعض الآخر يقدمهم
 في صورة حشرات ضارة لا تساوي شيئا، كان إقبال يقدمهم بصورهم كما هم ثم
 يترك للقاريء أن يشكل بنفسه استنتاجاته ورأيه الخاص وإقبال في هذا يشبه
 "بايرن" إلى حد ما.

هجاؤه للحضارة الغربية :

بينما هناك إعجاب شديد بالحضارة الغربية فإن إقبالا لم يكن أبدا ليتواني عن
 بيان عيوبها، يشير إلى البطالة وإلى السقوط في البلاد الأوربية :

«قد يسأل أحد الحكيم عن أوربا

الذي أعجبت بعبقريته حتى الهند واليونان

هل هذا هو كمال المجتمع :

البطالة بين الرجال والدعارة بين النساء ؟ ! » .

ففي لغة جميلة يوضح إقبال أن المجتمع الذي لا يستطيع أن يحل المشكلتين
 الأساسيتين حلا مقنعا لا يمكن أن يسمى مجتمعا كاملا .

وفي منظومة أخرى يشير إلى أنه على الرغم من التقدم العجيب في العلوم فإنه
 لا يمكن أن يستأصل أو يمحو كثيرا من أشرار المجتمع وأشرار شياطين المجتمع في

الغرب :

«البطالة، العربي، السكر، الفقر
هذه تعبيرات عن انتصارات الحضارة الغربية
إن أولئك القوم الذين حُرِّموا من الفيض الإلهي
تقدمهم محصور في الكهرباء والبخار».

ومن الملاحظ أن قوة الشعر ووضوح الفكر والأسلوب والمسلك المهذب كل هذا يجعل الهجاء أصيل، وكما رأينا فإن أهم خصائصه عدم التحيز والفنية القوية والسيطرة التامة على اللغة مما جعل لشعر إقبال في الهجاء مكانا عاليا في أدب الهجاء الفارسي والأردني^(١).

د - الرثاء

النواح على الأجزاء حين يعبر عنه بلغة شعرية لا يمكن أن يخفق في إعطاء الرد العاطفي الذي يؤثر على القلب، فالموت لا يصفح عن أحد، والشعر العربي سواء قبل الإسلام وسواء الشعر الإسلامي فيه الكثير من المرثيات، وكل من الشعر الفارسي والأردني فيه مرثيات جميلة وجديرة بالذكر بالرغم من أن عددها قليل بالمقارنة إلى ما هو في الشعر العربي، في الفارسية نذكر رثاء العرفي في ذكري محمود الغزنوي، ورثاء سعدي عن تخريب بغداد على أيدي المغول، وفي الأردنية هناك مرثيات لغالب ومرثية حالي في موت صديقه حكيم محمد خان، ويأتي بعد ذلك شعراء مدرسة لكهنو خاصة أنيس ودبير، وإقبال كبقية الشعراء الأخلاقيين تأثر بالموت الذي حركه ليؤلف مرثيات عظيمة ورائعة والمرثيات الرئيسية التي كتبها هي : «داغ، فاطمة، شبلي وحالي، والده مرحومه كي ياد ميس، همايون، رأس مسعود، أكبر». وجميعها كتبت بالأردية عدا مرثية أكبر فقد كتبت بالفارسية،

وهناك أيضا قصيدتان ذات طبيعة انعكاسية ونقدية تعبر عن الموت، ونلاحظ أيضا قصيدتين هما: خفتگان خاک سے استفسار، وگورستان شاهي، ويمكن تصنيفهما ضمن القصائد الوصفية وإن تكن كثيية حزينة، وليست رثائية وكل ما كتبه إقبال كان في ذكرى أشخاص يحمل لهم مشاعر الحب والتقدير بدرجات مختلفة، ولذا فإن قوة الرثاء كانت أيضاً مختلفة، وعلى سبيل المثال فإن إقبالاً كان معجبا بداع من أجل شعره، وبالرغم من أنه لم يقابله أبداً ولم يعرفه إلا عن طريق المراسلة فإن وفاته التي كانت تعني غروب نجم الشعر كانت حدثاً سيئاً، وفي رثائه لشبلي وحالي ينوح على غروب أعظم نجوم الأدب التي أضاء بريقتها ولعانها سماء الأدب الأردني. أما همايون فإن إقبال يبكيه فهو الصديق الحميم له وقد أعجب إقبال بشخصيته إعجاباً كبيراً، ورثاؤه لصديقه هذا رثاء صادق جليل، وكذلك كان إقبال في رثائه لأكبر وما يثير الدهشة أن هذا الرثاء وجد في الطبعة الأولى في پیام مشرق ثم حذف بعد ذلك من الطبعات اللاحقة^(١)، ويقول إقبال في آخر المراثية:

«إن عقله اكتسب الأدب من الحب والسكر

وقلبه اكتسب الازدهار من جبريل»^(٢).

نماذج من شعر إقبال الرثائي

(اولاً: رثاؤه أمه):

توفت أم إقبال عام ١٩١٤م فجرفه الحزن فعبر عنه في أشهر وأعظم المراثيات في الشعر الأردني، والمراثية ليس لها أي تخطيط عاطفي، لكنها تعبر عن رد الفعل لروح آسفة حزينة مرهفة وقفت وجهها لوجه مع حزن على درجة كبيرة من الشدة والقوة والانفعال، وينسى الشاعر بعد لحظة حالة فقدانه الشخصي لأمه، ويبدأ في شرح أسرار الحياة والموت والقوانين التي تحكمها، وليس هناك أي أفكار عظيمة في القصيدة لكن الشاعر العظيم ليس في حاجة لأن يبحث عن الأفكار الخارقة وأهم

(١) المرجع السابق ص ١٨٤.

(٢) دماغش ادب خورده عشق ومستي دلش پرورش داده جبرئيلے .

مميزات القصيدة هي :

١ - أصالة الحبكة والتخطيط

٢ - التنظيم والترتيب الفني وتطور الفكر

٣ - فخامة وعظمة الأسلوب الأدائي

٤ - موسيقى ونغمة الشعر

والشاعر يبدأ بالإشارة إلى القوانين التي تنظم الكون ويواجه موت الأم الحبيبة بموقف الفيلسوف الذي يدرك أن الكون كله ، وأن كل شيء فيه خاضع لقوانين إلهية ، وهذه القوانين قوانين ضرورية . وكل من يفقدهم الموت آباءهم أو أمهاتهم خاضعون لهذه القوانين وهذا الموقف الفلسفي يدفع إلى الهدوء والراحة وفي بداية المرثية يقول إقبال :

«السماء خاضعة للقوانين والشمس والقمر كلاهما كذلك

والأنجم مرغمة على السفر والرحيل

والبرعم يجب أن ينتهي حين يفتح في الحديقة

الحشائش الخضراء والورود كلها أيضا مجبرة على أن تنمو في الروضة

في أغنية البلبل سكون الضمير

كل هذا محكوم بسلسلة القوانين هذه

حين يأتي سر الجبر ظاهراً للعين

فإن السيل الجارف للدموع يجف» .

وينظر الشاعر إلى صورة أمه فيفقد السيطرة على نفسه :

«لكن منظر صورتك يجعلني أنوح نوحاً لا ينتهي

أه إن هذا هو ترديد لكل فلسفتي المحكمة» .

وهكذا يدفع ويلقي بكل أفكاره الفلسفية فيقول :

«إنني في حيرة من إعجاز صورتك

إنها قد غيرت اتجاه طيران الزمان

إنها جمعت الماضي والحاضر معاً

وذكرتني مرة أخرى بأيام الطفولة» .

واقبال يوضح تلك الحقيقة القائلة بأنه مهما يكبر فإنه دائماً يشعر في حضرة أمه

أنه طفل :

«إن الكلام الجاد يركز على العلم وإدراك الشيخوخة

إن عظمة التشريعات الدنيوية هي فخر الشباب

إننا حين نزل من أوج الحياة

في صحبة الأم لا نكون سوى أطفال سذج» .

وبعد الاستغراق في التأمل والتفكير في البؤس والمتاعب التي يرثها الإنسان

يبحث إقبال عن العزاء والسلوى في التفكير فهذه الحياة سوف تقود في النهاية إلى

الحياة المثلى ، وما أعظم هذه الأبيات التي تعد الإنسان لمواجهة الموت باتزان وثبات :

«هؤلاء الموتى يموتون لكنهم لا يفنون

هم في الواقع لا يتركوننا

الموت يعني - فقط - تجديد رغبة الحياة

إن جوهر الإنسان لا يعرف الفناء أبداً

إنه يختفي عن العين لكنه لا يفني

لو أن نظام الوجود؛ أن يتبع كل مساء بصباح

فلماذا لا تكون نهاية ليل قبر هذا الإنسان صباحاً» .

والمرثية تسمو من خلال الأسلوب والبيان بما تشمله من تعبيرات مألوفة مقترنة بالتأملات الفلسفية ومع هذا فالأسلوب دائماً رائع :

«إن العش الفضي الخيالي يمكن أن يطوق الآفاق

إنني قد قهرت به ذكراك

إن القلب الذي ألف الألم مليء بالذكري

كما يمتليء الفضاء بالدعوات في الكعبة

إن تسلسل الفرائض تلك التي نسميها الحياة

تُجلى نفسها في آلاف العوالم الثابتة

وكل منزل من منازل الحياة له قواعده الخاصة

والآخرة أيضاً ليست سوى جولان المكان» .

وجمال الأسلوب يجعل من القصيدة إحدى روائح المرثيات في اللغة الأردنية ، واختياره للكلمات اختياراً طبيعياً جداً ، وهو يردد شكوى القلب المكلول بحزن ذي انفعال مذهل ، وحين نصل إلى الخاتمة البارعة نشعر أن إقبالاً قد أعطانا كل ما يمكن إعطاؤه :

«من سينتظرنني بشوق في موطني؟

من سيبلغ القلق إذا لم يصل خطابي؟

سوف أزور قبرك بهذا الصرخة

من سوف يُذكرني بدعوات منتصف الليل؟

كل حياتك وحبك كانا من أجلي

و حين أصبحت قادراً على - رد الجميل - رحلت

لعل قبرك مضيئ مثل إيوان السحر

والنور قد يملأ مسكنك الترابي هذا

ولعل السماء تنثر الندى على قبرك

ولعل خضرة جديدة (تنمو) تكون حارسة لبيتك» .

ففي الأبيات طفل ينوح من أجل أمه فهذه الخاتمة لا تحمل سوى كلمات بسيطة إلا أنها عميقة المعنى ، وهي توظف فينا كل ذكريات طفولتنا ، وتنقل بأسلوب في منتهى الانسجام والرفقة ، وبعاطفة بلاغية مشاعر الروح الإنسانية التي يغمرها الحزن والأسى^(١) .

النموذج الثاني :

مرثية أخرى رائعة كتبها إقبال عن وفاة صديقه مسعود وهي تعبر عن انتقال الروح الطيبة فجأة إلى العالم اللامرئي ، ولكن الإيمان يجعل الروح المدفوعة بالانفعال تنتقل تدريجياً من الظلام إلى الإيمان الصارم بالخلود والأبدية ، وهذا هو الصوت الحقيقي لكل شعره - وقبل أن يشير إقبال إلى الخلود فإنه يعطي منفذاً إلى الشكوك تحت تأثير الصدمة وسوف أكتب عن هذه القصيدة أثناء الكتابة عن أرمان حجاز .

وفي هاتين المرثيتين ، بصرف النظر عن الناحية الفنية والإبداعية فإن إقبالاً لم يكن يركز على الأسى والحسرة والتأسف على ما هو فردي شخصي ، لكنه وسع نظره إلى الحياة الإنسانية عامة ، وهذا مما يحقق لكل من المرثيتين شهرة عالمية بالإضافة إلى أن كلا من المنظومتين تبدأ بالشك ثم يتدرج البناء ، ويتطور حتى يتخذ الشاعر موقفاً يتجلى فيه إيمانه القوي في نهاية المرثيتين ، ومع أن الفائدة لا تتركز في النهايات لكن طبيعة الشك واليأس تتضح من خلال الإيمان المطلق وأروع من كل هذا هو ما يتخلل المرثيتين من روح الشجاعة وقوة الإيمان الذي يقهر الشك ويقشع الظلام ، وما يتخللها من الإيمان الذي لا يخضع للشك والغموض بل ينتصر عليهما .

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ .

النموذج الثالث :

رثاء الشاعر لفاطمة الذي نال شهرة كبيرة لأنها تمثل قلب الإسلام المفعم بالحياة والذي كان لا يزال يدمى من جراء هجوم الاستعمار الغربي ، فهو يصف حادثة الموت المؤسفة للفتاة العربية التي قتلت برصاص الجنود الإيطاليين بينما كانت توزع الماء بين الجنود العرب في أرض المعركة بليبيا ، ويصف إقبال مشاعر المجتمع العالمي في إثارة دعوة قضائية ضد الاستعمار الغربي .

يخاطب الشاعر فاطمة بأبيات تجسد المعنى :

«يا فاطمة أنت مجد الأمة المرحومة

كل ذرة في جسمك بريئة طاهرة

كانت هذه السعادة في أن يكون نصيبك يا حورية الصحراء

أن تسقي جنود الإسلام

جاهدت في سبيل الله بدون سيف ولا درع

ما أشد شوقك إلى الاستشهاد

إن مقدار هذا الشوق يعطي المرء الشجاعة

يا فاطمة مع أن عيونني تفيض بالدمع حزنا من أجلك

فإن نواحي ممزوج بلحن الفرع

إن رقص ترابك جميل

ها هي الثورة الصاخبة ترتفع في صمت قبرك

تعلن أن أمة جديدة تولد في حضنها »

وبينما المرثية تقرع عنيف ضد الحروب الحديثة فإنها تعبر عن قهر الأمم القوية للأمم الضعيفة ، وهي تصف أيضا الروح الإنسانية التي لا تقهر ولا تهرب من التضحية في سبيل الحرية .

واستعمال إقبال للحروف الساكنة والمتحركة مع الجناس زاد من التأثير العاطفي ومن الصعب أن نجد بيتا ضعيفا في القصيدة .

ومن هنا وبالنسبة للجمال الفني فإن مراثيات إقبال توضع في مصاف أجمل شعر رثائي في العالم، وبصرف النظر عن الإبداع الفني فإن هناك ما هو أبداع يتمثل في الشجاعة الروحية والإيمان الروحي الذي يقهر الشك ويقشع الظلام، تلك الصفة التي تمنحها الصبغة العالية، وهي من مميزات كل شعر عظيم، وهذا يجعل الإنسان يواجه أعظم النكبات الشخصية بالثبات والإيمان^(١).

هـ - التأريخ الشعري

يسجل شعراء الأردنية والفراسية غالبا في أشعارهم تواريخ الأحداث الهامة كوفاة الأشخاص المشهورين أو تأسيس المباني الهامة أو جلوس الملوك على العرش، ويعتمد هذا الفن على أساس أن كل حرف من الحروف الأبجدية له قيمة عددية خاصة، وعلى الشاعر أن يؤلف أشعاره بحيث تُكوّن حروف البيت عددا يعبر عن سنة الحادثة المطلوب تأريخها، ومن هنا فإن الشاعر يستخدم مخيلته وبراعته ليمنح الأشعار قيمة فنية عالية، وفي بعض الأحيان يمكن الحصول على العدد المطلوب من كلمة واحدة في البيت مع الإشارة إليها بطريقة ملائمة . . ومعظم الشعراء تركوا عددا من هذه الأشعار، وإقبال أيضا له مثل هذه الأشعار لكنها لا تشمل أعماله المطبوعة، وهي تبين نبوغ إقبال ومقدرته في هذا الشكل الخاص من الفن الشعري، وهناك عدد من الشعراء يستخدمون آيات من القرآن الكريم لتدل على هذا التأريخ الشعري .

١ - وأول شعر تأريخي قام به إقبال كان أيضا من القرآن يشير فيه إلى وفاة سيد أحمد خان وهو ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك﴾ وهذا يطابق سنة ١٨٩٨ م،

(١) المرجع السابق ص ١٩٥ .

ومن الجدير بالذكر أن هذا التاريخ قد نقش على مقبرة سيد أحمد خان في علي كره، وبينما آلاف من الزوار قرأوه فإن القليل جدا منهم عرف أن إقبالاً قد استخدم هذه الآية مؤرخاً لوفاته وقد ذكر إقبال نفسه هذه الحقيقة للسيد محمد حسين قرشي^(١).

٢ - وهناك قطعة أخرى رائعة من الشعر التاريخي ألفها إقبال عن موت شيخ عبدالحق. يقول:

«حين شرب عبدالحق من كأس الشهادة

لتنزل رحمة الله على تراب قبره

أعطى صدق الفراق إلى رفاء شبابه

والأكمام قد جمعت لآليء الدموع المتناثرة من أجله

لقد خدم الله وخدم شعبه أيضا

وسنة وفاته ظاهرة من "غفران".

وسنة وفاة الشيخ عبدالحق يمكن حسابها كالتالي :

غ	١٠٠٠
ف	٨٠
ر	٢٠٠
ا	١
ن	٥٠
	<hr/>
	١٣٣١

وسنة ١٣٣١ هـ تطابق سنة ١٩١٣ م وقد أُلّف إقبال هذه الأبيات في أول يناير سنة ١٩١٣ م.

(١) مخطوطات إقبال ص ٥١.

٣ - وهذه الأبيات قالها إقبال مؤرخا لوفاة صديقه شاه دين رئيس محكمة البنجاب العليا :

«في حديقة دهر همايون، شيخ

جاء كالندي وهرب كرائحة الورد

إن غناء العندليب باحثا عن سنة الموت

سمع من الجوانب الأربعة جميعها صوت 'علامة فصيح'

ويحصل على سنة الوفاة بتضعيف القيمة العددية لحروف 'علامة فصيح' إلى أربعة والقيمة العددية هي ٣٣٤ تضعف أربعة مرات فيكون الناتج ١٣٣٦ هجرية تطابق ١٩١٨ ميلادية وهي سنة وفاة شاه دين .

٤ - والأشعار التالية تؤرخ للسنة التي طرد فيها كمال أتاتورك اليونانيين من ميناء أزمير :

«إن غصن إبراهيم يأخذ نداوته من المصطفى

والمصطفى أيضا هو مهدي آخر الزمان

استمع لو أنك تريد تاريخ الفتح

قال إقبال: «اسم أعظم مصطفى» .

والقيمة العددية لحروف 'اسم أعظم مصطفى' هي ١٣٤٢ هجرية تطابق سنة ١٩٢٢ م .

٥ - وآخر أشعار إقبال التاريخية تشير فينا كوامن الحزن العميق فهي تشير إلى وفاته هو ضمن مشنوي 'مسافر' وتطابق سنة وفاته عام ١٣٥٦ المطابقة لعام ١٩٣٨ م :

صدق وإخلاص وصفا باقي نمائد

(لم يبق هناك صدق أو إخلاص أو صفاء) (١)

ومن الضروري أن يكون إقبال قد ألف الكثير من الأشعار التاريخية إلا أن من بحثوا في هذا الموضوع قلة وقد كتب الأستاذ حفيظ هوشيار پوري مقالا بعنوان: "تاريخ گوئي إقبال"، وحاولت جاهدا أن أحصل عليه إلا أنني لم أتمكن من ذلك^(١).

و - الرباعيات

تتكون الرباعية من بيتين من الشعر ومن هنا عرفت في الفارسية باسم "دوبيتي" واعتبرها البعض أربع شطرات من الشعر ومن أجل ذلك أسموها بالرباعي أو بالرباعية، وقد يكون الرباعي عبارة عن بيتين مأخوذين من مطلع قصيدة أو غزل، ويشترط فيه دائماً أن يكون على وزن من الأوزان الخاصة المستخرجة من الهزج، كما يشترط فيه أن يكون وافيا بالغرض الذي أنشئ من أجله^(٢) على أن تتفقى مصاريعه الأول والثاني والرابع مع بعضها "أ ب أ"، وحين لا يكون الحال كذلك فإن هذا المقطع الشعري يعرف عادة باسم "القطعة"^(٣) وإقبال قد ترك لنا النوعين، الرباعية والقطعة، ويطلق كذلك على القطعة "الرباعية" ويقول دولت شاه: «لأن النقاد لم يعجبوا بهذا النوع "دوبيتي" فقد قرروا أن يسموا هذه المصارع الأربعة الرباعية^(٤)، وتحدث عن هذا أيضا محمد بن قيس الرازي^(٥)، وكذلك سليمان الندوي^(٦) ورشيد الدين الدين الوطواط^(٧).

(١) انظر قاضي احمد (اقباليات كا تنقيدي جائزه) س ٨٠.

(٢) براون، تاريخ الأدب في إيران. ترجمة الشواربي ص ٤٨.

(٣) S. A. Wahid: Iqbal p. 201.

(٤) دولت شاه. تذكرة الشعراء.

(٥) في كتابه المعجم في معابير أشعار المعجم.

(٦) كتابه عن عمر الخيام.

(٧) حدائق السحر طهران ١٩٣٥ م.

وأول شاعر كبير كتب الرباعيات هو بابا طاهر الذي اشتهرت رباعياته بسحرها وجمالها وترجمها آربري إلى الإنجليزية ثم جاء سعيد أبو الخير الذي تبعه عمر الخيام، أما في الشعر الأردني فقد تفوق القليل من الشعراء في فن الرباعيات وبالرغم من أن أنيس ودبير قد تركا بعض الأمثلة الرائعة فإن حالي قد ألف عددا من الرباعيات جديراً بالاعتبار لكن يمكن القول أن الشعر الأردني لم يخرج أي شاعر يوضع في مصاف ملوك الرباعية الفارسية حتى نأتي مؤخراً إلى أمجد الكاتب الشهير للرباعية في حيدر آباد الدكن .

وإقبال ترك لنا عدداً كبيراً من الرباعيات، وقد أثرت ضجة حتى أثناء حياته عما إذا كان ما كتبه رباعيات أم لا، إلا أن ما أشرت إليه عن الفرق بين الرباعية والقطعة يحل هذا الإشكال، وقد أشار الأستاذ عندليب شاداني الأستاذ بجامعة داكا إلى أن إقبالاً نفسه قد أشار إلى أن تلك الرباعيات أب ج ب ينبغي أن تسمى بالقطعة أما الرباعيات "أ ب أ" فهي تسمى الرباعية سواء كانت في بحر الهزج أم لا، وقد كتب إقبال بعض الرباعيات في حياته المبكرة لكن القليل منها وصل إلينا ومنها :

«إن مخالف الظلم والجهل قد حولتنا إلى البؤس

وكالمقص قصت أجنحتنا وريشنا

يا أيها الرب هلا حطمت ذراعي هذا الطاغى الكافر

الذي أحمذ أنفاس الحرية في كشمير» .

إلا أن المجموعة الأولى لرباعيات إقبال طبعت في پیام مشرق تحت عنوان "لاله طور" ويتبع هذا مجموعة صغيرة في بال جبريل وهي بالأردية لكن أكبر مجموعة طبعت هي في "أرمغان حجاز" . وهذه قائمة بعدد رباعياته ضمن مختلف أعماله :

پیام مشرق	١٦٣	بالفارسية
بال جبریل	٣٣	بالأردية

أرمغان حجاز ٤٠٧ منها ٣٩٤ بالفارسية و١٣ بالأردية
وبالنسبة لما أشرت إليه من الاختلاف التفصيلي عن الفرق بين الرباعية والقطعة
يمكن تصنيف الرباعيات السابقة على هذا الأساس:

پیام مشرق	٩٩ رباعية	٦٤ قطعة
بال جبریل	٢٢ رباعية	١١ قطعة
أرمغان حجاز	٣٦٢ رباعية	٣٢ قطعة

وإقبال في نهاية حياته وحين بدأت قوته الجسمية تضعف ضعفت بالتالي قدرته
على التركيز على الموضوعات المطولة، ومن هنا اتجه للتعبير في نوع آخر من الفن،
فنرى أنه في 'أرمغان حجاز' عمل على أن تكون الأربعة رباعيات قصيدة، وقسم
الرباعيات إلى الأقسام التالية: إلى الله، إلى الرسول، إلى الأمة، إلى الإنسانية،
إلى رفقاء الطريق. وتحت كل عنوان كانت هناك رباعيات متنوعة ومتراصة، وهذا
النظام موجود في الفيدا كتاب الهندوس المقدس الذي يتكون من أنواع مترابطة من
الرباعيات تُكوّن ما يعرف باسم 'سوكتا' (١).

الخصائص المميزة لرباعيات إقبال:

١ - رباعيات إقبال فيها الجمال والتنوع ومميزاتها الرئيسية تتمثل في القافية
واتساق اللحن واستخدام الجناس والسجع مما يضفي صوتاً سحرانياً:

«إني أتباهي أنني فقير دوغما حاجة

أضطرب، أحترق، أذوب، أعزف على الناي

إن نعمتي قد جعلتك متوهجا

إني أصنع المرأة مع كوني من سلالة الإسكندر».

٢ - كما تمتاز بما تحوي من العاطفة والتلقائية والعفوية والخيال وهذا يجعل من

ويرى الله في نور الذاتية».

٥ - والحقيقة أنه لا يوجد هناك شاعر في الأدب الأردني أو الفارسي خلّف - مثل إقبال - رباعيات غطت باتساع الموضوعات السياسية والفلسفية، وموضوعات الزهد والهجاء والسخرية والفكاهة:

«إنه العشق الذي لوّن أوراق برعم شقائق النعمان

إنه العشق الذي أثار أسى أرواحنا

لو أنك تستطيع أن تشق هذه الأرض الطينية

فانظر إلى داخلها فهناك انسكاب دم العشق».

«إن حديثي كله مع طيور الخميّلة

حديثي مع البراعم كان دوغماً نطق

حين أموت سوف أخلط ترابي بالصبا

فأنا لا أعرف سوى صحبة الورود».

«عالم اللون والرائحة واجب المعرفة

قطف الورود في هذا الوادي واجب

ومع ذلك لا تغلق عينيك عن الذات

فهناك شيء في روحك رؤيته واجبة».

«اعط أهتي السحرية للشباب

ثم اعط صغار الشاهين الريش والأجنحة

رباعياته وحادّة طبعية محببة :

«لست أفغانيا ولا تركيا ولست من أبناء التتار
فقد ولدنا في حديقة واحدة، وترينا تحت غصن واحد.
إن تمييز اللون والرائحة حرام علينا
فنحن أطفال ربيع واحد».

٣ - كما أنه يستطيع أن يحول حقائق الحياة المألوفة بعصاه السحرية الفنية إلى
شعر أصيل، وعلى سبيل المثال :

«إنك عبد للصوفي والملا
إنك لم تأخذ الحياة عن حكيم القرآن
ليس لك بآيات القرآن شأن
إلا أن تموت بسهولة - بعون - سورة يس» .
ويقول في رباعية أخرى :

«إن البرهمن يرعى عمله بحماس
لم يقل أسراره لأحد
نصحني أن أترك التسبيح
بينما هو يحمل زناره على كتفه» .

٤ - كما أن زهده الذي يختلف عن رهبانية الصوفية يضيف الأصالة على
رباعياته :

«انقل عني هذه الكلمات للصوفي الطاهر :
إنك تبحث عن الله وتعرف كل الرقة واللفظ
ومع ذلك فإنني أحترم الرجل الذي يُقدّر الذات

يا إلهي ليس لي إلا رغبة واحدة
أن تعطي الجميع نور بصيرتي».

«أعطني الحرقه الداخليه لأسلافنا
واجعلني شريكاً في زمرة " لا يحزنون"
إنني قد أمسكت لجام العقل
يا مولاي اعطني جنون الحب».

«إن أحداً لم يعزفي على الناي
النفس من الهند لكن النغمة عربية
إن النظر قد تلتخ بطرق الإفريخ

وبطبع الغزنوي يكون حظ أياز (بطبع السيادة يكون حظ العبيد)

ومن هنا يمكن أن نضع إقبالاً بدون تردد في مصاف أكبر شعراء الرباعيات في
الفارسية والأردية مع بابا طاهر وسعيد أبي الخير، وعبدالله الأنصاري^(١)،
وأستشهد هنا بقول أبريري: «إن لاله طور تشمل بعض الأشعار على درجة عالية
في الأدب الحديث، وأولئك الذين يستطيعون قراءة رباعيات إقبال فقط عن طريق
الترجمة قد يفشلون في اكتشاف مالها من سحر وجمال، خاصة بعد قراءة ترجمة
الحيام، لكن ينبغي أن يثبت في الذهن أنه ليس من الصائب أن نقارن بين الشاعرين
عن طريق الترجمة فقط؛ فالشعر يجب أن يُقرأ بلغته الأصلية»^(٢).

(١) S. A. Wahid: Iqbal p. 212.

(٢) Arberry: Poems of Persian Suft p. 8.



القسم الثاني

- ٢ -

أرمغان حجاز

[هدية الحجاز]

أولاً : محتوى الديوان

١ - النظم الفارسي :

تبدأ كتابة الرباعيات بالمتصوف الشهير بايزيد البسطامي كما ألف بعض الفلاسفة، ومنهم الفارابي بعض الرباعيات كما أنهم ينسبون بعض الرباعيات لابن سينا؛ إلا أن باب طاهر هو أول الشعراء الكبار الذين كتبوا رباعيات، وقد اشتهرت رباعياته بسحرها وجمالها، وتبعه سعيد أبو الخير حتى جاء عمر الخيام، وفي الشعر الأردني تفوق قليل من الشعراء في كتابة الرباعيات، وبالرغم من أن أنيس ودبير تركوا بعض الأمثلة الرائعة فإن حالي أيضاً ألف عدداً من الرباعيات جدير بالاعتبار إلا أنه يمكن القول بأن الشعر الأردني لم يخرج شاعراً يوضع في مصاف ملوك الرباعيات الفارسية حتى جاء أمجد مؤخرًا فاشتهر في حيدر آباد الدكن بكتابة الرباعيات، وجاء إقبال فترك عدداً كبيراً من الرباعيات.

وإقبال كتب بعض الرباعيات في حياته المبكرة لكن القليل منها وصل إلينا، إلا أن المجموعة الأولى لرباعيات إقبال طبعت في " پیام مشرق " تحت عنوان " لاله طور " بالفارسية وتبع هذا مجموعة صغيرة في " بال جبريل " بالأردية؛ إلا أن أكبر مجموعة طبعت كانت في " أرمغان حجاز " فإقبال كان كلما تقدم به السن تقل قدرته على التركيز في كتابة الموضوعات المطولة، ومن هنا وجد بغيته في هذا الفن

الخفيف وهو فن الرباعية، وفي "أرمغان حجاز" تابع إقبال نفس الترتيبات التي اتبعها أربري في ترجمته لبابا طاهر إذ جعل ستين رباعية تشكل خمس عشرة قصيدة^(١)، وإقبال قسم رباعياته الفارسية في "أرمغان حجاز" إلى الأقسام التالية:

إلى الحق، إلى الرسالة، إلى الأمة، إلى العالم الإنسان، إلى رفقاء الطريق.

وتحت كل عنوان وضع رباعيات مختلفة مترابطة في مقطوعات تمثل قصائد مختلفة، وسوف أجمل الحديث عن هذه الأقسام:

إلى الحق تبارك وتعالى

يصدر هذا القسم بالرباعية التالية:

«ما أسعد ذلك المسافر الذي لا يحمل متاعا

قلما يقبل قلبه نصيحة الأحباب

افتح الصدر بأهته المحرقة

فأهة واحدة من آهاته تقضي على حزن مائة عام».

ينطلق بعد هذا إلى حديث يفرض بالفلسفة والزهد؛ فبينما يذكر الخمر والعشق يتحدث أيضا عن الوجود والعدم ولغز الكم والكيف، ويتضرع إلى الله أن يدلّه على السجود الذي يبغيه وأن يعطيه حزنا يليق بقلبه فهو لا يخشى الأحزان لكنه يريد حزنا من منزلة معينة ومن أقواله التي تسير مسار الحكمة: «من الأفضل أن تبعد الشر عن مزرعة الغاب» وهو يناجي ربه:

«أنا عبدك لا أبغي سوى رضاك

ولا أسلك طريقا، إلا ما أمرت به».

ينتقل الشاعر من ذلك إلى الحديث عن الدين والوطن والإفرنج وفقهاء

الإسلام، يقول:

«القوم الذين أطلب منك الفتح لهم

فقيههم بلا يقين، قليلو الذوق

رأيت أشياء كثيرة غير جديرة بالرؤية

ألا ليت أمني لم تلدني» .

وفي هذا القسم أيضا قال رباعيته الشهيرة قبل وفاته بقليل:

«الأنغام التي مضين قد تعود أو لا تعود

قد تهب رياح الحجاز أو لا تهب

انتهت أيام هذا الفقير

وقد يأتي عالم آخر بالأسرار أو لا يأتي» ! .

وإقبال لا يعجبه ما كان عليه العصر الذي يعيش فيه:

«قلما رأت السماء عصرا كهذا

ذلك الذي يجرح قلب جبريل الأمين

ما أجمل ذلك الدير الذي بنوه هناك

حيث المؤمن يتعبد والكافر ينحت» .

وَيُبَيِّنُ إقبال حال المسلمين والأمة الإسلامية، ويتضرع إلى الله أن يخلق أمة

أخرى تقيم فرائض الإسلام:

«ارسم أمة أخرى تضع العمل نصب عينها

أمة أخرى تأخذ العسل من الزنبار

أمة أخرى لا ترضى بعالم واحد

أمة أخرى تحمل الدارين على كاهلها» .

ويشير إلى أحوال الهند المضطربة المتغيرة ومسلميها المستعبدين الذين ضعفوا
 ووهنوا بسبب " المحكومية " ثم يناجي الله :
 «ألا ترى كيف أننا نحن الترابيون
 زينا هذا المنزل الترابي» .
 ويختم هذا القسم بالحديث عن نفسه :
 «حين يصل هذا العالم العجوز إلى نهايته
 وينكشف كل تقدير خفي
 فلا تخجلنا أمام سيدنا
 ولتحاسبنا عن أعمالنا في خفاء عن نظره» .

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

يُصدّر هذا القسم بيت للشاعر عزت البخاري :
 «يوجد تحت السماء مقام أرق من العرش ، يستلزم الأدب هو ذلك المقام الذي
 يحضر إليه جنيد وبا يزيد تانهي الأنفاس» .
 وهذا القسم كسابقه لا توجد به عناوين داخلية ، ويبدأ إقبال بالحديث عن
 الرسالة التي انبعثت من قلب الجزيرة العربية ، ومن هنا ظهر الأثر العربي واضحا
 جليا في شعره : الخيمة والرحيل والمحمل . . إلخ ، ونرى دقة إقبال في اختياره
 للألفاظ المناسبة لموضوعه وأفكاره :
 «هربت مسرعا من هواء القرية والمدينة
 وفتحت باب القلب لهواء الصحراء» .
 ويقول :
 «ذهبت به إلى الصحراء فصار أكثر حزنا

وعلى حافة جدول أخذ يبكي بكاء مرأاً .

وها هو بشاعرية ساحرة يطوف بصحراء العرب على ناقته :

«قلت للناقة وقت السحر: تهدي في سيرك

فالراكب مجروح ومريض وعجوز

فسارت تخطو كالسكران حتى إنك تظن

أن رمال الصحراء أضحت تحت قدميها حريراً» .

ويستمر في حديثه عن الناقة :

«شد اللجام لا يلبق بها أيها الحادي .

فروحها بصيرة كروحنا

عيونها السوداء ندية بالدموع ، والخمر التي تنسكب

دوماً من موج نظرتها تضيء وتشعل ضميري» .

ومن الحديث عن الناقة ينتقل إلى الحديث عن الصحراء وجمالها حيث تمضي

القوافل ، وتُتلى الصلوات ، وتساق المحامل ، وهو رغم جهله بالنغمات العربية إلا

أنه صار شريكاً مع نغمات ناقته التي ترافقه وهو يريد أن يزيد الغم والحزن ، وأن

تزيد التضمرات ويطول الطريق :

«اجعل غم المسافر أكثر نشاطاً

اجعل تضمراته أكثر جنونا

اختر أيها الحادي الطريق الطويل

واجعل حرقة فراقي أشد حرارة» .

وينوح مما أصاب الهند :

«أنوح لأنني لم أر في بلاد الهند

عبداً محرماً لأسرارك».

«ليل عبيد الهند ليل بلا نهار

والشمس على هذه الأرض ليس لها معبر».

ويصف حال المسلمين، فالمسلم لم يبق في دمه الحرارة ولا الوهج، ولم تنبت شقائق النعمان في حقله الخرب، وغمد سيفه فارغ كحافضة نقوده، وقلبه أسير للون والرائحة، وباب القلب مغلق في وجهه، والذات لم تظهر في كف ترابه، وضميره خال من صوت التكبير، وجيبه ممزق ويعيش دون أن يفكر في الرقاء، وعيناه خاليتان من النور والسرور، كما يذكر أيضاً أن الملوكية من أولها إلى آخرها خداع واحتيال، ويتبع هذا بوصف للمسلم الحقيقي:

«جسد المسلم متين

وجبه يملؤه الأحكام والصرامة

رأى الطبيب الحكيم من نظراته بأن

الذات في داخله نشوانة نشطة».

«مع أن المسلم ليس لديه فوارس ولا فرسان

إلا أن ضميره كضمير الملك

ماذا لو يهبوه مقامه ثانية

فجلاله، وجماله لا حد لهما».

ولم ينس أن يشير إلى التصرف البدعي البعيد عن الإسلام الذي أدى بالمسلمين إلى التخلف، يقول عن الشيخ الهندي:

«متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة

كلامه كله ظن وتخمين

حتى الآن إسلامه زناري

وحين صار الحرم ديرا أصبح هو من براهمته» .

وبين كيف اتجه المسلمون إلى طريق هذا التصوف البدعي وإلى مقامات الأولياء

«اصطف الفقراء بالمسجد

ومزقوا جيوب الملوك

حين خبت تلك النار داخل الصدور

بدأ المسلمون يزحفون إلى خرابات الأولياء» .

والمسلمون متنازعون فيما بينهم ، ولو أخذ أحد لبنة من المسجد الذي لا يقربونه ولا يصلون فيه ، فكل ما يفعلونه هو البكاء فقط ، وهذا هو حال مسلمي اليوم مع المسجد الأقصى :

«المسلمون يتنازعون فيما بينهم

لا يرسمون على قلوبهم إلا رسم الشرك

لو يأخذ أحد لبنة من ذلك المسجد الذي

يهربون منه ، يبكون عليها» .

ويستمر يحكي أحوال المسلمين موضحا لهم الطريق السليم ، ولا ينسى أبداً

التحذير من الغرب والإفرنج :

«ذقت الخمر من حانة الغرب

واشترت الصداع بروحي

جلست مع وجهاء الإفرنج

فلم أر يوماً أسقم من هذا» .

ويرى ضرورة الاعتماد على الله فقط :

«لم أعط زمام قلبي لأحد

حللت العقدة عن وجه العمل بنفسي

اعتمدت على غير الله مرة

فسقطت من مقامي مائتي مرة» .

ثم يخاطب صاحب الرسالة محمد ﷺ :

«أنت الذي جلبت النظر إلى عيني

أنت الذي جئت بنور لا إله إلا الله إليّ

واجهنني بصبح من رأني

فأنت الذي جئت بنور القمر لليلي» .

ويناجي الرسول :

«اعط لنهري من بحرك جوهراً

اعطني هديراً من طوفان آخر . . .»

«انظر في جلوة غنائي على الناي

انظر ذوباني في خلوتك

انظر إلى استغنائي عن السلطان» .

ويقدم آخر ما يقدم نصيحته الخالدة إلى ملوك العرب في زمانه :

«اجعل بينك وبين صنم الإفريج بونا شاسعا

فعهده وميثاقه لا يساوي حبة شعير

خذ النظرة من عين الفاروق

وضع القدم الجريء في العالم الجديد» .

إلى الأمة الإسلامية

ويندرج تحت هذا العنوان عناوين داخلية :

- | | |
|--|-------------------------|
| ١ - أوثق قلبك بالحق واسلك سبيل المصطفى | ٢ - الذات |
| ٣ - أنا الحق | ٤ - الصوفي والملا |
| ٥ - الرومي | ٦ - رسالة الفاروق |
| ٧ - شعراء العرب | ٨ - يا ابن الصحراء |
| ٩ - أتدري . . . ؟ ربما يكون في هذا الغبار فارس | |
| ١٠ - الخلافة والملوكية | ١١ - الأتراك العثمانيون |
| ١٢ - بنات الأمة | ١٣ - العصر الحاضر |
| ١٤ - البرهمن | ١٥ - التعليم |
| ١٦ - البحث عن الرزق | ١٧ - التمساح مع ابنه |
| ١٨ - خاتمة | |

١ - أوثق قلبك بالحق واسلك سبيل المصطفى :

يوضح إقبال الطريق أمام الأمة فهو يطلب منها أن تقطع منازل سفرها كقمر جديد، وأن تكبر في هذا الفضاء الأزرق، ولو شاءت مقامها في هذا العالم؛ فينبغي أن توثق قلبها بالحق، وأن تسلك سبيل المصطفى، وينتقل إلى حديث يضمه القصص القرآني والآيات القرآنية، ونظرية الإنسان الكامل والذات وحكايات الشعوب:

«غضب مني النمروود إذ إنني اجتهدت في تعمير الحرم»^(١).

«وبلحن لا هو شرقي ولا هو غربي

(١) إشارة إلى قصة النمروود مع إبراهيم . انظر ترجمة الديوان.

أعزف أغنية من مقام " لا تخف " ^(١) .
 «المسلم العارف بذاته إنسان كامل
 الذات في تراه حاكمة محكومة» .
 «لو أنك تعرف أن الذات متاعك
 فحرام أن تعقد على سواها اهتمامك» .
 «فتحوا للأتراك الأبواب المغلقة
 ووضعوا للمصريين أسساً محكمة» .
 وبيت الأمل في الأمة :
 «أعطى الله تلك الأمة القيادة
 تلك الأمة التي كتبت تقديرها بيدها» .

٢ - الذات :

وهو يشير هنا إلى ضرورة تتبع من يعمل على إثبات ذاته ، وضرورة البحث عن
 الطريق الصحيح بالاجتهاد كما فعل السلف الصالح ، ثم يقول :

«ليس بقلبك أثر جراحات مختفية

ليس فيه قوة وحرارة المسلم

لقد رويت بستان ذاتك

من ذلك البحر الخالي من الطوفان » .

٣ - أنا الحق :

يبين هنا أن ما يناسب الأمة الإسلامية هو " أنا الحق " يشير بذلك إلى مدلول
 قول الحلاج الشهير لكن المعنى عند إقبال يختلف فهو يعني إثبات الذات (انظر

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ .

كتاب د. عزام)، ويمجد بعد ذلك الأمة الإسلامية فمقامها عال وسط الأمم، وهي إمام للدارين، همتها هي شرح أنا الحق، أي إثبات المسلم لذاتيته وتفرده بين الأمم الأخرى، هي في البساتين عندليب حسن التغريد وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض، الأمير فيها فقير رغم كونه سلطانا، والفقير فيها أمير رغم كونه درويشا.

٤ - الصوفي والملا:

يحذر الشاعر مسلمي الأمة :
 «أنت أسير في قيد الملا والصوفي
 أنت لا تأخذ الحياة عن حكمة القرآن
 ليس لك بآيات القرآن شأن
 إلا أن تموت بسهولة بسورة يس» .
 ثم يتهم على الصوفي والملا :
 «سلامي على الصوفي والملا
 فقد بلغوني رسالة الله
 لكن تأويلاتهم أوقعت في الحيرة
 رب الخلق وجبريل والمصطفى» .

٥ - الرومي :

أفرد إقبال هذا العنوان للرومي قائده ومرشده، فتحدث - رمزاً - عن الخمر المعتوقة التي لا يساوي ملك برويز كأساً منها، ويشير إلى تأثير هذه الخمر عليه :
 «أخذت نصيباً من قوتها وحرارتها
 ليلىك من كوكبها أصبح كالنهار
 انظر الغزال في صحراء الحرم

تنساب من شفيتها ضحكة الأسد».

كما يوضح أهمية شعر الرومي :

«عليك أن تعلق أشعار جلال الدين الرومي على حائط حرم القلب».

ويقول في نهاية حديثه :

«خذ من الرومي أسرار الفقر، فلدى قدرأ

من تلك النار التي أثارها السنائي منذ البداية في قلب الرومي».

٦ - رسالة الفاروق :

كتب الشاعر هذه الرباعيات حين اعتلى ملك مصر السابق العرش وبدأها

هكذا :

«هبي يا رياح الصحراء من جزيرة العرب

وأثيري موج نيل المصريين

وبلغي فاروق رسالة الفاروق

بأن يمزج في نفسه الفقر والملك».

ثم يقدم مجموعة من النصائح : «الخلافة هي أن يكون الفقر مع التاج والملك»،

«الشاب الذي يعرف نفسه تماما هو الذي يستطيع أن يعيد خلق العالم القديم»، «افتح

جميع الأبواب أمام العقل والقلب»، «خذ قدحا من شيخ كل خمارة» ثم يختتم

حديثه بنصيحة جامعة :

«إن من يعرف أسرار اليقين

يجعل النظرتين نظرة واحدة

وقد مزجوا كنور قنديلين

فلا تفكر في التفريق بين الملك والدين».

٧ - شعراء العرب :

يعرف إقبال شعراء العرب بنفسه، وينصحهم بأن يتركوا وصف الأطلال،
ووصف الصور الجميلة، وأن يتجهوا إلى الضمير والروح :

«امنح تراب تلك الأمة الحمية والحرارة

حتى تولد الشمس من ليلها

أنشد تلك الأغنية فمن فيضها

تهبها ذوق الثورة مرة ثانية» .

٨ - يا ابن الصحراء :

يخاطب العرب فيأمر ابن الصحراء أن يقلع خيامه ويرحل، فلا حياة دون تذوق
الرحيل، والله قد جعل العرب أدلاء للقوافل .

٩ - اتدري ؟ ربما يكون في هذا الغبار فارس :

ويشير إقبال هنا إلى الصورة المشهورة، صورة الغبار الذي يثيره الفارس من
بعيد فلا يرى الناظر سوى الغبار، وقد يكون هناك فارس حقيقي أو لا يكون سوى
خداع البصر :

«إني مضطرب كغبار الطريق

الذي يكون دوما فوق أكتاف الهواء

يا للحظ السعيد ويا للأيام الحلوة

لو يخرج مني فارس !!»

فليس من كل غبار يظهر فارس بل إن ظهور الفارس يحتاج إلى غبار من نوع
خاص، وطالما أشار إقبال إلى الإنسان على أنه قبضة غبار .

١٠ - الخلافة والملوكية :

يقول إقبال عن الخلافة الرشيدة :

«أحرق العرب أنفسهم بنور المصطفى

فأضاء مصباح الشرق المنطفيء

لكن تلك الخلافة ضلت الطريق

فقد علمت المسلمين في البداية طبع الملوكية»^(١).

ويفضل طريق الخلافة :

«الخلافة شاهدة على مقامنا

وغيرها حرام علينا

فهو مكر وخداع واحتيال

أما الخلافة فهي حفظ الناموس الإلهي».

١١ - الاتراك العثمانيون :

وركز في حديثه إليهم على اتجاهاتهم الرامية إلى تقليد الإفرنج :

«صار العثماني أميراً في بلده

قلبه مطلع ، عينه بصيرة

لا تظن أنه وجد الخلاص من قيد الإفرنج

فهو حتى الآن أسير في طلسمهم».

١٢ - بنات الأمة :

يقدم النصيح والإرشاد إلى بنات الأمة الإسلامية يحذرن من الافتتان والدلال

وتصنع الجمال :

(١) يشير إلى ظهور الدولة الأموية والدولة العباسية.

«تركن أيتها الصغيرات هذا الافتتان
فهذا الدلال لا يناسب المسلمات
لا تعلقن قلوبكن بالجمال المصطنع
وتعلمن جذب القلوب بالنظرة» .

واقبال يحبذ الحجاب للمرأة فالحجاب يزيد من عظمتها، فالفه رغم أنه في حجاب إلا أن تجلياته ظاهرة. ويؤكد أهمية دور الأم في المجتمع :

«العالم متين محكم بسبب الأمهات
فوجودهن أمن لهذا العالم
لو لم يعرف القوم هذه الحكمة
فلن يكون نظام عملهم مُحكماً» .

١٣ - العصر الحاضر :

تحت هذا العنوان كتب يقول :

«ما هذا العصر الذي يستغيث منه الدين
آلاف القيود كامنة في طريق نجاته» .

ويبين بعد ذلك مساوئ العصر، وكيف أنه معلم سيء للشباب، بل إنه نهار لليلة إبليس، وهو بلا نور وبلا حرارة.

١٤ - البرهمين :

يشير هنا إلى محاولة البرهمين خداعه، حين نصحه بأن يترك التسبيح، بينما هو نفسه يحمل زناره على كتفه، كما يلمح هنا إلى غاندي والمنادين بفكرة القومية :

«قال البرهمين انهض من باب الغير
فإنه لا يأتي من المواطنين إلا الخير

لا يتسع مسجد واحد لشيخين
ومن سحر الأصنام يتسع الدير لكثيرين» .

١٥ - التعليم :

ماذا يقصد إقبال بالتعليم هنا؟ الإجابة في هذه الرباعية :

«أن تكون القوة والحرارة خالدة

فهي سوط لجواد الحياة

فعلم الأولاد هذه القوة والحرارة

لأن الكتاب والمكتب سحر وخرافة»

ويقرر أهمية إرشاد الأطفال وتأديبهم وتعليمهم :

«علم ولدك الدين والعلم

لكي يتألق مثل القمر، ويصنع نجوم خاتمه»

١٦ - البحث عن الرزق :

يجب ألا يرضى الإنسان بالعمل القليل، والإنتاج القليل، بل يجب أن يكون
لديه الأمل والقوة على أعلى المستويات، وها هو يتحدث عن الشاهين :

«من الأفضل أن يموت في العش من أن يكون

له صيد ضامر كقبضة ريش» .

ويقول :

«لقد أعطينا البحث عن الرزق

لكي يكون ذريعة لفتح الأجنحة»

١٧ - التمساح مع ابنه

يسوق إقبال مسائل فلسفية على لسان التمساح، وكثيرا ما اتبع الشعراء هذا الأسلوب حيث تخرج الحكمة على لسان الحيوانات والطيور:

«أنت لست في النهر لكن النهر في حضنك»

«لو استرحت برهة من طوفانك

فإن هذا البحر - الذي هو بحرك - يسبب لك الموت»

١٨ - خاتمة :

يُنهي بها حديثه موضحا هدفه من كل ما سبق :

«لم أقل شيئا عن الساقى أو الكأس

لقد قلت حديث العشق بصراحة

وما سمعته من طاهري الأمة

أخبرتك به بنشوة السكير» .

ثم يختم حديثه بأسلوب هادئ :

«ارجع إلى نفسك وتمسك بأطراف القلب

اجعل من داخل صدرك مستقرا ومقاما

اسقي هذا الزرع من دمك الصافي

فإني بذرت الحب ، وأنت عليك بالحصاد .

إلى العالم الإنساني

يصدر إقبال هذا القسم بيت من ديوانه ؛ جاويد نامه ^(١)

«الإنسانية هي احترام الإنسان»

فاعرف مقام الإنسان»

١ - تمهيد :

يبدأ هذا القسم بتمهيد يليه سبعة أقسام في عناوين داخلية منفصلة ؛ فبعد أن وجه حديثه إلى الحق ، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الأمة الإسلامية يوجه حديثه هنا إلى العالم الإنساني جميعه ، وفي التمهيد يسوق حديثه مرة على لسان حمامة ومرة على لسان جمل :

«ما أطيب ما قالت الحمامة لابنتها

إنك لن تستطيعي أن تعيشي بالطبع الناعم كالحرير

لو صحت " ياهو " من سكرة الشوق

فإنك تستطعين أن تنزعي التاج من رأس الصقر»

«ما أطيب ما قال الجمل لصغيره

سعيد من يعرف عمل نفسه

نحن أقدم من جاب الصحراء

فتعلم منا أن تحمل أثقالك على ظهرك»

وقد جعل التمهيد كله نصائح متتابعة :

«لا تترك مصباح الأمل من الكف» ، «حذار أن تضيع وسط أركان الدنيا» .

(١) انظر ترجمة د . حسين مجيب المصري للديوان بعنوان "إلى السماء" ودراسة : د . سعيد جمال الدين للديوان نفسه .

«احفظ أيها الموج وارع اضطرابك»، «عليك أن تشد الدارين إليك»
 «لا ينبغي الهروب من الحضور أمام الذات»، «انظر حاضرك في نور الأمس»،
 «تحرر من الحزن والغم واحفظ أنفاسك، لأن الصدر المملوء بالأنفاس ليس فيه
 غم»، «أخرج الحقد من صدرك».

٢ - القلب :

يوضح ماهية وأهمية القلب للإنسان :

«قلبنا نار والجسد موج دخانها»، «تماسك القلب يكمن في التهجد»، «ما لم
 يوجد في صدر الإنسان قلب يكن العقل كالقيد» وإقبال هنا يركز على الإلهام
 والمعرفة الإلهامية التي تتم عن طريق القلب .

٣ - الذات :

الحديث عن الذات هو حديث إقبال الدائم :

«الفراق من مقامات وصالها

وصالها من مقامات الفراق»

وعن أهمية الأمل للذات يقول :

«الذات تتحول بالأمل إلى سيف

يفصل بين الألوان والروائح»

٤ - الجبر والاختيار :

في هذا القسم لا ينسى الحديث عن أوربا والإفرنج بل يمزج بين الحديث عنهم
 والحديث عن القدر :

«قال لي راهب عجوز من روما :

لدي حكمة فاحفظها

كل قوم يخلقون قضاءهم بيدهم

فأهلكك القدر وأهلكنا التدبير» .

٥- الموت :

والموت عند إقبال خجل أمام الله لأن الموت يخطف روح الإنسان :

« اعطه الثبات فهو أمير الجهات الست

وييده زمام الكائنات

لا يخجل من ذل الموت

لأنه ليس محرماً لأسرار ناموس الحياة»

٦- قل لإبليس :

يسائل الشاعر إبليس : « إلى متى هذا الانتفاض تحت الشبكة؟ ويعدد بعد ذلك

صفاته :

« لقد أخرجوك عن عتباتهم

وسموك بالرجيم والكافر والطاغوت

إنني في اضطراب وألم منذ صبح الأزل

من الشوك الذي غرسه في القلب»

٧- إبليس الترابي وإبليس الناري :

يقصد الشاعر بإبليس الترابي إنسان هذا العصر الفاسد :

« فساد العصر الحاضر واضح بين ، الفلك خجل من قبحه»

« الإثم يصير سقيماً لو يكن إبليس ترابي الأصل»

« لا تكن صيداً لأبالسة هذا العصر

فدلالهم لائق للأخساء

فما أحسن إبليس للأصلاء

فهو قد رأى الله وعياره كامل»

وهدف إقبال من حديثه هنا أن يحذر من أبالسة العصر الحديث :

«مع أن هذا بعيد عن فهم الدون

لكن ينبغي قول هذه الحكمة

إن العاصي الغيور في طبعه

لا يجاري هؤلاء الأبالسة الجدد»

إلى رفقاء الطريق

لا توجد عناوين داخلية في هذا القسم إلا أنه مقسم إلى خمسة أقسام صدرها

إقبال بهذه الرباعية يخاطب فيها رفيق الطريق :

«تعال نصنع لهذه الأمة شأنها

تعال نقامر في الحياة كالرجال

ولتبتك في مسجد المدينة

حتى نذيب القلب في صدر الملا»



يتحدث في هذا القسم عن القلندر :

«القلندر هو الباز الجريء في السماوات

تصبح الأثقال على جناحيه خفيفة

الفضاء الأزرق ميدان صيده

فهو لا يحوم حول الأوكار»

ويتنقل إلى الحديث عن الرومي وأثر المعرفة والإدراك الإلهامي :

«تأتيني من المنطق نكهة غير ناضحة

فدليله دليل نقص

ويفتح الأبواب المغلقة أمامي

بيتان من شعر الرومي أو الجامي»

كما يتحدث عن الخمر، والعود الذي كان يتغنى به الرومي، إلا أن حديث إقبال من نوع آخر^(١) :

«أحمل بين يدي نفس العود

ففي داخله أهات وصراخات متنوعة

خيوطه وأوتاره من عروق الحجر

لكني أضرب عليها بأظافر الأسد»

وكما يفعل دائماً يذكر القصص القديمة فيشير إلى قصة فرهاد وپرويز، ثم يحذر من طريق العقل :

«العقل غريب عن ذوق اليقين

قمار العلم والحكمة لا يأتي إلا بنتيجة سيئة»

ويختتم حديثه بآخر ما قال في أيام حياته :

«حين جمعت متاعي راحلاً عن هذا العالم

قال الجميع : إننا نعرفه جيداً

لكن أحداً لم يعرف عن هذا المسافر . . .

ماذا قال؟ ومع من تكلم؟ ومن أي جاء؟»



وهذا القسم عبارة عن رباعية واحدة يتحدث الشاعر فيها عن القلب والضمير والفقير الغني بفقره، وأن ما على كتف الغني الكافر ليس قباء ولكن سرج من حرير .

(١) فهو يرفض التصوف بمعنى الخمول والرهينة وبمعنى البعد عن الشريعة وأصول الدين . كما يرفض التفلسف والتأويل وما إلى ذلك .

﴿ ٣ ﴾

والقسم الثالث مملوء بالنصائح: «لا تُخجل الحرم أيها الجاهل فأنت تسجد وتركع لدارا وجمشيد»، «لا تلمس حاجتك لدى الإفرنج»

«انزل هذا الصنم من طاق القلب» «لو حفظت الذات في حالة الفقر والاحتياج للملكت أيها الفقير الدارين» ثم يشير إلى قصة إبراهيم والنمرود:

«لا يخاف الإبراهيميون النماردة لأن النار عيار للعود الخام»

ويحذر كما هو دائماً من الإفرنج:

«لو أن هذا البهاء والعز من الإفرنج

فلا تضع جبينك على باب أحد سواه»^(١)

﴿ ٤ ﴾

يوضح أن المسلم الذي يعرف سر الدين لا يضع جبينه إلا أمام الله وأن جلال الكبرياء في قيام المسلم، وجمال العبادة في سجوده، وقراءته للقرآن دعوة للعالمين:

«تلاوته دعوة للعالمين

ووجود المسلم الحي يكون من ركوعه

إن قتيل هذا العصر الخامد لا يعلم

كم من القيامات مضمرة في قيامه للصلاة»

﴿ ٥ ﴾

وهذا القسم هو آخر أقسام الديوان وخاتمة النظم الفارسي ولذا فهو يقول:

«لا حاجة إلى الإسهاب في بيان القصة

فإنني أستطيع أن أكشف السر الخفي في حرف واحد

(١) أي سوى الله.

لقد أعطى المسلم دنياه إلى التجار
 ماذا يعرف " اللامكان " عن قيمة المكان؟
 «الجنة لطاهري الحرم
 الجنة لأصحاب الهمم
 قل للمسلم أن يفرح
 فالجنة أيضا لمن يعمل في سبيل الله»
 «ليس للقلندر رغبة أن يلقي خطبة
 ليس عنده ترياق سوى هذه الحكمة
 (لا محصول من ذلك الحقل الخرب
 الذي لم يرو بدم الشبير)».

٢ - النظم الأردني

المنظومة الأساسية في هذا النظم هي منظومة "مجلس شوري إبليس" التي نالت شهرة عظيمة تدل على أهميتها، ويلى هذه المنظومة عدة منظومات، تتفاوت في الطول، وتختلف في المضمون والشكل.

بالإضافة إلى "مجلس شوري إبليس" يوجد "نصيحة بلوتش العجوز لابنه" "الصورة والمصور" "عالم البرزخ"، "الملك المعزول"، "مناجات ساكني جهنم"، "مسعود المرحوم"، "صوت من الغيب"، "رباعيات"، "مذكرات ملازاده ضيفم".

مجلس شوري إبليس:

إبليس في هذا العالم يقرب الخير، ويقيم الشر. وقد لَوّن الكون بدمائه، وقبح طريق الخير والاجتهاد، هذا بينما خلق لنفسه مكانا في نظام الكون. ولإبليس صورة خاصة في شعر إقبال تتوافق مع أساسه الفكري فإقبال يوضح انعكاس

العظمة في سيرة إبليس، وهذا تصور جديد تماما في الشعر، وربما استمد إقبال هذا التصور من شعراء الغرب المشهورين مثل ملتن وجوته، فإقبال يشترك معهم في بعض الأشياء فكل منهم لديه حمية شديدة لدينه، وكل منهم ليس لديه فكرة التطور المحض، فالشيطان عند ملتن نموذج لا مثيل له من حيث الشجاعة والفراسة والهمة والجرأة والصبر والاستقلال والرحمة والكرم والسعي والنشاط، وملتن أعطى سمو الفكره، وأصالة عظيمة لفهمه وفراسته، فشيطانه لم تقهر همته بالهزيمة، ولا يحمل منة ممن هم في يأس قانطين أو من الفاشلين، فهو ما زال في حركة ونشاط واضطراب من أجل الحصول على عظمته السابقة.

أما الشاعر الألماني جوته، فقد قدم لنا الشيطان من خلال رائعته "فاوست" وبطريقة خاصة فهو لا يفهم الشيطان على أنه سوء محض بل فيه أيضا محاسن وفي اعتقاد جوته أن صراع الشيطان مفيد للإنسان غاية الإفادة لأن الإنسان طالما ظل في طريق البحث والطلب، فإن ضلاله مفيد له، ويظل هذا ضروريا حتى يستيقظ الإنسان، بل إن هذا يهبه العمل في نطاق الحركة، وإقبال قدم لنا الشيطان بتصوير خاص، وهذا التصور يشبه تصور ملتن، وأيضا مختلف عنه، وأسمى من تصور جوته، فعند ملتن أن الإنسان مجبور أمام الشيطان لكن عند إقبال ليس مجبوراً، وإقبال وضع للشيطان عدة صور في العديد من منظوماته في "پیام مشرق"، وفي منظومة بعنوان "تسخیر فطرت" صور إقبال إبليساً معتبرا مقامه مساويا تماما لمقام الحي القدوس، وفي نفس الوقت بين إقبال علامات عظمة آدم وسمو مقصد الخلق^(١). وفي جاويد نامه لقب إقبال إبليساً "بخواجه أهل فراق" وفي "بال جبریل" في نظم بعنوان "جبریل وإبليس" نرى نوعا من التفسير وشرحا لإبليس: مقامه ومدلولاته، بسلبياته وإيجابياته التي توضح نظرية إقبال الخاصة عن الحركة والعمل، أما في "مجلس شورى إبليس" فلم يستخدم إقبال إبليساً على هذا الشكل لكنه استخدمه لينبه المسلمين إلى الضعف ومساوي العصر الحاضر،

(١) طاهر فاروقي. خیابان اقبال ص ٢، ٣ کراچی.

فأظهره مع مستشاريه في مجلس عقد لمناقشة السياسة العالمية .

وقد كتب هذا النظم عام ١٩٣٦م وعرض فيه بطريقة موجزة أساس النظم الرئيسية للعالم، وللسياسة الدولية في زمانه .

وتعد منظومة إقبال هذه من أحسن المنظومات التمثيلية، وهي توضح أسلوبه البياني، وما امتاز به إقبال من سمو في الخيال، ورحابة في الفكر، وقوة في المضامين، وأصالة في النظر، والتسلسل في اختيار الألفاظ، والسهولة، والجرس الموسيقي العذب . كما أن أسلوبه التمثيلي في النظم أظهر جمالاً خاصاً وأثراً رائعاً فريداً، وقد أعجب أكثر الشعراء العظماء بهذه الطريقة البيانية، ففي النظم التمثيلي يبين الشاعر مكنون قلبه عن طريق الكنايات والاستعارات، مما يؤثر في إبداع الحركة الرمزية، وفي هذا النظم يوازن إقبال بين نظام الاقتصاد الإسلامي والنظم العالمية الأخرى فما عدا النظام الإسلامي فإن كل نظام هو نظام إبليسي .

وتبدأ المنظومة حين يطلب إبليس عقد مجلس شورا للبحث والتفكير في مشاكل الدنيا، ويجلس كل مشير في مكانه، ويبدأ كل واحد منهم في إلقاء الضوء على ما حدث، وتفسير جميع الأحوال، ومع بداية الجلسة تتضح الروح الإبليلية الكاملة من المصراع الأول للبيت الأول:

«هذه الألاعيب القديمة للعناصر وهذه الدنيا الوضيعة» .

وبعد ذلك يقول لمشيريه :

«عرضت على الإفرنج حلم الملوكية

وحطمت سحر المسجد والمعبد والكنيسة

علمت الجهلاء درس القدر

وأعطيت الغني جنون الرأسمالية»

ثم يوضح بعد ذلك كم هو محكم ومتين وقوي هذا النظام فيعلن جهراً:

«من يستطيع أن يطفىء ناره المتأججة

إن في هيجانها الحرقة الإبلية»

وبعد الاستماع إلى دعوى إبليس هذه يؤيده المستشار الأول موضعاً ضرورة العمل على إقامة نظام إبليس بدقة وإحكام:

«لا شك في أن نظام إبليس محكم ومتين

ففي ظله تعود الشعب طبع العبودية

والخضوع والمذلة على جبين هؤلاء المساكين

فجبلتهم تقتضي منهم صلاة بلا قيام

لا يمكن أن تنبت بداخلهم الأمانى

فهي إن تظهر تمت أو تبقى كشيء خامل لا ينضج أبداً

وهذه هي معجزة جهنم المتواصل

فاليوم ترى الصوفي والملا عبداً للنظام الاستبدادي»

وبعد سماع خطبة المستشار الأول يوضح المستشار الثاني ضرورة ظهور النظام

الإبليسي في شكل الفتنة الجديدة وهي "الجمهورية" حتى يعلو النظام الإبليسي:

«هل غوغاء الحكم الجمهوري خير أم شر؟

أتدري شيئاً عن الفتن الجديدة في العالم؟»

لكن المستشار الأول يُطمئن المستشار الثاني ويقول له: إن لدى فكرة عن هذه

الحركة، فالجمهورية في الأصل هي ستارة الاستبدادية فلا يظهر منها بهذا أي خطر

لأن هذا النظام في الأصل من خلقنا وصنعنا.

ويقول المستشار الثالث لو أن الجمهورية اسم للحكم الاستبدادي ولو أنها تحمل

أساساً روح الحكم الاستبدادي فلن يكون هناك أي خطر من هذا النظام، لكن هناك

فتنة أخرى ظهرت في أوروبا اسمها الاشتراكية وقهر هذه الفتنة أمر ضروري جداً فقد

أظهر ماركس هذا النظام الذي لو قبلته الدنيا فهذا يعني انتهاء الإبلية.

«روح السلطنة باقية فأبي اضطراب بعد ذلك

ليس هناك أي رد لأذى ذلك اليهودي

هو الكليم بغير تجلي، هو المسيح بغير صليب

ليس رسولا ولكن في حضنه كتاب»

و "طبقة العمال" سَمُوا زعيمهم بالكليم فقد عاش ماركس عمره بأكمله كما عاش المسيح في غربة وضنك، وقد اتجه إلى تشكيل طبقة واحدة، ووجدها فكرة صالحة، فعمل على تحقيقها بكل عنف، ومن هذه الناحية يُقال «رسول بلا كتاب».

وبعد أن سمع المستشار الرابع كلام المستشار الثالث أشار بعدم الخوف من هذا النظام أيضا «فإننا قد أظهرنا الحركة الفاشية للقضاء على الاشتراكية» فقد اجتهد موسيليني في العمل على إحياء العظمة الزائلة للروم:

«انظر في إيوانات روما الكبير

فقد أعدنا على آل قيصر حلم قيصر مرة ثانية».

إلا أن المستشار الثالث لا يقنع بجواب المستشار الرابع فهو يخشى أن يقوم موسيليني بكشف النقاب عن مساويء سياسة الإفرنج بوضوح، ومن هنا يخلق الإحساس بضرورة إيجاد رد فعل لهذا النظام، ويكون هذا صدمة كبيرة للنظام الإبليسي.

وبعد سماع كل هذا الحديث يتجه المستشار الخامس مخاطبا إبليس ذاكرة عظمته بأدب جم موافقا على مخاوف المستشار الثالث قائلا بأن هذا اليهودي يعمل جاهدا من أجل انتهاء العظمة النهائية، ولو أن الإبليلية تواجه خطراً في هذا العالم، فهو ليس سوى خطر هذه الاشتراكية التي قد تعمل على تحطيم وإنهاء كل امتيازاتنا القائمة، فهي تستطيع أن تخلق من قبضة الغبار طوفانا ينتشر في جميع أرجاء العالم، ولو أن هذا هو الحال فإن هذه الدنيا التي هي كفص خاتم إبليس، سوف تنقلب في الغد، ويضطرب النظام الإبليسي.

وبعد أن رأى إبليس ما لمشيريه من قلة النظر، وضعف الهمة، وضح لهم قوته، وألقى الضوء بطريقة واضحة على كل المسائل:

هذا العالم المحسوس «سواء هذه الأرض أو هذه السماء، هي جميعها في قبضتي المسيطرة المتصرفة».

بل يطمئن مشيريه بأنه يستطيع بصرخة " هو " تنطلق منه أن يصيب جميع أصحاب الحكمة والفراسة أو أئمة السياسة وقادة الأمة بالجنون، كما أن في استطاعته أن يحطم هذه النظم في فترة وجيزة ثم يقول لهم: «إن مخاوفهم هذه ليس لها أي أساس بل إن ذلك النظام الذي لا يقوم على أي أساس محكم كالنظام المزدكي مخلخل وغير ثابت تماما، وأن الفطرة قد أقامت امتيازات في هذا العالم، فأقامت في هذا العالم الطبقات والامتيازات والدرجات والنظام الاشتراكي هو نفسه لا يستطيع أن يثبت قدمه في أي مكان فهو يتحطم دائما^(١)»

وإبليس يوجه مشيريه إلى نظام آخر لم يقع نظرهم عليه وهو نظام الإسلام السياسي والاجتماعي، ويرى إبليس أن النظام الإسلامي هو النظام الذي يقف ندا لنظامه. ويرى أنه لو خضع العالم بأجمعه إلى هذا النظام، ولو انتشرت التعاليم الإسلامية في جميع أنحاء العالم فإنه من المحتمل أن يفنى النظام الإبليسي، وينتهي ولهذا يحذر مستشاريه:

«إن من كُشف له باطن الأيام يعرف

بأن فتنة الغد ليست المزدكية لكنها الإسلام»

فإبليس يعرف أن مستشاريه لم يهتموا بالنظام الإسلامي الذي جاء ليحطم أصنام الرأسمالية إلا أن أصحابه هم الآن عباد هذه الأصنام، لكن خوف إبليس هو أنه نتيجة لضروريات ومقتضيات العصر الحاضر قد تظهر تعاليم الرسول ثانية ليس فقط لدى المسلمين، ولكن قد تكون مشعلا وهاديا لجميع بلدان العالم، ويلقي

(١) هذا يدل على فراسة إقبال وإحساسه بأن النظام الاشتراكي الشيوعي سيزول لا محالة .

ضوء أكثر محذراً :

«الحذر، الحذر مائة مرة من نظام الرسول

فهو حافظ لكرامة المرأة، ومختبر المرء، وباعته من ثباته» .

وهكذا اجتهد في محاولة تعريفهم بأن الإسلام يعطي للإنسان مكانه الصحيح، فهو يثبت حقوق الرجل والمرأة، كما يهب الإنسان رباط قوة الحياة، ويهبه قوة تسخير الكائنات، والإسلام يدعو للمساواة بحيث لا يوجد أي امتياز بين الغني والفقير كما أنه يلغي العبودية ويضع قانوناً ثابتاً للاقتصاد، ويظهر المال والثروة عن طريق الصدقات والزكاة كما لا يسمح للأغنياء أن يكونوا مثل قارون بل يجعلهم حراساً فقط على الأموال .

أما عن ملكية الأرض، فالروح الإبلية موجودة في كل نظام عدا الإسلام الذي قرر أن الملك لله فقط، وهكذا فهو أيضاً يقضي على طبقة الأجراء لكن ما يجعلنا نطمئن قليلاً هو أن المؤمن غافل عن التوجه إلى أسس تعاليمه الدينية، وغفلته هذه علامة على بقاء نظامنا وسلامته، فالمؤمن ترك أسس وأصول دينه، وضاع وسط التأويلات الفلسفية لمسائل الإلهيات وفروعها وابتعد عن دنيا العمل، فهذا شيء مفيد لنا، ولهذا يرافق العمل، ابتلوه بهذه الغفلة، نوّموه حتى يبتعد عن دنيا العمل، وحتى ينسى تسخير الكائنات وهداية العالم، ولا تجعلوه يذكر مكانه :

«اجعلوه غريباً عن عالم العمل لكي

تنهزم جميع القطع الشطرنجية على بساط حياته

فهذا خير أن يبقى المؤمن هكذا حتى يوم القيامة

أو يترك هذه الدنيا الفانية للآخرين»

وبعد أن غفل المسلمون عن دينهم، توجه إبليس إلى مستشاريه وأمرهم أن يشبّوا عناصر هذه الغفلة حتى يستقر المسلمون على غفلتهم هذه، لأنه يخشى أن

تستيقظ هذه الأمة فتهتم بتعاليم دينها، وتخلق بداخلها قوة العمل، والقدرة على تسخير الكون، ومن هنا ينهض النظام الإسلامي ويقضي النظام الإبليسي:

«إنني أخاف من يقظة هذه الأمة مع كل نفس يتردد بداخلي

فحقيقة دينها هي احتساب الكائنات

أسكروه واجعلوه ينتشي بالذكر والتفكر في الأسحار

وأنضجوا فيه طبع الخانقاهات»

نصيحة بلوتش العجوز لابنه :

بلوتش هو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوتشستان في باكستان على الحدود بين إيران والسند، والعجوز يقدم نصائحه المتنوعة كالاعتزاز بالنفس وضرورة تحصيل العلم وبيان أهمية الفرد في الأمة :

«إن تقدير الأمم بيد الأفراد

ومع كل فرد نجم تقدير الأمة»

ويقول أيضا :

«ما هو تقدير الأمم، لا أحد يستطيع الإجابة

لكن لو توجد فإشارة كافية»

الصورة والمصور :

قطعة من الشعر التمثيلي أراد إقبال أن يوضح فيها الحديث المشهور : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وهو يصل في النهاية إلى حديث المصور للصورة :

«أنت من روائع فني

ولذلك، فلا تيأسي من مبدعك

ليس هناك شرط لرؤيتي

سوى ألا تختفي أنت عن نظرك» .

عالم البرزخ - نداء من الغيب :

استمرار للشعر التمثيلي ، إلا أن النقاش هنا بين ميت وقبره ويأتي نداء من الغيب ليفسر معنى الموت :

« ليس الموت من نصيب الثعبان والعقرب أو الغزال والوحش

فالموت الأبدى ليس إلا للأمم المغلوبة»

ويعود القبر مرة أخرى يخاطب ميته :

«آه أيها الظالم أكنت عبدا محكوما في هذه الدنيا؟

لماذا ترابي ملتهب هكذا؟»

ثم يأتي نداء من الغيب مرة أخرى :

«مع أن النظام الكوني مضطرب بسبب القيامة

إلا أن هذا الاضطراب يكشف أسرار الوجود

لابد لكل تعمير جديد من تخريب كامل

ففي هذا حل لكل مشكلات الحياة»

ثم يأتي حديث الأرض :

«آه من هذا الموت الدائم ، آه من معركة الحياة !!

هل ينتهي صراع الكائنات إلى الأبد؟»

الملك المعزول :

أنشد إقبال هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وهو يرى أن عزل هذا الملك قد

كشف أسرار استبداده وظلمه :

«فلنبارك هذا الملك الطيب

الذي فضحت تضحيته أسرار استبداده

الملك في المعبد البريطاني ليس إلا صنما من تراب

يمكن أن يحطموه حينما يشاؤون»

مناجات ساكني جهنم :

يقدم الشاعر شكره لله على أن جهنم حُرّة وليست مستعبدة للتاجر الأوربي
فجهنم عنده أحسن من مكان خاضع للإفرنجي :

«شكرا لك يا إلهي فإن هذه القطعة من الأرض الملتهبة

حرة من عبودية التاجر الأوربي»

مسعود المرجوم :

تُعد هذه الأبيات من روائع ما كتب إقبال في الرثاء، كتبها يرثي صديقه " رأس مسعود " معبرا عن إنسان فاجأته الصدمة في الأعماق، فهناك روح طيبة تنتقل فجأة إلى العالم الآخر، وبعون من الإيمان تتجه الروح المضطربة من داخل ظلال الشك إلى الإيمان الصارم بالخلود والأبدية، والإيمان بالخلود هو الصوت الحقيقي لكل أشعار إقبال، وهو يصدر في الرثاء عن سيمفونية إلهية تبعث بأصوات رائعة معبرة عن الخلود في موسيقى لا نهائية لكن في انسجام وتوافق مع فلسفة الشاعر الذي يرى أنه يجب على كل فرد أن يستعد، ويعمل من أجل هذا الخلود، وقبل أن يصل إلى الخلود، يعطي إقبال تفيثا للصدمة في صورة الشك، ويبدأ في التعجب مما إذا كان هذا العالم حقيقي أم هو مجرد فناء :

«هذه الشمس، هذا القمر، هذه النجوم والسماء الزرقاء

من يدري أ هذا عالم الوجود أم الفناء؟

ما فكرة الشارع والمنزل سوى خرافة وسحر

فالحياة كلها رحيل دون هدف

لا تقل إن علاج حزن الصديق يمكن بالصبر

لا تقل إن حل لغز الموت كامن في الصبر

القلب الذي يعشق ويصبر ليس سوى حجر

فبين العشق والصبر ألف فرسخ»

وبينما هو يتلمس طريقه في ظلام الشك يُسائل نفسه أسئلة تبحث عن إجابة :

لماذا يفرقنا الموت؟ هل هذا الانفصال مؤقت أم أبدي؟

«كل من يظهر في التراب سيوارى فيه

أهذه هي الغيبة الصغرى أم هذا هو الفناء، ماذا؟

لا تخزن فنحن مكبلون بقيد الدنيا

والقلب الذي تملك يحطم طلاسماها»

وبعد ذلك وفجأة ومن داخل الظلمة يطلع الفجر على الشاعر بضوء الإيمان

بالخلود. فإذا كانت الشخصية الإنسانية متطورة وقوية فإن الموت بالنسبة للرجل

ليس سوى موجات تافهة على بحر الوجود الأعظم :

«لو أن الذات حية خالدة، فالموت مقام في الحياة

لأن العشق يختبر ثباتها بالموت

لو تكن الذات حية خالدة فبحرك لا شاطيء له

وموج النيل والفرات في شوق لأن يندمج فيك

لو أن الذات ميتة فإنها كالهشيم أمام النسيم

فالذات الخالدة سلطان كل الموجودات

مقام العبد المؤمن وراء الفلك والسموات

واللات ومناة منتشرة بين الأرض ونجم الثريا

مقامه الأبدي هو حرم الذات

ليس مكانه القبر المظلم ولا مكان تجلي الصفات
أولئك الذي ملكوا معرفة الذات وخرجوا من هذه الدنيا
حطموا طلسم الشمس والفلك والنجوم» .

صوت من الغيب :

يأتي هذا الصوت ليسائل الإنسان :

«كيف ضاع جوهر إدراكك؟ كيف أصبح مشروط التحقيق لديك كالأل؟ لماذا لا
تستطيع أن تمزق أكباد النجوم؟ لماذا لا تخضع لك الشمس والقمر؟ لماذا لا ترتجف
الأفلاك من أنظارك؟» .

ويجب الصوت نفسه على جميع الأسئلة: «ليس عندك حمية الفكر الجريء»،
«مع أن العين مضيئة إلا أنها لا ترى العالم»، «أين ذهب القلب الصافي؟ هل ضاع
منك يا شهيد السلطنة والملا والتمشيخ؟» .

رباعيات :

عددها ثلاث عشرة رباعية ، وهي تبين براعة إقبال في نظم الرباعيات الأردنية
وهي ليست في موضوع واحد ، فهو يخاطب الإنسان :

«غير وبدل المساء والسحر

أقلب هذه الدنيا الجافة

واحذر من السجود الخالي من أي ذوق»

ثم يتحدث عن نفسه وعن التصوف الذي علم المسلمين الذل والخضوع :

«أنا محسود الغني في حالة الفقر

لأن فقري ذو غيرة

الحذر من ذلك الفقر وتلك الحاجة

فالتصوف قد علم المسلمين الذل» .

ويشير إلى المعرفة الإلهامية ويفضلها على المعرفة العقلية :

« لو ينظر العقل بعين القلب

يجد العالم مضيئاً بنور « لا إله إلا الله »

لو تنظر إلى نور الشمس والقمر

لا تجد إلا دوران الليل والنهار»

مذاكرات ملا زاده ضيغم اللولابي الكشميري :

آخر هذه المجموعات الشعرية، وبها ينتهي الديوان، والضيغم هو الأسد ولولاب اسم وادي في كشمير، وملا زاده اسم وهمي، وقد كتب إقبال هذه الأشعار لتقدمها إلى أهل كشمير من المسلمين، وكانوا أكثرية - وما زالوا - ولم تكن لهم أية مكانة سياسية، فهو يبيث أهالي كشمير ما يود أن يقوله لهم على لسان شخصية وهمية من كشمير نفسها، ومن المعروف أن الشاعر نفسه من كشمير.

وقسم إقبال هذه المجموعة إلى أقسام دون عناوين داخلية، ويوضح إقبال منذ البداية أن الفقير الذي تستيقظ القلوب بأهاته السحرية لا يوجد في الأمة منذ زمان، كما يتحدث عن العبودية والنظام الاستبدادي :

«إنما العبودية موت شاق

ألا ليت العبد يفهم مكر وخداع السيادة

انظر تنوع الأحكام في شرع النظام الاستبدادي

غوغاء الصور حلال، لذة الحشر حرام

يا من ذبلت روحك من العبودية

أتبحث عن مقام الذات في الصدر الخالي من الحرقه»

وإقبال حزين من أجل كشمير :

«وكشمير اليوم بلد محكوم وفقير»

ويتأزم الموقف حتى إنه يتسائل : «متى يوم القيامة؟»
 «يا أسفاه على هؤلاء القوم النجباء ذوي الأيدي
 النشيطة والدماغ الخلاق
 أيها الإله يا من تمهل الناس . . متى يوم الجزاء؟» .
 والشاعر يرى أن الوقت قد حان حتى يستيقظ أهل كشمير الموتى فهذه هي
 مطالب الفطرة :

«الميت الذي كان في حاجة إلى صور إسرافيل
 اضطر للقيام ثانية ، استجابة لمطالب الفطرة»
 ثم يوجههم إلى طريق العمل والنشاط :
 «أخرج من الخانقاهات واسلك طريق الشبير
 فليس فقر الخانقاهات إلا الهم والغم»
 ثم يسوق بعض الأبيات التي تجري مجرى الأمثال :
 «ليست الحياة سلسلة الأيام والليالي
 ليست الحياة نشوة وغفوة»
 «لو تأخذ شرارة من نار القلب
 فإنك تستطيع أن تجعل منها شمسا تحت الفلك»
 وهو يعقد مقارنة رائعة بين الحر والعبد :
 «شريان الحر صلب كشريان من حجر
 شريان العبد رقيق كغصن الكرم
 قلب العبد ميت سقيم يانس
 قلب الحر حي مفعم بالحرارة يبعث الطرب

ثروة الحر قلب مضيء ونفس حامية
 ثروة العبد هي فقط عين مغرورة
 العبد غريب عن الإخلاص والمروءة
 مع أنه ذكي في اختلاق الأدلة المنطقية
 لذا لا يكون العبد نداءً للحر
 فهذا عبد للأفلاك، والحر سيدها»

وفي النهاية يسوق بعض الأبيات المملوءة بالحكمة يتحدث فيها عن هذا العالم
 وهذه الأرض:

«العالم مضطرب من قوة عملهم
 فالأم الحية خاضت معارك عظيمة
 إن تقويم النجم للغد باطل
 فالنجوم القديمة سقطت من السماء
 العالم ملتهب إلى درجة كبيرة حتى إن
 أمواج البحر كسرت النجوم
 الأرض لم تعد خالية من الزلازل
 فالدلائل الدقيقة للفطرة ظاهرة
 إن الخضر قابع يفكر على شاطئ بحيرة ولر ويتساءل
 متى تنفجر عيون الهمالايا؟».

ثانياً : دراسة تحليلية :

١ - الشكل :

ألف - التحليل الفني للأسلوب

ب - الصورة الأدبية

ج - الوزن والقافية والموسيقي

الف : التحليل الفني للأسلوب :

من المعروف أن العاطفة هي التي تشرح لنا خواص الصورة الأدبية الصالحة للتعبير عنها وإثارتها، وأول ما يبدو من ذلك أن لغة العاطفة يجب أن تكون مألوفة جزلة بعيدة عن المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة ما دامت الدراسة العلمية أو التحليلية لا تجدي في بعث الإحساس الأدبي، ولا بد أن يكون القصد إلى العواطف عن طريقة غير مباشرة أي افتراضية رمزية^(١)، والرباعيات التالية تعطي تفسيراً لذلك :

«أسير في طريق ليس له نهاية

البذور التي أنثرها ليس لها محصول

أنا لا أخشى الأحزان

ولكن لا تعطني حزناً لا يليق بالقلب»

«أعط الاضطراب للعالم مني

بدل وغير الأرض والسماء

اقتلع من ترابنا آدماء آخر

اقتل هذا الإنسان الذي هو عبد للريح والخسارة»

«إلى متى تبقى نظرتك ممزوجة بالعتاب

(١) الشايب، أصول النقد الأدبي ص ٢٤٣.

إلى متى تبقى أصنام هذا العصر
وإلى متى يبقى أولاد إبراهيم
خدماً للنمرود في بيت الأوثان؟» .

ثم إن العبارة تختلف باختلاف العاطفة فإذا كانت العاطفة من النوع الهاديء أو كانت القصيدة تعبر عن الإعجاب بالوردة احتاجت إلى سهولة العبارة وجمال الصور والإيجاز الكافي ، وإذا كانت عميقة خالدة تتصل بأصول الحياة وطبائع الناس اقتضت تعبيراً جزلاً شديداً وصوراً محكمة قد تكون تمثيلاً أو كنيات أو مطابقة أو نحوها ، وقد تعوزها بساطة القول ، وتعدد الصور الخيالية لطرافتها وحاجتها إلى الإسهاب ، ويتمثل هذا في قصيدة إقبال التي قالها في رثائه لصديقه مسعود فهي تمتاز بفخامة وعظمة الأسلوب الأدائي ثم الموسيقى ونغمة الشعر ، فبناء القصيدة يمتاز بالأصالة فهي تتطور من خلال الأسلوب والبيان الذي يرتفع فوق مستوى المقالة العادية فهناك التنوع الخصب في الأسلوب الذي يشمل التعبيرات الأليفة التي تسير جنباً إلى جنب مع التأملات الفلسفية ، ولكن الأسلوب يظل رائعاً باستمرار ، والواقع أن جمال الأسلوب يجعل القصيدة إحدى روائع المراثيات في اللغة الأردنية إقبال قد أعطانا أجود ما يمكن أن يُعطى .

دعائم الأفكار في الأسلوب عند إقبال :

١ - الأصالة : التي تتجلى في ميل الشاعر إلى التجديد ويظهر هذا في استخدام ألفاظ جديدة أو إحياء ألفاظ قديمة في صورة جديدة ، والديوان يزخر بالأمثلة وقد أشرت سابقاً إلى أمثلة منها .

٢ - الطلاقة : التي تكشف عن نفسها في مدى ما امتاز به إقبال من سهولة أو سرعة يتم بها له استدعاء أكبر عدد من الألفاظ أو الأفكار أو التخيلات .

٣ - المرونة : ويمكن عن طريقها استخدام الأسلوب بطريقة تجعلنا نلتفت تلقائياً إلى أمر من الأمور أو مشكلة من المشاكل ، وكثيراً ما يتوقف الابتكار على المرونة .

وملك الشعراء بهار وبقية شعراء إيران قد سلموا بأن أسلوب إقبال أسلوب كلاسيكي وأن لديه مهارة، وتمكّن من اللغة الفارسية، وقد كتب د. حسين الخطيب أستاذ النقد والأدب الفارسي بجامعة طهران يشير إلى مهارة إقبال في الفارسية:

«وهو لم يتعد عن إيراد المضامين الصعبة، والألفاظ الضعيفة والكلمات النادرة، لكنه وباستثناء أماكن معدودة قد أحكم أسلوبه، واستخدم اللفظ على أساس الأشعار الفارسية القديمة»^(١).

هذا من ناحية الأسلوب الفارسي أما من ناحية الأسلوب الأردني فقد كان صعباً أن يضع المضامين الفلسفية في قالب الشعر الأردني ومن هنا نرى افتقار الجزء الأردني في ارمغان حجاز إلى هذا اللون الفلسفي، إلا أن ما كتبه من مضامين فلسفية رغم قلته وندرته، كتبه بمهارة فائقة مما عمل على إيجاد تعدد في مجالات استخدام اللغة الأردنية، بل إنه كان يملك قدرة كاملة على السيطرة على اللغة، مما جعله يخرج بمصطلحات جديدة، بل وتشبيهات واستعارات، تطور وارتقى بسببها الأدب الأردني ومن أمثلة ذلك:

«لاله كاري، سحر خيزي، طلسم سامري، چراغ مصطفوي، شرار بولهي، عروس لاله وغيرها».

ب - الصورة الأدبية:

الصورة الأدبية مرتبطة بالمعاني اللغوية للألفاظ وترتبط بها الموسيقى ومعانيها المجازية، وحسن تأليفها معا بحيث يكون من ذلك كله تأثيران: أحدهما معنوي عاطفي والثاني موسيقي يعين في قوة العاطفة وسرعة تأثيرها، وهذا يسمى حسن النظم أو جمال الأسلوب، والعاطفة تختلف باختلاف الأدباء، ويتبع ذلك اختلاف الصورة الأدبية التي تؤدي هذه العواطف، فالشعراء يتبادلون الشيء الواحد معجبين به، ولكن سبب الإعجاب أو مستواه مختلف بينهم؛ فهناك صور أدبية متباينة

(١) إقباليات كا تنقيدي جائزه ص ٩٦.

للشعور الواحد في أصله المتعدد بتعدد المشتركين فيه^(١)، وها هو إقبال يتحدث عن فكرة الموت :

«الأنغام التي مضين، قد تعود أو لا تعود

قد تهب رياح الحجاز أو لا تهب

انتهت أيام هذا الفقير

وقد يأتي عالم - آخر - بالأسرار أو لا يأتي!»

وكم تغني الشعراء في جميع أنحاء العالم، ينادون بأن نخفف الأقدام عن الأرض خشية أن تدق قدمنا أهذاب حسناء أو كما قال آخر: «إن أديم الأرض من هذه الأجساد». وإقبال يقول:

«ما أجمل الصحراء فمساؤها صبح بسّام

ليلها قصير نهارها طويل!

خفف الوطاء أيها السائر فإن

كل ذرة من رمالها محزونة مهمومة مثلنا».

ومن هنا نصل إلى نتيجة مفادها أن هناك ترابطاً بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنى أو بين الفكرة والعاطفة من ناحية، والخيال واللفظ من ناحية ثانية وأن أي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح، وأن الأدب القوي الخالد يقوم على صدق الشعور، وصحة التفكير ثم الرغبة الصادقة في نقلهما إلى القراء كما هي، والقدرة البيانية المتجلية في الصورة الأدبية، وكلما كانت الصور الأدبية رائعة، وكلما استطاع الشاعر أن يجسد الأفكار نشعر بالعنوانيات كأنها محسوسات نكاد نلمسها، كما أن الشاعر يستطيع في سهولة ويسر أن ينطلق من المحسوسات إلى المعنويات، وأن يمزج بين الطبيعية والحياة والنفس الإنسانية في صورة متكاملة

(١) الشايب، أصول النقد الأدبي ص ٢٤٥.

تجمع عمق التأمل إلى روعة التصوير ، يقول إقبال عن الناقة في الصحراء :

«عيونها السوداء ندية بالدموع

قلبي يحترق من آهات صياحها (حينها)

تلك الخمر التي أضاءت وأشعلت ضميري

تنسكب دوما من موج نظرتها» .

ج - الوزن والقافية والموسيقى :

ميدان الشاعر ليس هو اللفظ من حيث أنه صوت أو أصوات اصطلاح على معناها ، وإنما مجالاته في تركيب هذه الأصوات بحيث تنسجم وتتوافق انسجاما وتوافقاً لا يأتي من طبيعة اللفظ كما أن مجالاته في ارتباطات هذه المعاني لأنه لا مجال لإبداع الفن في اللفظ نفسه^(١) ، ويتجلى أثر الإحساس الموسيقي في شعر إقبال في التوسع في الأوزان المناسبة .

وأوزان شعر إقبال هي الأوزان الفارسية كلها ، وهي أوزان أخذها شعراء الفرس عن الأوزان العربية وتصرفوا فيها وزادوا عليها ، والقوافي الفارسية كذلك ، أما عن أنواع القوافي ففيها الرباعيات وهي تحتل الجزء الأعظم من أرمغان حجاز فالجزء الفارسي جميعه عدا بعض القطع التي ذكرها ضمن النظم الأردني - نظم على طريقة الرباعيات ، وقد أوردت في فصل سابق إحصائية بعدد الرباعيات في دواوين إقبال جميعها .

وأرمغان حجاز هو آخر ما كتب إقبال وكان قد بلغ أعوامه الأخيرة ، والرباعيات تقدم شكلا شعريا ملائما ومريحا لما يسمى بالتعبيرات العرضية الطارئة ، وللإلهامات الفردية وهي شكل يناسب الموضوع الطويل ، ويناسب التعبير عن الدفعات والحركات المفاجئة .

(١) د . سهر القلماوي . النقد الأدبي ص ٦٩ .

وهناك اختلاف حول شكل الرباعية : هل يمكن أن نعد الرباعية التي يكون مصراعها الأولين على قافية واحدة أي : «أ ب ج ب» هل يمكن أن نعدّها رباعية أم أنها تسمى قطعة تميزا لها عن شكل الرباعية المشهور «أ ب أ» .

يقول الأستاذ شاهدان إن إقبالا سلم بأن النوع الأول أيضا يدخل في شكل الرباعية وعلى هذا الأساس يحتوي أرمغان حجاز على :

٣٦٢ رباعية بالفارسية و ٣٢ قطعة

و ١١ رباعية في الأردية وقطعتين

٢ - المضمون

إذا أردنا أن نقسم أشعار الديوان على أساس المضمون وجدنا أنه ينقسم إلى قسمين متميزين هما: الشعر الوجداني الفلسفي، والشعر الإنساني الأخلاقي بالإضافة إلى قسم ثالث هو الشعر التعليمي.

١ - الشعر الوجداني الفلسفي في (رمغان حجاز):

وهو يتناول معاني الزهد والتقوى من حديث عن المحبة الإلهية والوجد والنفس الإنسانية وأصلها الإلهي ولمحات عن المسألة الخطيرة مسألة وحدة الوجود لا كمسألة فلسفية ولكن كموضوع ذوقي، والشاعر في هذا اللون الوجداني محلوق دائماً في آفاق العالم الروحي وهو هنا يذكر أحاديث الزهد والتقوى من ألم ودموع وآهات:

«لا تسأل عن قافلة سكارى الجلوة

منزوعي الأيدي عن أمتعة الدنيا

أرواحهم مليئة بضوضاء رنين الجرس

ضوضاء موج النسيم في مزرعة الغاب»

وأحاديث أهل الزهد ليست كأحاديث العامة:

«لساننا نحن السالكين هو النظر

حديث المتألمين دموع وآهات

فُتحت العين وانقلبت الشفاه

لأن الكلام في طريقنا ذنب».

وعن الحنين إلى الذات المطلقة يقول:

«حين ضممت نفسي إلى ذاتي

رأيت بنورك مقام نفسي
 خلقت في هذا الدير دنيا العشق
 وخلقت السكر من أغنيات الصباح
 وعن التوحيد يقول:
 «أضأت النظر بنورك
 لكي أرى باطن الشمس والقمر
 أر تجف حين أقول إني مسلم
 فإني أعرف مشكلات 'لا إله إلا الله'» .

ب - الشعر الإنساني الأخلاقي في (رمغان حجاز :

يتناول في جانب كبير منه الإنسان، ويبين أهميته في هذا الكون، ويرسم المثل العليا للحياة الإنسانية في هذا العالم، وهو في هذا اللون من الشعر، معلم أكثر منه فيلسوف، يترك الرمز في كثير من الأحوال، ويستخدم القصص والأمثال لبيان الآراء التي يدعو إليها، وفلسفته الخلقية قائمة على دعوة الإنسان، لتحقيق الكمال في هذه الحياة عن طريق الذات، وهي ترسم للإنسانية الوسائل التي يراها الشاعر مؤدية إلى ذلك .

وبطبيعة الحال اختلف أسلوب الشاعر في شعره الوجداني عنه في شعره التعليمي فهو في شعره الوجداني يبدو جياش العاطفة، غنيف الإحساس يعبر عن مشاعره الروحية بقوة وحرارة، ونحن نراه في هذا اللون من الشعر يعرض علينا فلسفة الزهد بطريقة تبدو جديدة كل الجدة ومختلفة كل الاختلاف عن كل ما عرف من شعر الزهد، فقد كان إقبال يعالج موضوعاته بأصالة فنية، جعلت شعره يختلف اختلافا بعيداً عما كتبه غيره من شعراء الزهد فنحن نجد متحرراً في أسلوبه من تلك المحسنات، منطلقاً بعباراته إلى آفاق لا تحد، لا تكاد عباراته تحمل من شحنات معانيه إلا القدر الضروري الذي يثير الخيال ويستحثه إلى ملاحظة الشاعر في آفاقه

العالية، يشمل هذا دعوة القلب إلى التفكير والتأمل والتحليق في عالم المعاني، والوصول إلى "المحجوب" كما ناقش فكرة الإلهام والمعرفة، ومن أمثلة ذلك حديثه عن الذات:

«أخرج من الصدر تكبيرك

اخلط ترابك بأكسريك

امسك ذاتك واستمسك وعش طيبا

ولا تدع تقديرك بيد أحد غيرك» .

وعن الإنسان المؤمن يقول:

«المسلم العارف بذاته إنسان كامل

الذات في تراه حاكمة محكومة

لو أنك تعرف أن الذات متاعك

فحرام أن تعقد على سواها اهتمامك» .

وفي مقابل الاتكال يحذر إقبال من اليأس وبيث الأمل:

«أزحت الستار عن وجه التقدير

لا تكن يائسا واسلك سبيل المصطفى

لو ساورك الشك فيما قلت

فابعد عن الدين ومت موة الكافر» .

وإقبال يشيد بالنشوة والحرقة ويحذر من الرهينة والكسل والتصوف الذي

يقضي على روح الإيمان الحق:

«تعلم الحكمة القرآنية من الرازي

وأشعل مصباحا من مصباحه

لكن خذ مني هذه الحكمة

لا تستطيع الحياة دون نشوة وحرقة» .

ومع أنه كغيره من أهل الزهد لا يحفل بالمباحث الكلامية، ولا يراها موصلة إلى معرفة يقينية، فقد تناول في شعره جوانب من المسائل الكلامية التي طال عليها الخلاف كمشكلة الجبر والاختيار وغيرها من المشاكل، والديوان مليء بالأمثلة .

والواقع أن شهرة إقبال بشعره الوجداني أكثر من شهرته بشعره الفلسفي، والحقيقة أنه تصعب التفرقة بينهما، ولذا لم أشأ أن أفرق بينهما فكل منهما يعبر عن عواطف الشاعر وأحاسيسه، وليست هناك قصيدة عظيمة لم تتضمن معاني وأفكار تجمع الوجدان والفلسفة، ثم إنها لمقدرة كبيرة أن يُلبس الأفكار ثوباً شعرياً جميلاً .

ولشعر إقبال الوجداني سحر وموسيقي يجذبان مجامع القلوب، ولذا ذاع شعره في الناس ذيوفاً واسع النطاق، فكلفوا به أكثر مما كلفوا بضروب أشعاره الأخرى، وإقبال وسّع مجال الشعر الوجداني بالنسبة للغتين الفارسية والأردية بأن نظم قصصاً استحث فيها السعي في الحياة لأن الحياة الحقيقية ما هي إلا آمال متجددة، وأغراض متعاقبة، وأهداف متواصلة، وأن نفس هذا التجدد والتعاقب والتواصل هو الذي يجعل النفس تفيض بعواطف وأحاسيس دائبة الاستمرار، ويتوفر لكمال الشعر الوجداني عاملان :

١ - العاطفة الرقيقة المرهفة .

٢ - إجادة اللغة بالقدر الذي يستطيع فيه الشاعر أن يعبر عن خواجه وأحاسيسه

الرقيقة المرهفة .

وكان إقبال مرهف الحسّ، مرهف الأذن لسماع الألحان العذبة، والإيقاع المنسجم، فكان لا يتكلف في اختيار القوافي والأوزان، وإنما يسترسل فيها استراسالاً هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى لشعر إقبال الوجداني ميزتين أخريين تميزانه عن الشعر الوجداني الذي نظمه غيره من الشعراء :

١ - نظريته في الجمال والحب :

كان إقبال يرى الجمال في كل شيء غير أن الجمال الذي راقه أكثر من كل شيء هو جمال القوة والكمال، فالجمال عنده هو ما يراه الذهن لا الصفة الحسية في الشيء الجميل، وضروب الجمال المختلفة تروق أعين ضروب الناس، ويرى إقبال أن الجمال في كل شيء قوي كامل، وقد تركت هذه النظرية الجديدة في شعره الوجداني طابعا خاصا، تجلت فيه القوة بكل مظاهرها.

ب - الشعر التعليمي في (رمغان حجاز) :

أما عن الشعر التعليمي فكان مجالاً رحباً، تجلت فيه عبقرية الشاعر واستعان فيه بثقافته الواسعة وفهمه العميق لمعارف أهل زمانه، ويكشف هذا الشعر عن خبرته بالنفس البشرية، وقدرته على تصوير نوازعها الخيرة والشريرة على السواء، ومن أمثلة هذا الشعر حديثه عن صفات الشاب العارف لذاته :

« الشاب الذي يعرف نفسه تماما

هو الذي يستطيع أن يعيد تشكيل العالم القديم

في طوافه توجد آلاف المجالس

إلا أنه يفضل الخلوة مع نفسه.»

وعن السبيل إلى معرفة الذات يقول :

«اقرأ خط وجهك جيداً

واحصل على شريان غدك

ضع القدم مثلي في صحراء الحرم

لترى داخلك ولتري آفاقك.»

ومن بين نصائحه التعليمية :

«خذ للتسليم والرضا دستوراً مرة أخرى

والزم طريق الصدق والإخلاص والوفاء
لا تقل كان شعري هكذا، وليس كذلك
خذ عني - بكثرة - جنون العاقل» .

وعلى لسان شيخ ينصح ابنه :

«الاعتزاز بالنفس له قدر عظيم في دنيا الكد والجهد
فهو يلبس الدر ويش تاج الملك داراً»
ويقول أيضاً :

«لوانت الأمة الحرية بعد أن ضاع الدين من يدها
ففي هذه التجارة خسارة للمسلم» .

وفي مذكرات ملا زاده ضيغم يقول :

«إنما العبودية موت شاق

ألا ليت العبد يفهم مكر وخداع السيادة» .

وهكذا قُدر لرسالته أن تستمر على مر السنين، وعاشت تعاليمه في نفوس
الناس كما قدر لأفكار وآرائه أن تجد سبيلها من جديد إلى الفكر الإسلامي الحديث
على يد المفكرين من بعده الذين قاموا ينادون بإيجابية روحية، تؤمن بالحياة،
وتعدها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، وتهاجم السلبية التي قال بها بعض الصوفية
المسلمين، فالقيم الروحية تعصم الإنسان من الوقوع في قبضة المادية، وتبعده عن
المصير الذي انحدر إليه العالم في العصر الحديث .

العوامل المؤثرة في المضمون في أرمنان حجاز

الحديث عن المضمون الشعري في أرمنان حجاز يستلزم حديثاً عن العوامل المؤثرة في هذا المضمون ويمكن إيجازها فيما يلي :

١ - المكان :

المكان من العوامل المؤثرة في حياة أي أديب ، والمكان هو الإقليم الذي يعيش فيه الفنان عيشة قرار ، واستيطان أو يضطرب بين حدوده ، فتتأثر حياته الحسية والمعنوية بطبيعة هذا الإقليم وخواصه فإذا ما عبر الأدب عن هذه الحياة كان فيه طبيعتها وأحوالها الاجتماعية وآثارها في نفوس الأفراد ، ومن هنا اختلفت الآداب اختلاف الأقاليم^(١) .

وهنا يثار سؤال : إلى أي مدى يكون فن الفنان عامة صورة من الحياة من حوله؟ وبعبارة أخرى نصرح بالسؤال التقليدي القديم إلى أي مدى يُعتبر الفن تقليداً للحياة من حوله؟^(٢) .

وإجابة هذا السؤال تتضح من خلال ما قاله إقبال :

«مملكة الهند حالها متغير مضطرب

وكذا تلك الأرض والسماء

لا تبحث عنا في أوقات الصلوات الخمس

فالعبيد يصعب عليهم تنظيم الصفوف»

فالهند موطنه عاش فيه وترابي بين حدود شبه القارة بين أهله وعلى أرضه إلا أن نظرتة كانت لما حوله من داخله هو يقول عن أهل الهند :

(١) د. الشايب . أصول النقد الأدبي ص ٨٣ طبعة سنة ١٩٥٥ م.

(٢) د. سهير القلمبوري . النقد الأدبي ص ٣٧ طبعة سنة ١٩٥٩ م.

«ليل عبيد الهند ليل بلا نهار
والشمس على هذه الأرض ليس لها معبر
أدر طرف عيونك إلينا فليس في الشرق من هم
أكثر عجزاً منا بين المسلمين».

والشاعر - كما هو دائماً - يستمد الإلهام من الحياة من حوله وهذه الحياة أحداث
وأحوال، والشاعر يحاول من هذا الذي حوله سواء أكان قليلاً أو غامضاً أو مبعثراً
أن يصور ما وصلت إليه حالة التفاعل عنده بكل ما فيها من صور وأفكار
وإحساسات.

يصف المسلمين فيقول:

«المسلمون يتنازعون فيما بينهم
لا يرسمون على قلوبهم إلا رسم الشرك
لو يأخذ أحد "لبنة" من ذلك المسجد الذي يهربون منه
يبكون عليها».

وعن الأتراك العثمانيين:

«صار العثماني أميراً في بلده
قلبه مطلع، عينه بصيرة
لا تظن أنه وجد الخلاص من قيد الإفرنج
فهو حتى الآن أسير في طلسمهم».

٢ - الزمان:

ومسألة الزمان هنا تشمل انتقال الأمة من طور إلى آخر أو تدرجها من مرحلة
إلى أخرى وهو ما يغير نظم الحياة عندها فيخلق جواً آخر في وسائل العيش،

والتقاليد الاجتماعية، ويؤثر بالتالي في الفكر، وضمن هذا التعبير يكون العامل المؤثر الأول في القصيدة الشعرية هو شخصية الشاعر نفسه، أو بعبارة أدق هو أحداث حياة الشاعر الخاصة، وما قد تقود إليه هذه الحياة من مزاج ومعتقدات^(١)، وكان إقبال نفسه يطالب أهل زمانه بالألا يجمدوا، بل بالألا يرجعوا إلى الوراء، وأن يتحرروا من عبودية الأزمنة الغابرة:

«إلى متى تبقى نظرتك ممزوجة بالعتاب؟

إلى متى تبقى أصنام هذا العصر؟

وإلى متى يبقى أولاد إبراهيم

خدماً للنمرود في بيت الأوثان؟»

وعن زمانه وعصره الذي طغت عليه الماديات يقول:

«ضمير العصر الحاضر بلا نقاب

وظهوره في إظهار اللون والنضارة».

وأيضاً قوله:

«هذا العصر معلم سيء للشباب

هذا العصر نهار لليلة إبليس

إنني أنطوي بذيله كالذبالة

فهذا العصر بلا نور وبلا حرارة».

٣ - الانصال بالشعوب:

وهذه الصلة قد تكون صلة حربية، وقد تكون صلة سلمية بالاختلاط والمصاهرة والاتجار ونحوه، وقد تكون عقلية بالترجمة، ودراسة اللغات الأجنبية، وما دونّها من علوم وفنون وآداب وفلسفات.

(١) د. سهير القلماني. النقد الأدبي ص ٤٢.

وإقبال اتصل بجميع الشعوب سواء كان ذلك بالارتحال إليها أو قراءة آدابها وثقافتها إما عن الأصل أو عن الترجمة فحين نقرأ الرومي ونيتشه وبرجسون وفشته والجيلي والفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية والفلسفة الهندية القديمة والفلسفة الأوربية الحديثة، وكذلك الشعراء الألمان والإيطاليين والإنجليز نحس أن إقبالاً قرأ كل هذا، وتأثر به، ولا يخفى علينا ما تركه الشعراء العرب من أثر في الشعراء الإيرانيين، وعن طريق الفارسية انتقل هذا الأمر إلى الأردنية، وقد ظهر هذا الأثر واضحاً عند إقبال، فنجده يذكر المنازل وفرقة الطريق والانفصال عن الأحبة، والقوافل العابرة، وروح المسافات اللامتناهية، وإقبال تأثر بالأدب العربي فقد قرأ العربية عن طريق سيد مير حسن^(١)، وحين نطالع كلامه نجد أنه يذكر من الشعراء العرب المتنبي والمعري وعمرو بن كلثوم الذي ضمن شعره في هذه الرباعية:

«صبت الكأسَ عنا أمَّ عمرو

وكان الكأسُ مَجْرَاهَا اليمينا

لو أن هذا هو طبع الصداقة

فعليك أن تحطمي الكؤوس والأقداح بجدار الحرم».

وهو يذكر الخيام والحادي والمنزل :

«انزل الخيمة أيها الخيام

فالحادي خرج من المنزل

وصار العقل منهكا متعبا من سوق المحمل

فأسلمت زمامي ليد القلب» .

وعن الصحراء وجمالها يقول :

«ما أجمل الصحراء التي تمضي فيها القوافل

(١) محمد عبدالقادر، مقدمة بانك درا.

وتتلى الصلوات ، وتساق المحامل
 فاسجد على رمالها المحرقة
 واحرق الجبين حتى يبقى عليه الأثر» .
 «ما أجمل الصحراء فمساؤها صبح بسام
 ليلها قصير ، نهارها طويل
 خفف الوطء أيها السائر فإن
 كل ذرة من رمالها محزونة مهمومة مثلنا» .
 ويذكرنا هذا بقول الشاعر العربي :
 «خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد» .

٤ - الدين :

لا يشك أحد في سلطانه القوي في الآداب ، وربما كان الباعث الأسبق على ابتكار الأناشيد الدينية التي رتلها الجماعات البشرية في المعابد ، وكثير من الديانات لها كتبها المقدسة التي تعد مثالا أدبياً ، والقرآن الكريم معجزة النبي هو من النماذج التي لم يصل إليها بشر^(١) والنظام الديني ويندرج تحته النظام الاقتصادي والنظام الثقافي ، والأدب من وحداته ، كل هذه النظم تتفاعل وتكون الحياة رغم أنف الأفراد ، بل رغم أنف الجماعات أحياناً . والشاعر في الواقع ليس شاعراً لفردية ولا هو شاعر لما يتأثر به من حوله من الأحداث عامها وخاصها ولكنه شاعر بما يمكن أن يعبر عنه من خصائص النظام الثقافي الذي يظله ، وتفاعل هذا النظام بغيره من النظم الأخلاقية أو الاقتصادية أو السياسية .

والشعر لا يمكن أن يفهم حق الفهم إذا اعتبر خيال شاعر أو إحساس فنان لأنه أولاً وقبل كل شيء جزء من النظام العام ، نظام الكون الذي يتكون من تفاعل عدة

(١) الشايب . أسس النقد الأدبي ص ٨٦ .

أنظمة أهمها بالنسبة للأدب عامة والشعر خاصة النظام الثقافي الذي يتبعه كوحدة من وحداته وعلى ذلك يرى "جورادن" مثلاً أن النظام الشيوعي أو الديمقراطي أو الرأسمالي بعيد عن فهم الصور في أدب أمة يسودها هذا النظام بصرف النظر عن الزمان والمكان والجنس بل بصرف النظر عن شخصية الشاعر لأن تفاعل هذا النظام السياسي مع تفاعل النظام الثقافي في أي عصر هو الذي يتحكم في شخصية الفن، ووجوده على هذا النحو بالذات، وإذا نظرنا إلى نظامنا الإسلامي الحنيف نرى أنه كنظام ديني وسياسي واجتماعي قد أثر فعلاً في أدب الذين يستظلون بظله مع أن كلاً منهم قد كتب بلغته^(١).

وخير دليل على أثر الدين في شعر إقبال هنا هو تلك القصص التي استوحاها من القرآن ونظمها، فقد تأثر بها إلى حد كبير، بل إن فلسفة الذات نفسها - وكما أشرت - نابعة من القرآن الكريم نفسه، ويتضح هذا الأثر في أرمغان حجاز وفي الكثير من المواضيع سواء في الشعر الفارسي أو الشعر الأردني وإقبال يشير إلى قوله تعالى: ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ [طه: ٦٨]:

«تعال أيها الساقى ارفع النقاب عن الوجه

لقد انسكب دم القلب من عيني

وبلحن لا هو شرقي ولا هو غربي

اعزف أغنية من مقام "لا تخف".

كما يقول:

«أنت الذي جلبت النظر إلى عيني

أنت الذي جئت بنور "لا إله إلا الله"

واجهنني بصبح "من رأني"

(١) د. سهير القلماوي. النقد الأدبي ص ٤٦.

فأنت الذي جنت بنور القمر لليلى» .

ويلمح إلى قوله تعالى: ﴿ولا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ [ق: ٣٨]:

«مقام الأمة عال وسط الأمم

لأن الأمة هي إمام للدارين

إنها لا تنى عن مواصلة أمور خلقها

إذ أن النوم والتعب عليها حرام» .

عناصر المضمون في أرماغان حجاز

١ - الفكرة - ٢ - العاطفة

٣ - الخيال - ٤ - الحقيقة

١ - الفكرة :

ما يعيننا هنا هو محاولة أن نتبين كيف تتم العملية الفنية والمراحل التي تجتازها، وفي دراسة الإبداع الفني ندرس من جملة ما ندرس الفرق بين الأثر الأول الذي أتاح للفنان فكرته الأولية "الخام" وبين الصورة التي خرجت عليها هذه الفكرة. ما هو هذا الأثر الأول؟ أو بعبارة أخرى ما هي الشرارة الأولى من الإلهام؟ فالشاعر نفسه هو المصدر الأول وهو يذكر الحادث الذي أثاره، يتذكره أولاً، وقد يتأثر من شيء رآه مراراً أعواماً عديدة لكنه فجأة ودون أسباب معلومة يرى في هذا الشيء العادي شيئاً غير عادي يحاول أن يتبينه وأن يبين عنه^(١) وإقبال ارتحل إلى أوروبا، وأعطى رأيه صريحاً واضحاً وظل على ذلك طوال حياته؛ فأرماغان حجاز هو آخر ما كتب بل نشر بعد وفاته، وإقبال لم تخدعه أوروبا وطراوتها فظل يحذر مراراً وتكراراً:

«لو تنظر مرة إلى الإفرنجيات ذوات القلنسوات المائلة

تظنهن شموسا وأقماراً

فتاي ساذج دمه ناثر

فاحذر من أصحاب النظرات الكافرة» .

ولم تأته الشرارة الأولى فقط عن مشاهداته بل من قراءاته التي تبقى وتظل في فكره حتى تخرج في أجمل صورها، وها هو يشير إلى قصة إسلام عمر حين سماعه القرآن الكريم، يقول إقبال مخاطباً بنات الأمة الإسلامية :

«أظهري الأسحار من ليالينا

(١) د. سهير القلماوي. النقد الأدبي ص ٤٦.

وأقرني القرآن أهل النظر
إنك تعرفين أن حرارة قراءتك
قد غيرت تقدير عمر».

كان فكر إقبال متجدداً، وبيانه رائعاً، لم يكن يبتعد في التعبير عن أفكاره عن إيراد الموضوعات الصعبة، والوسيلة الوحيدة للتعبير عن الوجدان في الفن تكون إيجاد "معادل موضوعي" أو بعبارة أخرى بخلق جسم محدد أو موقف أو سلسلة من الأحداث تعادل الوجدان المعين الذي يراد التعبير عنه حتى إذا ما اكتملت الحقائق الخارجية تحقق الوجدان المطلوب إثارتة^(١)، وحين أراد إقبال أن يعبر عما يجيش بداخله تجاه العصر الحاضر تمثل أمامه "المعلم السيء للشباب" تمثل أمامه "الوقت المواقف لنشاط إبليس" "الجو المظلم السقيم" فأخرج لنا فكرته مصورة تصويراً رائعاً نحسها جيمعاً ونلمسها:

«هذا العصر معلم سيء للشباب

هذا العصر نهار ليلية إبليس

إنني أنطوي بذيله كالذبالة

فهذا العصر بلا نور وبلا حرارة».

٢ - العاطفة:

العاطفة شيء مهم جداً في الشعر؛ فلم يعد الشعر يحفل بالفكرة في ذاتها ولا بالحكمة في ذاتها، بل يحفل بتأمل الأفكار والحقائق تأملاً وجدانياً أي بالتعبير عن واقع هذه الحقائق والأفكار والحكم في النفس البشرية، وتأثيره فيها عن طريق التأمل^(٢)، والمضمون سواء استمدّه الشاعر من الطبيعة الخارجية أو من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية لا بد أن يتخذ الطابع الوجداني الذي إذا فقدته الشعر فقد

(١) د. رشاد رشدي. مقالات في النقد الأدبي ص ٦٢.

(٢) د. مندور. فن الشعر ص ١٠٢.

جوهره، ولم يستطع أن يعرض هذا الفقدان بأية واقعية أو طبيعية أو محاكاة، فالشعر في مضمونه أولاً وآخرأ تعبير عن وجدان الشاعر أياً كان مصدر هذا الوجدان الذي تختلط فيه الطبيعة في ذات الشاعر ومجتمعه وحياة مجتمعه^(١).

وإقبال في شعره اتبع أيضاً هذا الأسلوب فمع الطبيعة مزج النفس، ومع الحقيقة تخالطت العاطفة فُقُبِسَتْ كلماته من نار القلوب :

«أبكتني جفوة أهل الدنيا

فإنهم يعتقدون أن بكاء طيور السحر نغمات

لا تقل إن علاج حزن الصديق يمكن بالصبر

لا تقل إن حل لغز الموت كامن في الصبر

القلب الذي يعشق ويصبر ليس سوى حجر

فبين العشق والصبر ألف فرسخ

لا تسلني عن العمر الذي يمر بسرعة

فمن يدري شيئاً عن الافتتان والجاذبية

كل من يظهر من التراب سيوارى فيه

أهذه هي الغيبة الصغرى أم هذا هو الفناء؟ ماذا؟».

والعواطف الأدبية تنقسم إلى قسمين :

أولاً : العواطف الشخصية :

وهي العواطف التي تحملنا على الدأب وراء صالحنا الخاص سواء كان انتقاماً أو هروباً أو مدحاً رجاءً لنوال أو هجاء . وهذا النوع من العواطف نادر جداً لدى إقبال . فشعره الهجائي بصفة عامة متحرر من الخطأ الذي يلاحظ عامة في معظم

الشعراء متمثلاً في القدح وغيره وإقبال كان يغضب فقط من شياطين السياسة والمتملقين سواء في الدين أو الحياة الاجتماعية، وقوته هنا تكمن في هدوئه، والمعروف أن إقبالاً يستنكر تماماً فكرة القومية الضعيفة، ويعتبر أن معظم المتاعب في أوربا يرجع سببها إلى نعرة القومية العدوانية التي ترمي إلى تقسيم الإنسانية إلى أقسام منفصلة داخل سدود الحياة، ومن هنا خاطب إقبال في الأبيات التالية الشيخ "حسين أحمد" في نهاية أرمغان حجاز:

«لا يعرف العجم حتى الآن أسرار الدين

وحسين أحمد - وهو من ديوبند - لا يعرف كذلك، يا للعجب

إن من يخطب على المنبر قائلاً: إن الملة قائمة على الوطن:

إنما هو جاهل بمقام محمد العربي

اتباع أصحاب المصطفى إذ هذا هو كل الدين

فإذا لم تصل إليه فتكون أعمالك أعمال أبي لهب».

وحسين أحمد في هذه الأبيات من الداعين إلى القومية الذين يريدون أن يتعاملوا مع الجنس البشري فقط على أساس المجموعات، وقد قدمه إقبال كقومي أو صاحب عقل ضيق، وذلك ليس لشخصه هو بل يبقى مثلاً على مر السنوات، وفي كل البلاد، فليس هناك عداًء أو خصومة شخصية بينه وبين الشاعر.

ثانياً: العواطف الاليمية:

وهي التي تثير آلام الشعراء وتشعرهم بما ينغص حياتهم، ويكدر صفوها، كالخسد والسخط واليأس والظلم ونحوها لأن وظيفة الأدب الرفيع تغلب عليها تهذيب النفس، وإذاعة السرور أو اليأس والندم على أن الأديب لا يحمل نفسه بالآلام إلا أن يكون سقيم الحس كتيب الطبع يرى الحياة شروراً وأثاماً^(١)، وقد بعد إقبال كثيراً عن هذا لأن الكآبة والتشاؤم يعارضان فلسفته القائمة على الأمل والخلق

(١) الشايب. أصول النقد الأدبي ص ١٧٣.

والإبداع فهو يبيث الأمل دائماً :

«كيف أصبح مشروط التحقيق لديك كالآ؟

لماذا لا تستطيع أن تمزق أكباد النجوم؟

لماذا لا تخضع لك الشمس والقمر؟

لماذا لا ترتجف الأفلاك من أنظارك؟

الدم صار في عروقك راكداً لا ينشط

وليس عندك حمية الأفكار والفكر الجريء

أين ذهب القلب الصافي - لم يبق لك

يا شهيد - السلطنة والملا والتمشيخ!!» .

٣ - الخيال :

لم يكن إقبال يهتم كثيراً بخلق الصور فهو شاعر صاحب رسالة ، وفي سبيل أداء رسالته لم يكن يتجه كثيراً إلى ذلك ، فشعره لم يكن لتسلية الناس وقضاء أوقاتهم بل هو يمثل خلق السيرة وتربية الفكر والذهن ، والفكرة والتعبير هي للشعر الخيوط التي يُنسج منها ، ويُحاك والمظهر الذي يبدو به^(١) وما كان عند إقبال هو نوع من الخيال التأليفي ، وهو يخالف الخيال الابتكاري فليس فيه ابتداع صور حسية طريفة ، وربما كان العكس هنا فهذه الصور الحسية هي التي بعثت في النفس صورة جديدة ، وكانت عواطف إقبال جياشة ، وهذا ضروري فإذا كانت الصورة الخيالية ناشئة عن عاطفة سقيمة ، بدت متكلفة أو بعيدة الصلة عن الحقيقة ، ويلاحظ ذلك عند الأدباء العقلين الذين يطغى عندهم سلطان الفكر على الشعور^(٢) .

وقد أوحى صورة الخراف الباحثة عن الكأ لإقبال بهذه الرباعية :

«الشاب الوسيم الذي يرتدي القلنسوة الملونة

(١) إقبال رويو ، يولية ١٩٦٣ .

(٢) الشايب ، أصول النقد الأدبي ص ٢١٧ .

وله نظرات صائبة كنظرات الأسود

تعلم بالمكتب علم الخراف

فلم يتيسر له الكلاء» .

ولندقق في هذه الصورة :

«أخرج الحقد من صدرك

فمن الأطيب أن يخرج دخان البيت من النافذة

لا تعط أحداً خراجاً من زرع القلب

لا تجعل نفسك يا عمدة القرية مُغيراً عليها» .

كما أن إقبالا يملك نوعاً من الخيال البياني أو التفسيري ، وهو ليس ابتكارياً يُعنى بتأليف صورة جديدة ، وليس استخدامه للصور الحسية لبعث مشاعر تستدعي صوراً تشبيهية كما هو الشأن في الخيال التأليفي ، وهذا النوع خير وسيلة لوصف الطبيعة وصفاً أدبياً رائعاً لأنه قائم على إدراك جمال الأشياء وأسرارها ثم اختيار العناصر التي تمثل هذا الجمال تمثيلاً قوياً ، وذلك بخلاف الوصف العلمي الذي يعني بجسوم الأشياء ، وإحصاء أجزائها ، دون إدراك معانيها الأدبية أو التمييز بين درجاتها الفنية ، وبعبارة أخرى أن الأديب يعني بتفسير المشاهد أكثر مما يعني بوصفها ، ومن غريب الأمر أن وصف الطبيعة يكون أحياناً أروع من الطبيعة ذاتها :

«بكى الندى من رياح الصباح شاكياً :

إني أمل نظرة منك

صار قلبي بارداً من صحبة الورد

امض يا نسيم الصباح حتى انسكب على الحشائش»

«قال الموج المطرب للساحل

إني أعرف قيمتي بفرعون

أحياناً التوى على نفسي كالثعبان
وأحياناً أرقص بذوق الانتظار»

فوصف الطبيعة في الرباعيتين السابقتين جاء أروع من الطبيعة ذاتها لأن الوصف الأدبي يختار أجمل ما في الطبيعة من عناصر، ويفسر لنا ما فيها من أسباب الجمال.

٤ - الحقيقة :

لا بد للأدب أن يجمع في أدبه بين وفرة الحقائق وصحتها ووضوحها، وهذا ينتج قوة وجمال الأسلوب الناشئين عن شعور صحيح وإيمان صادق، وعلى هذا تقوم منزلة الشاعر الأدبية، ومن المقرر أن الاعتقاد بصحة الآراء أو الحرص على إذاعتها يولدان في نفس الأديب اعتزازاً بها ورغبة في فرضها على النفوس، ومن ذلك ينشأ انفعالنا بها، واعتناقها في أغلب الأحوال، وعلى هذا فالعنصر العاطفي لازم إذاً ليوفر لهذا الأدب الثقافي روعة وحسن تأثير ولقد اهتم إقبال بهذا اهتماماً كبيراً :

«لولا لم يكن خطيب المنبر والمحراب ذو همة ونشاط

فالدين للعبد المؤمن إما الموت أو النوم

إنما العبودية موت شاق

ألا ليت العبد يفهم مكر وخداع السيادة

حين يخاف رجل الحق السلطان والأمير

تخرج آهة محرقة من صدر الأفلاك» .

وللحقيقة العقلية مكانة ممتازة في الفن حتى إن درجته الأدبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما فيه من صواب وحق بل إن المقياس الأول للعاطفة هو قيامها على أساس صحيح، وسبب مقبول لتكون عميقة قوية تضمن للأدب صفة الخلود.

ثانياً : الديوان

إلى الحق سبحانه وتعالى

ما أسعد ذلك المسافر الذي لا يحمل متعا

قلّما يقبل قلبه نصيحة الأحياب

افتح الصدر بأهته المحرقة

فأهة واحد - من أهاته - تقضي على حزن مائة عام .



أولئك الذين ليس لهم قلوب، أخذوا قلوبنا وولوا
وانطفأوا كشمعة وولوا
تعال، لكي تأنس لحظة مع العامة، وامتزج بهم
فقد شرب الخواص المدام وولوا.

★★★★★

جری الكلام عن وجودي وعدمي
قلما تفوهت بحديث بسبب الخجل
أنت أدري بسجود الرجال الأحياء
فقدّر عيار عملي من سجودي.

★★★★★

قلبي مشغول بحل لغز «متى وكم؟»
إن نظره يسمو فوق القمر والثريا
فاعطه مكانا خربا في الجحيم
لأن هذا الكافر يحب الخلوة كثيرا.

★★★★★

ما هذا الاضطراب الذي وقع في «الماء والطين»
عانى العشق مائة مشكلة بسبب قلب واحد
حرام عليّ القرار ولو للمخطة
رحماك .. لقد تبع عملي قلبي.

★★★★★

من أخرج العالم من ذاته؟
 من رب هذا الجمال المتجلى بلا حجاب؟
 تقول لي: احذر الشيطان
 فقل لي: إذن من صيرَه هكذا؟



قلبي الطليق في اضطراب وقلق
 أنصبي عتاب أم خطاب؟
 لا أستطيع إيقاع الأذى حتى بقلب إبليس
 فالذنب الذي أقرته أحيانا قد يكون صوابا.



صَبَّتِ الكأسَ عِنا أم عمرو
 وكان الكأسُ مجراها اليمينَا
 فلو كان هذا طبع المحبة
 فحطمي الكؤوس والأقداح بجدار الحرم^(١)



المضطربون أسارى في سجن القلب
 كلهم مرضى بغير دواء
 أي سجود تريده منا، إن الملوك
 لا يجبون الخراج من القرية الخربة.



(١) إشارة إلى شعر عمرو بن كلثوم حيث يشكو من ظلم معشوقته أم عمرو. وقد ضمن إقبال هذا البيت في شعره.

أسير في طريق ليس له منزل
 البذور التي أنثرها لا نتاج لها
 أنا لا أخشى الأحزان
 ولكن لا تعطني حزناً لا يليق بالقلب .

احفظ خمري عمن يسكرون سريعاً
 احفظ الشراب الناضج عن غير الناضجين
 من الأفضل أن تبعد الشرر عن مزرعة الغاب
 امنحه الخواص ، وامنعه عن العوام

ليس لديك هذا الاضطراب اللازم للقلب
 ليس لديك الألم والجراح - ولا الحرقه والحرقه
 لذا هربت من «اللامكان»
 فليس هناك نواح منتصف الليل .

اعط الاضطراب للعالم ، مني
 بدل وغير الأرض والسماء
 أوجد من ترابنا آدمياً آخر
 واقتل هذا الذي هو عبد للربح والخسارة .

صارت الدنيا بالشمس أكثر ظلمة
 صوابها جميعه صار خطأ

لا أدري إلى متى تهب هذا الخراب
اللون والبهاء من دم آدم!

أنا عبدك لا أبغي سوى رضاك
ولا أسلك إلا الطريق الذي أمرت به
لكن إذا قلت لهذا الجاهل:
قل للحمار: «حصان عربي» فلن أقول

﴿٣﴾

أحمل في صدري قلباً محزوناً
ليس في قبضة ترابي^(١) حرقه ولا نور
خذ مني ثواب هذه الصلاة التي لا حضور فيها
فكاهلي مُثقل بها.

ماذا أقول عن حكاية الدين والوطن
لا يمكن التصريح بهذا الكلام
لا تتألم مني فبسبب إهمالك لي
بنيت نفس المعبد القديم^(٢).

المسلم المكبل في قيد الإفرنج
قلبه بداخله مضطرب قلق

(١) قبضة التراب هي الإنسان نفسه.

(٢) أي الانغماس في نزعه الوطنية على حساب الدين.

الجبين الذي وضعته على باب الغير
لا يأتي بسجود «أبي ذر وسلمان»

لا أبغى هذا العالم أو ذلك
فيكفيني أن أعرف سر الروح
أعطني سجوداً أجلب بحرقة
ونشوته الوجد للسماء والأرض^(١).

ماذا تبغى من هذا الرجل الكسلان؟
لقد ذهبت عن المكان مع كل ريح هبت
رأيت في السجدة «جاويد»^(٢) وقت السحر
فجلي (أضيء) طلعة مسائي بصبحه.



القوم الذين أطلب لهم منك الفتح
فقيههم بلا يقين، قليل الذوق
رأيت أشياء كثيرة غير جذيرة بالرؤية
ألا ليت أمي لم تلدني!^(٣)

(١) لا يضير لو هلك الجسد ما دامت الروح وهي جوهر الإنسان ستفترق عنه مكلمة العشق والمحبة ساعية إلى عالمها العلوي وهي في سعيها هذا قادرة على جلب الوجد للسماء والأرض.
(٢) هو جاويد بن العلامة إقبال، والشاعر يدعو الله أن يجعل منه مسلماً صالحاً.
(٣) هذا المصراع لسعدي (مرا أي كاشكي مادر نه زادي)، والشاعر هنا يتحدث عن مسلمي الهند.

إلى متى تبقى نظرتك ممزوجة بالعتاب؟

إلى متى تبقى أصنام هذا العصر؟

وإلى متى يبقى أولاد إبراهيم

خدماً للنمرود في بيت الأوثان^(١)؟ .

الأنعام التي مضين، قد تعود أو لا تعود!

قد تهب رياح الحجاز، أو لا تهب!

انتهت أيام هذا الفقير

وقد يأتي عالم آخر بالأسرار أو لا يأتي!

لو يأتي ذلك العالم بالأسرار

فاعطه نغمات تذيب القلب

وليطهر ضمير الأمم

الحكيم أو الكليم العازف على الناي^(٢) .

متاعي : قلب خبير بالآلام

نصيبي : استغاثة غير مجدية

من الأفضل أن يكون على قبري شقائق النعمان^(٣)

لأنه صامت ، وصوته دام .

(١) النمرود هو النمرود بن كنعان الملك الذي ألقى بسيدنا إبراهيم في النار، وإقبال يدعو الله أن يرفع عن العالم والإسلامي ما حلَّ به من خراب .

(٢) الكليم هو سيدنا موسى، والحكيم هو سليمان عليهما السلام .

(٣) لشقائق النعمان مدلول خاص Symbol لدى إقبال فهي عنده مظهر خارجي لعاطفة العشق فهي صامته لكنها تعبر عن العشق .



إنه لا يعرف كيف يأخذ القلب من يد أحد؟
لا يعرف كيف يربي الحزن في الصدر؟
إنك نفخت أنفاسك في تراب
لا يعرف غير الأكل والموت .



هرب قلبنا من جنبنا
صورته^(١) بقيت، معناه اختفى
الرجيم الذي أخرج من تلك العتبات أفضل
لأن الحق رآه بينما سمعنا فقط .



جبريل لا يعلم شيئاً عن هذه «الها والهو»
إذ أنه لا يعرف مقام البحث
اسأل عبدك المسكين
لأنه يعرف وخز الأمل ونشوته^(٢) .



(١) الصورة والمعنى يكمل كل منهما الآخر، الصورة هي الشكل الظاهري، والمعنى هو المضمون الباطني، ومن اعتبر الصورة والمعنى شيئاً واحداً كان خاطئاً. فالصورة قريبة من المعنى لأنها تعبر لكنها بعيدة عن المعنى لأن له طبيعة أخرى، ولأنه هو الجوهر المقصود. فمن اقتصر على صورة الصلاة وجعل معناها كانت صلته باطلة لا جدوى منها كما أنه من كان حبه مجرد ابتسام وإظهار للمحبة من غير إحساس بها؛ فهو من المرائين المخادعين وليس من المحيين.

(٢) «الها والهو» يقصد النداء «هو الله» وإقبال هنا يود أن يقول إن مقام الإنسان أفضل من مقام الملائكة لأن الله وضع بداخله رغبة البحث والوصول إلى محبة الله بطاعة أوامره.

رتبت ليلة هذا الحفل
وتناقضت رويدا رويدا كما ينتقص القمر في دورانه
وجرت الحكايات عن إهمالك إيانا
لكني نهضت من وسط المحفل^(١).

قلما رأيت السماء عصرا كهذا
ذلك الذي يدمي قلب جبريل الأمين
ما أجمل ذلك الدير الذي بنوه هناك
حيث المؤمن يتعبد، والكافر ينحت!

﴿٦﴾

أعطني اضطراب الرومي وحرقة خسرو
أعطني صدق وإخلاص سنائي
آه، لقد ألقت العبودية
فلو تمنحني الألوهية، لا آخذها.

﴿٧﴾

المسلم فقير ومهلهل - الثياب -
جبريل يصبح متألما من أعماله
تعال، لترسم أمة أخرى
فهذه الأمة عبء على كاهل العالم.

(١) حرص إقبال على أن يتخذ من الصور الملموسة مادة لتشبيهاته ووسيلة لتحقيق معانيه وها هو يأخذ صورة القمر الذي يكبر حتى يصير بدرا ثم يتناقص حتى يختفى في النهاية إلى محاق.

لنرسم - أمة أخرى تضع العمل نصب عينها
 أمة أخرى تأخذ العسل من الزنبار
 أمة أخرى لا ترضى بعالم واحد
 أمة أخرى تحمل الدارين على كاهلها .

وأتت بقوم آخرين ، يخرج الصباح من قلب الليل
 بذكرهم «لا إله إلا الله»
 فالشمس تعرف منزلهم
 لأن رمل المجرة يكنس طريقهم^(١) .



عالمك خاضع لعدد من التافهين
 أهله في قيد عدد من اللا إنسانيين
 الإنسان الماهر يقتل نفسه في المصانع
 لكي يعيش عدد من النسور^(٢)

قال المرید الجائع - المحروم - للشيخ
 لا يستجيب الله لدعائنا وهو أعلم بحالنا
 فهو أقرب إلينا من جبل الوريد^(٣)

(١) المجرة - في النص «كهكشان» وهو درب التبانة .

(٢) يشير إلى سيطرة الإفرنج وإلى عبودية العمال داخل المصانع .

(٣) تلميح إلى الآية الكريمة «ونحن أقرب إليه من جبل الوريد» [ق: ١٦] . وإقبال هنا يسوق الحديث

على لسان من يعملون تحت إمرة من لا يعطونهم حقوقهم ، وتكاسلوا فلم يطالبوا بحقوقهم متظنين
 أن يُنعم الله عليهم دون سعي منهم .

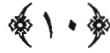
لكن ماذا عن حال بطوننا؟!



مملكة الهند حالها متغير مضطرب
وكذا تلك الأرض والسماء
لا تبحث عنا في أوقات الصلوات الخمس
فالعبيد يصعب عليهم تنظيم الصفوف^(١).



المسلم يبيع نفسه بسبب المحكومية
وهو أسير لطلسم العين والأذن
وهكذا الشرايين ضعيفة في الجسد بسبب المحكومية
لدرجة أن الشرع والدستور صارا عبثا على كاهلنا^(٢).



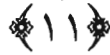
قدر النفع والخسارة لبرهة
واجعل العالم خالداً كالجنة
ألا ترى كيف زيننا نحن الترايين
هذا المنزل الترابي!



(١) إشارة صريحة إلى أحوال الهند آنذاك.

(٢) يشير إلى أحوال المسلمين وسيطرة المستعمرين عليهم سواء كان ذلك عن طريق إيهار المسلمين بما للحضارة الأوروبية من لون زائف «طلسم العين» أو بما يسمعون من أحاديث مزيفة وأقاويل مخترعة من جانب الغرب «طلسم الأذن»، والشاعر يريد أن يمزج الدين والدنيا «الشرع والدستور».

إنك تعرف ما الحياة الخالدة
ولا تعرف ما الموت المفاجيء
لو أصبح خالدا فما الخسارة في هذا؟
فهذا لا يتقص من عظمتك شيئا قليلا كالنفس .



حين يصل هذا العالم العجوز إلى نهايته
وينكشف كل تقدير خفي
لا تخجلنا أمام سيدنا^(١)
ولتحاسبننا عن أعمالنا بعيداً عن نظره ! .



عجز الجسد، والروح في كروفر
إلى مدينة - تقع - البطحاء في طريقها^(٢)
فلتبق أنت هنا واختلط بالخاصة
فلدي هوى إلى منزل الحبيب



(١) يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) البطحاء هي مكة .

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

تحت السماء مقام أرق من العرش يستلزم الأدب

ذلك المقام الذي يحضر إليه جنيد وبايزيد تائهي الأنفاس^(١)

عزت بخاري^(٢)

(١) جنيد وبايزيد من المتصوفة المشهورين، توفي الجنيد البغدادي عام ٢٩٧ هـ، أما بايزيد فهو أبو يزيد البسطامي المتوفى عام ٢٦٠ هـ، ولهما تراجم كثيرة في كتب التصوف مثل حلية الأولياء، طبقات الصوفية، مرآة الجنان، تذكرة الأولياء، الرسالة القشيرية. والشاعر هنا يقصد التأدب مع تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، واحترام سنته المباركة أقوالها وأفعالها، من أساء إلى السنة أو فعل خلافها فهو في نظر العلماء يستحق الاستتابه.

(٢) هو: عبدالولي بن سعدالله وهو ينتمي لإحدى القبائل التركية، كان أبوه من مستشاري الإمبراطور عالمكير، وقد ترك عزت بخاري بلاط عالمكير بعد فساد أبيه، واتجه إلى البنغال ومنها إلى حيدرآباد الدكن حيث توفي.



ارفع الخيمة أيها الخيام
فالحادي خرج من المنزل
صار العقل منهكاً تعباً من سوق المحمل
فأسلمت زمامي ليد القلب^(١).



كنت أنظر إلى جوهر القلب
وارتجفت واسترحت في حضنه
هربت مسرعاً من هواء القرية والمدينة
وفتحت باب القلب لهواء الصحراء



لا أعرف لمن هذه الجلوة حيث سقط القلب شهيداً
لم ينل القلب راحته - ولو للحظة واحدة
ذهبت به إلى الصحراء فصار أكثر حزناً
وبكى بكاء مُراً على حافة جدول.



لا تسأل عن قافلة سكارى الجلوة
منزوعي الأيدي عن أمتعة الدنيا
أرواحهم مليئة بضموضاء رنين الجرس
ضوضاء تشبه ضوضاء موج النسيم في مزرعة الغاب.

(١) كان إقبال يطلب المعرفة عن طريق الذوق أولاً، ثم العقل ثانياً، وهنا إشارة إلى شعر المتوجّهري:

الا يا خيمكي خيمه فرهمل كه بيش آهنگ بيرون شد ر منزل

مضيت في طريق يثرب رغم شيخوختي والمشيب
مضيت منشداً منتشيا بسرور العاشقين
كطائر يرفرف يفتح جناحيه ساعة المغيب
مفكراً في عشه لياوي إليه



أشاعوا ذنب العشق والسكر^(١)
وجعلوا دليل الناضجين^(٢) بلا فائدة
أنشد وأتغنى بنغمة الحجاز
فقد سكبوا قطرات الخمر في الكأس قبل الأوان^(٣).



ماذا تسأل: أتسأل عن مقامات تضرعي
الندماء لم يعرفوا سوى القليل عن أمنيته
ألقيت رحلي في هذه الصحراء
لكني أغنى وحيداً في خلوتها.



قلت للناقة وقت السحر: تهدي في سيرك
فالراكب، مجروح، ومريض، وعجوز
فسارت تخطو كالسكران حتى أنك تظن
أن رمال الصحراء أضححت تحت قدميها حريراً.

(١) لأن الفلاسفة يجعلون العشق ذنباً.

(٢) أي الفلاسفة.

(٣) لقد أبطل العاشقون مسلك الفلاسفة. ولهذا فسوف أنشد أنا أيضاً نشيداً بلهجة حجازية لأنني

ذهبت إلى ديار الحبيب.

شد اللجام لا يليق بها أيها الجمال
فروحها بصيرة كروحنا
عرفت من تموجات سيرها
أنها أسيرة مثلي داخل طلسم القلب .

★★★★★

عيونها السوداء ندية بالدموع
قلبي يحترق من آهات صياحها
تلك الخمر التي أضاءت وأشعلت ضميري
تنسكب دوماً من موج نظرتها

❖ ❖ ❖

ما أجمل الصحراء التي تمضي فيها القوافل
وتُتلى الصلوات ، وتُساق المحامل
فاسجد على رمالها المحرقة
وأحرق الجبين حتى يبقى عليه الأثر .

★★★★★

ما أجمل الصحراء فمساؤها صبح بسام
ليلها قصير ، نهارها طويل
خفف الوطء أيها السائر فإن
كل ذرة من رمالها محزونة مهمومة مثلنا^(١) .

(١) كثيراً ما تغني الشعراء بوجود التخفيف في السير على الأرض لكن أسباب التخفيف تختلف فقد يكون السبب أن الإنسان «قد يطأ أهداب فتاة حسناء» (كما قال شعراء الفرس) . أو «أن أديم الأرض من هذه الأجساد» (كما قال شعراء العرب) .



يا أمير القافلة ! من هو ، ذلك الأعجمي
الذي لا يعزف لحنا عربياً
لكنه يعزف نغمة يستطيع الإنسان من روائها
أن يعيش في الصحراء بقلب مستريح^(١)



منزله هو مقام العشق والسكر
ما هذه النيران في تكوينه^(٢)
نغماته مطابقة لكل قلب
ففي كل صدر قطعة من قلبه .



الحزن المكتوم ظاهر دون أن يُقال
لأنه حين يأتي على اللسان فهو حكاية واحدة
الطريق مليئة بالاعوجاج ، والسائر فيها عاجز وضعيف
ومصباحه منطفيء ، والليل قادم .



بشائر الربيع أظهرت شقائق النعمان فوق الوديان
ألقي الأصدقاء برحلمهم في الصحراء

(١) يقصد بالأعجمي الساكن أو القادم من بلاد العجم سواء كان عربياً أو فارسياً ، وهو هنا مستعد لأن يعيش طوال حياته في الصحراء نظراً لما هو عليه من جاذبية ففي هذه الصحراء سيتفنى بأشعار محبته لرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) حرفياً : (ما هذه النيران في مائه وطينه) .

إنني أفضل أن أجلس وحيداً
على شاطيء جدول جبلي .



أقرأ أحيانا شعر «عراقي»
وأحيانا يوحد «جامي» النار في روحي
مع أنني لا أعرف نغمات العرب
إلا أنني شريك مع نغمات الحادي .



اجعل غم المسافر أكثر نشاطا
واجعل تضرعاته أكثر جنونا
اختر أيها الحادي الطريق الطويل
واجعل حرقة فراقني أشد حرارة



تعال أيها الرفيق لنبكي معاً
فأنا وأنت قتلى آثار الجمال
تعال لتحدث قليلاً عن أمنيات القلب
ونمسح أعيننا بقدم السيد^(١)



وضعوا الحكماء في منزلة أدنى
ووهبوا الجهلاء جلوة السكر
يا للحظ السعيد، ويا للأيام الطيبة

(١) يقصد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد فتحوا باب السلطان للفقير

الدنيا ذات الجهات الأربع في حُضني

وهواء «اللامكان» في رأسي

حين تركت هذا السقف العالي

سقطت - قوة - الطيران من جناحي كالغبار .

يوجد في هذا الوادي زمن خالد

حين تنبت في ترابه معان بلا صور

فالحكماء والمتكلمون يجلسون جنباً إلى جنب في هذا المكان

لأن أحداً هنا لا يقول: ﴿لن تراني﴾^(١).



المسلم ذلك الفقير الذي يرتدي قلنسوة معوجة^(٢)

انتبعت من صدره آهة محرقة

قلبه ينوح، لماذا ينوح؟ لا يدري

النظرة يا رسول الله النظرة !

حرارة القلب ونشاطه من حرقة حزنك و نار غمك

غنائي من تأثير أنفاسك

أنوح لأنني لم أر في بلاد الهند

عبداً محرماً لأسرارك .

(١) إشارة لقول الله تعالى لموسى في سورة الأعراف .

(٢) القلنسوة المعوجة «كج كلاهي» كناية عن الاعتزاز بالنفس .

ليل عبيد الهند ليل بلا نهار
والشمس ليس لها معبر على هذه الأرض
أدر طرف عيونك إلينا، فليس هناك في الشرق
مسلم أكثر منا عجزا .

ماذا أقول عن ذلك الفقير المحزون المتألم
المسلم ذو جوهر نفيس
فَلْيُعِنِ اللهُ صاحب الروح القوية هذا
لأنه سقط من السقف العالي .

كيف أحكي أحواله بلساني؟
فأنت تعرف ظاهري وباطني
هذا يكفي تقريراً عن مائتي عام
إن لدي قلب كعريش القصاب .

دورة الفلك الأزرق معوجة حتى الآن^(١)
فالقافلة حتى الآن بعيدة عن المقام
ماذا أقول عن عمله وقد خلا من كل نظام؟
أنت تعرف أن الأمة بغير إمام .

(١) كناية على عدم موافقة الزمان وسوء الحظ .

لم يبق الوهج ولم تبق الحرارة في دمه الصافي
 لم تنبت شقائق النعمان في حقله الخرب
 فغمد سيفه فارغ كحافضة نقوده
 وكتابه في طاق منزل خرب .

جعل قلبه أسيراً للون والرائحة^(١)
 أفرغه من الذوق والرغبة والشوق
 قلّ أن يعرف صفيّر مربّي العقبان^(٢)
 فقد عود أذنيه على طنين البعوض .

باب القلب مغلق في وجهه
 الذات لم تظهر في كف ترابه
 ضميره خال من صوت التكبير
 وحرّم ذكره خاو على عروشه .

جيبه ممزق ويعيش دون أن يفكر في الرفاء
 لا أعرف كيف عاش هكذا بلا أمل^(٣)
 ذلك المسلم الذي عاش بغير «الله هو»
 ليس من نصيبه سوى الموت الناقص .

(١) أي جعل المسلمون أنفسهم فريسة للذات الدنيوية .

(٢) العقاب عند إقبال رمز للمسلم الصادق .

(٣) بنيت فلسفة إقبال على الأمل لذا فهو يتعجب من أولئك الذين يعيشون دون أمل .

اعطه حقه فهو مسكين وأسير

فقره وغيرته ماتا منذ زمان بعيد^(١)

أغلقوا في وجهه باب الحانة

وهكذا يموت المسلمون في هذا البئد ظماء .

طهر من جديد حياة المسلم

اخلق دنيا الأمل في قلبه

الهواء سريع وفي ذيله مائتي خرقة

فانتبه إلى مصباحه الجريح^(٢) .

إن الغير في خلوة عروس حياة المسلم^(٣)

لأن «العالم الهندي» سائر في مقام الفناء

هو العاصي الذي يأتيه

نكير من الكنيسة، ومنكر من الدير قبل موته في القبر!^(٤)

عيناه خاليتان من النور والسرور

ليس في صدره قلب قلق

(١) الفقر الذي يعنيه إقبال هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ومضيها عاملة لا يطغيا وجدان ولا يذلها حرمان عزام، «ضرب كلم».

(٢) الذي ينسكب منه الزيت المشتعل فقد يمسك بتلابيبه وهو يشير إلى أن المشاكل تحيط بالمسلمين من كل جانب.

(٣) ويقصد أن المسلم صار غريبا عن الحياة الإسلامية.

(٤) ويقصد الإنجليز والهندوس.

فليكن الله في عون هذه الأمة

فسبب موتها أنها روح بلا حضور! ^(١)

ولد مسلما، وليس محرما لأسرار الموت!

يرتعش من خوف الموت حتى لحظة الموت!

لا أرى القلب في صدره الممزق

فَنَفْسُهُ مُتَقَطِّعٌ بين الوجود وغم الموت!

الاستبدادية من أولها إلى آخرها خداع واحتيال

لا يأمن لها الرومي ولا الحجازي

أتكلم في حضرتك عن حزن الأصدقاء

أملا - أن يكون - هذا وقت العطف على القلب ^(٢).

جسد المسلم متين

وجهه يملؤه الإحكام والصرامة

رأى الطبيب الحكيم من نظرته بأن

الذات في داخله نشوانة نشطة .

(١) أي أنها لا تطبق في حياتها مبادئ الإسلام أو فقدت الإيمان بالله .

(٢) الرومي: نسبة إلى من يعيش في بلاد الروم .

الحجازي: نسبة إلى من يعيش في بلاد الحجاز

وإقبال يقصد بالملوكية وهو اللفظ المستخدم الاستبدادية والاستعمار، انظر شرح ارمغان حجاز لسليم

المسلم خجل لأن رأسه عار من القلنسوة^(١)
 دينه مات وانتهى ، فالخانقاة هي فقرة
 أتعلم أي ميراث لنا في الدنيا؟
 إنه رداء الصوفي المنسوج من القماش الملكي^(٢) .

لا تسلني عن أحواله كيف هي :
 فأرضه ساء طبعها كسمائه
 صعب على الطائر الذي تربيته على التبن
 أن يبحث عن الجبوب في الصحراء .

لقد أوضحت له قضايا الحياة
 وبيّنت له حكمة الأمس والغد
 فاعط هذا الأعجمي النطق العربي
 لكي يستطيع أن يُظهر بجلاء أسرار الروح^(٣) .

مع أنه ليس لدى المسلم فوارس وفرسان
 إلا أن ضميره كضمير الملك^(٤)

(١) القلنسوة رمز العزة والكرامة والثقة بالنفس . والمعنى أنه صار مستعمرا وخاضعا لحكم الغير .

(٢) يعارض إقبال التصوف غير الإسلامي الذي أبعد المسلمين عن روح الجهاد ، فالمسلمون أبناء الملوك صاروا اليوم يقضون حياتهم متسولين .

(٣) يتحدث الشاعر عن نفسه وكان إقبال تواقا إلى تعلم العربية وإجادتها وهو هنا يريد أن يوهب النطق العربي حتى يظهر به أسرار الروح .

(٤) مع أن المسلمين الآن أذلة إلا أن بداخلهم صلاحية الحكم والقوة والجمال هنا معناه الحياة

ماذا لو يهبوه مقامه ثانية

فجلال جماله لا حد له .

متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة

كلامه كله ظن وتخمين

حتى الآن، إسلامه زناري^(١)

وحين يصير الحرم ديراً يكون هذا بسبب سدنته .

اللاديني غير العالم

فقالوا: إن الروح من آثار البدن

حرك هذه الروح الخاملة

بما أعطيت للصديق من فقر^(٢) .

الحرم ينال اللون والرائحة من الدين^(٣)

مرشدنا شيخ صغير أشعث الشعر مضطرب الفكر

إن حظوظنا سيئة حتى إنك لا تجد في حوزتنا

قلبا مضيئاً بنور الأمل .

الإسلامية، ويقصد أن المسلم لو عاش حياة إسلامية حقيقية فإنه يمكن أن يكون حاكماً لا محكوماً .

(١) الزناز: هو ما يلبسه البرهمن، يقصد القادة الدينيين والمبلغين للدين ويقول الشاعر: يا رسول الله

إن رعماتنا الدينين قد أدخلوا في الإسلام نتيجة لغفلتهم فيما خارجه عن الإسلام فصار من الصعب

التفريق بين الإسلام والكفر وهكذا صار الحرم شبيها بالدير وصار الشيخ شبيها بالبرهمن .

(٢) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) أي عقائد الإسلام الصحيحة .

اصطف الفقراء بالمسجد

مزقوا جيوب الملوك

حين خمدت تلك النار داخل الصدور

بدأ المسلمون يزحفون إلى خرابات الأولياء

المسلمون يتنازعون فيما بينهم

لا يرسمون على قلوبهم إلا رسم الشرك

لو يأخذ أحد لبنة من ذلك المسجد الذي

يهربون منه - سيكون عليها^(١).

وضعنا جبيننا لغير الله

وغنينا في حضوره كالمجوس

لا أبكي على غيرنا بل أبكي على أهلنا

إذ أننا لم نعد لاثقين بمقامك .

الكأس فارغة بين أيدي الشاربين^(٢)

فمجلسي خال من الساقبي

أحفظ «آهة» في داخل صدري

(١) يشير إلى قصة مسجد (شهد گنج) الذي بناه عبدالله بيك ١٧٢٠م، وهدمه السيخ الذين كانوا

يتمتعون بحماية الانجليز، وذلك في يوليو ١٩٣٥م ورغم ذلك لم يتحد المسلمون ضد أعدائهم.

(٢) يقصد بالكأس (المسلمين) ويقصد بالكأس الفارغة المسلمين الذين خلت قلوبهم من محبة رسول

الله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته.

لأن أصلها ينتمي إلى دخان ذلك المصباح^(١) .

الدنان في الخانقاهات خالية من الخمر^(٢)

والمكتب يسلك طريقاً سلك قبلاً^(٣)

خرجت حزينا من مجلس الشعراء

لأن الأغاني الميتة تنبعث من بين الناس .

أنا مسلم غريب عن كل دار

ليس لي شأن بأولئك الخالدين

ضعت . . أصبحت بلا حول . . بلا قوة

فقد اتجهت إلى غير الله .

حلقت في الأجواء بالجنح الذي وهبني إياه .

احترقت بحرقه نغماتي

طففت بالعالم لكنني لم أجد مسلماً

يرتحف منه الموت .

بكييت بكاء مرّاً أمام الله ذات ليلة

أتساءل لماذا المسلمون في خزي وعار

(١) متبعها فيض الرسول صلى الله عليه وسلم رسنته .

(٢) يقصد أن المتسوفة لا توجد لديهم روحانية أو معرفة .

(٣) المكتب كناية عن العلماء وهو يقول . إن ما يقوم به هؤلاء هو تحصيل حاصل .

ويجيب النداء: ألا تعرف أن هؤلاء القوم
لهم قلوب وليس لهم حبيب؟

لن أحكي عن عظمة مضت وقوة ذهبت
فأي فائدة من شرح الأحوال الماضية؟
كان لي مصباح في صدري
انطفأ في مائتي عام مضت^(١).

حامي الحرم^(٢) هو منشيء الدير^(٣)
إيمانه مات، عيونه موجهة للغير^(٤)
لكنك تستطيع أن تعرف من نظره
أنه يائس من جميع وسائل الخير^(٥).

أعطه ضميراً نارياً
من حرقة هذا الفقير المتشرد
واجعل قلبه مضيئاً خالداً
من الأمل الذي ينبت في حقل اليقين^(٦).

(١) يقول إن حكم الانجليز للهند حرم المسلمين من محبة سنة رسول الله ﷺ.

(٢) كناية عن غير المسلمين.

(٣) كناية عن تأييدهم للكفر.

(٤) أي أنه اعتمد على غير الله.

(٥) أي لأنه ينس من رحمة الله لأنه حرم من الإيمان فراح يسأل الناس حاجته.

(٦) يقصد الشاعر بالضمير الناري عشق الرسول، والفقير المتشرد هو المسلم الذي قطع علاقته الدنيا.

أحيانا أسقط ، وأحيانا أنهض ثملا
 أي دم سال دوغما سيف!!
 أتوجه إلى السقف العالي
 لأنني في صراع مع عصري هذا^(١).

الوحدة والتأوه والبكاء^(٢) ، خير لي
 ما أحسن السفر إلى يثرب دون قافلة!
 أين المكتب؟ وأين خمارة الشوق؟^(٣)
 قل أنت : هل هذا أحسن أم ذلك؟

حلقت طوفا في فضائه الجميل
 جناحي تبلبل بأمطار سحابه
 حتى نزل «السر» في ضميري
 فأنشدت ما كان في ضميره^(٤).

لم يقتفوا آثار ما قلت من أسرار
 لم يأكلوا التمر من سبط نخيلي
 إنني أطلب منك العدل يا أمير الأمم
 فأصدقائي عدوني شاعرا غزليا!

(١) أي صراع مع عقائد الباطل والأفكار غير الإسلامية مثل الاشتراكية والشيوعية وغيرها.

(٢) التأوه والبكاء أي من عشق الرسول ومحبة تعاليمه.

(٣) أي الفنون والعلوم، وحياة العشق واللهو أي طلب الدنيا أم طلب الدين أفضل؟

(٤) يقول : يا رسول الله لقد بلغت رسالتي ونُصحي للامة من خلال أشعاري.

ليس شعراً ما وضعت عليه القلب
لقد حلت عقدة من حبل المعنى
أعطيت الترياق لمعدن هؤلاء المفلسين
أملاً أن يصبح العشق إكسيراً .

قلت لي أن أتكلم عن حياة الخلود
قلت لي أن أبلغ الميت رسالة الحياة
لكن هؤلاء الجاهلين عن الحق يقولون :
«قل لنا : تاريخ وفاة هذا وذاك» .

صار وجهي بلون الزعفران من الألم المكبوت
الدم يقطر من عيني التي صارت كالأرجوان
احتبس الكلام في حلقي من شدة الألم
أنت تعرف أحوالي دوغماً حديث .

لساننا نحن العاشقين هو النظر
حديث المتألمين دموع وآهات
فتحت العين وضممت شفتي
لأن الكلام في طريقنا ذنب .

وهبت الذات^(١) للإنسان لا يعرف نفسه

(١) درس الذات .

وفتحت ينابيع الحياة وحقائقها على تراهه
فأعطني تلك الأنات المحرقة
لأحرق بها كل حزن، عدا حزن الدين^(١)

ليس في داخلنا إلا دخان النفس
ليس لنا معين إلا يدك
لن أقص حكاية الحزن مرة أخرى
لأنه ليس في القلوب سواك .

المسكين المتألم العازف على الناي^(٢)
في ذوبان من حرقه نغمته
إنك تعلم عما يبحث، وتعلم ماذا يريد
القلب المستغني عن كلتي الدارين^(٣) .

لا أبحث عن الطراوة واللون من نفس الهوى
فإنني أتمو- من فيض شمسك
نظري يسمو على القمر والثريا
ولا أقول كلامي على مزاج أحد .

(١) إقبال يلجأ هنا إلى رسول الله يخبره أنه شرح للأمة درس الذات وشرح لها سر تعاليم الدين، ثم يخاطبه قائلاً : امنحني نصيباً من محبتك حتى لا أفعل شيئاً غير شرح رسالتك .

(٢) أي من يبلغ الأمة تعاليم الدين وسنة النبي ﷺ .

(٣) حتى تتمكن من أداء واجب الدعوة وحتى لا يبقى في قلبي سوى حب الله وحب رسول الله .

في البحر، اللامتناهي - الذي ليس له شواطئ
لا يوجد للعاشقين إلا القلب
أمرتنا أن نسير إلى البطحاء^(١)
مع أنه ليس لنا هناك منزل سواك

ليس بمقدوري الصبر على الألم الذي أعطيتني
فلا تطردني عن بابك لأنني أشتاق للحضور أمامك
ولتأمرني بكل ما تريد عدا الصبر
فبيننا وبينه ما تتي فرسخ^(٢).

ضيعت قلبي لدى معشوقات الإفرنج
ذُبت من حرارة سكان الدير
وهكذا صرت غريباً عن نفسي
فحين نظرت إليها لم أعرفها.

ذُقت الخمر^(٣) من حانة الغرب
واشتريت الصداع بروحي

(١) ويقصد الشاعر أن يطيح أوامر الرسول بالمضي أولاً إلى مكة تنفيذاً لما جاء في القرآن الكريم: ﴿قل

إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

(٢) يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ويحتاج المؤمن إلى الكثير من الجهاد والمجاهدة حتى يصل إلى سلم الصبر، وإقبال هنا يرى أنه ما زال بعيداً عن هذه الدرجة.

(٣) يقصد الحضارة الغربية.

جلستُ مع وجهاء الإفرنج
فلم أريوما أسقم من هذا !

★★★★★

أنا فقير^(١) وأطلب منك كل ما أريد
فقلب الجبل مكلوم من ورق كلأبي
أعطاني ، درس الحكماء الصداع
لأنني ترعرعت بفيض نظرتي^(٢) .

★★★★★

لا أجلس مع الملاء^(٣) أو الصوفي^(٤)
فأنت تعرف أنني لست هذا ولا ذاك
أكتب لفظ «الله» على لوح قلبي
لكي أعرف نفسي وأعرف ربي جلياً^(٥) .

★★★★★

قلب الملا ليس أسيرا للغم^(٦)
عنده نظر ، لكن عيونه ليست ندية
فلذا هربت من مكتبه

(١) يقصد أن من يستغني عن غير الله لا يمد يده لسؤال أحد من الناس.

(٢) أي نشأت وترعرعت بما في قلبي من طمأنينة الإيمان بالله.

(٣) هو الشيخ يعمل بالتدريس في المدرسة الدينية.

(٤) هو الشخص الذي يجلس يسبح في الخانقاه.

(٥) يشير إقبال هنا إلى الحديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

(٦) ليس فيه محبة رسول الله.

فليس في رمل حجازه^(١) بثر زمزم^(٢) !!

كلامه في أعلى المنبر شائك

لأن في حضنه مائة كتاب

منعني الخجل أن أقول أمامك

بأنه في خفاء عن نفسه وظاهر لنا^(٣) !

من ذهب بقلب المحبين . . هو أم أنا ؟

من جاء برسالة الشوق . . هو أم أنا ؟

أنا والملا سهمان انطلقا من طريق الدين

من أصاب الهدف . . هو أم أنا !!^(٤) .

أنا غريب وسط مجلسي

فقل لي : لمن أحكي مشاكلي ؟

أخشى أن يفتضح ما بداخلي

فلذا لا أبوح بحزني حتى إلى قلبي .

(١) التعليم الديني .

(٢) لون المحبة .

(٣) أي أن وجود هذا الملا يضر بالامة الإسلامية لانه يكفر هذا ويلعن ذلك ويوجد الفرقة بين أفراد الامة .

(٤) يتساءل الشاعر : من أدى خدمة الإسلام أنا أم الملا ؟ .

لم أعط زمام قلبي لأحد
حللت العقدة في وجه العمل بنفسي
اعتمدت على غير الله مرة
فسقطت من مقامي مائتي مرة .

حرقه الجنون التي تلهب رأسي هي هي
والاضطراب الذي يكمن في أحضاني هو هو
هيجان الطوفان السابق لم يعط حتى الآن
الاستقرار لموج جوهرى .

وهذا التراب يحمل حتى الآن الشر
وهذا الصدر يحمل حتى الآن أهات السحر
فاسكب التجلي على عيني لكي يرى
أنني رغم شيخوختي لدي قوة تحمل النظر .

نظرتي في غنى عما أرى
والقلب ذائب في حرقه داخلي ، فمن دري؟!
أنا ، وهذا العصر - كلانا بلا إخلص وبلا حرارة
فأخبرنا ما سر هذا الذي جرى ؟ .

خلقوني في عصر سقيم
نفثوا في ترابي روحا مليئة بالاضطراب

الحياة كالحبل في رقبتي

حتى أنك تظن أنهم علقوني على أعلى الصليب !

لا تنال شقائق النعمان والورد مني اللون والرائحة^(١)

فألمي مات داخل صدري

والكلام لا يتسع للحزن المكتوم

ولو اتسع فماذا أقول؟ ولمن أقول؟

غريب في الشرق والغرب أنا

لأنني محروم من الأصدقاء حاملي الأبرار^(٢)

أحكي لقلبي عن حزني

وبهذه «الطريقة البريئة» أخدع هذه الغربية

حطمتُ طلسم هذا العلم الحديث

ونهبْتُ الحَبَّ وقطعتُ شباكاً كثيرة

الله يعلم كيف أنني - مثل إبراهيم - جلست

في ناره غير مبال !^(٣)

أنت الذي جلبت النظر إلى عيني^(٤)

(١) أي لا يستفيد منه افراد الأمة.

(٢) يقصد من هم من مدرسته الفكرية ومن يفهمون رسالته الشعرية للأمة.

(٣) إشارة إلى قصة إلقاء النمرود لسيدنا إبراهيم في النار ونجاته منها.

(٤) يقصد هنا نور البصيرة.

أنت الذي جئت بنور «لا إله إلا الله»^(١)
 واجهني بصبح «من رأني»^(٢)
 فأنت الذي جئت بنور القمر لليلي .

★★★★★

حين ضمنت نفسي إلى ذاتي
 رأيت بنورك مقام نفسي^(٣)
 خلقت في هذا الدير دنيا العشق
 والسكر من أغنيات الصباح .

★★★★★

الجنة السعيدة في هذا العالم^(٤)
 توجد الطراوة على غصنها من دموعي
 ليست «الها والهو» من نصيبها
 لأنها في انتظار إنسان!^(٥) .

★★★★★

هب للأمة شابا طاهرا
 واجعل سروره من سرور الخمر المعتق^(٦)

(١) أي نور التوحيد الخالص .

(٢) إشارة إلى «من رأني فقد رأى الله» .

(٣) هذا الكلام يحمل خلاصة فكر إقبال وخلاصة فلسفته وهي فلسفة الذات؛ يقصد تعبه لله طوال الليل حتى الصباح .

(٤) الجنة السعيدة: أي الدنيا الجذابة المملوءة بوسائل الراحة والدعة .

(٥) لا يليق بمسلمي اليوم أن يحدثوا فيها الانقلاب الواجب حتى يعود للمسلمين مجدهم الذي كان لهم في عهد السلف الصالح .

(٦) حرفيا: البيتي المصنوعة في البيت، ويقصد القيم الإسلامية الأصيلة .

اجعله قوي العضد مثل حيدر
واجعل قلبه في غنى عن الدارين .

تعال أيها الساقى ودر بكأس الخمر
اجعل الناي أكثر حرقة بالصهباء المحرقة
ضَع قلبا آخر في صدري
حتى أستطيع أن ألوى مخالبا «كاوس» و«كي»^(١) .

الدنيا من العشق والعشق من صدرك^(٢)
نشوته من خمرك المعتقة
لا أعرف عن جبريل سوى أنه
جوهرة من مرأتك^(٣) .

شوقي وحرارتي من فيض أنفاسك
موج الخمر في كرمي من زمزمك
وملك جمشيد خجل أمام فقري^(٤)
لأن القلب «الذي هو» في صدري عارف بأسرارك .

(١) (كاوس، كي: كيكاس): من ملوك الفرس الأبطال الذين جرت حكاياتهم في الشاهنامه، ويقصد الشاعر هنا أن المسلم الحق لا يمكن أن يهاب أي قوة مهما كانت .
(٢) يقصد ما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً» .
(٣) ويشير هنا إلى نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ .
(٤) في الأصل: «جم» وهو اختصار جمشيد .

لم أعلق قلبي مع أحد في بيت الأصنام هذا
لكنني سقطت من مقامي
واليوم يطلب مني السجود
الرب الذي حطمته بالأمس^(١).

★★★★★

ظهرت شقائق النعمان تلك من قبضة غباري
تلك التي يتقطر دمها من جوانبي
أقبله إرضاء لقلبي
فلا أملك شيئاً غير القلب العامر بحبك.

★★★★★

اضطربت لدى الأمة البيضاء^(٢)
وأبدعت الأغنيات التي تذيب القلب
الأدب يقول: اختصر الحديث:
اضطربت، أبدعت، استرحت.

★★★★★

بفطرتي الصادقة الجسورة
وبحرقة أهتي القلقة
امنح ذلك التراب^(٣) سحب الربيع
لكي يأخذ بذرتي إلى حضنه.

(١) يقصد أن الأمة إذا ما فقدت عزتها فلن يحترمها أحد.

(٢) هي الأمة الإسلامية.

(٣) ذلك الشخص.

وضعت القلب على الكف، وليس هناك من يأخذه
عندي متاع، وليس هناك من ينهبه^(١)
خذ مقاما بداخل صدري
فليس هناك مسلم أكثر وحدة مني .

أذنت أذاني في الحرم كالرومي
تعلمت منه أسرار روجي^(٢)
كان هو في فتنة عصره القديم
وأنا في فتنة عصري الحديث .

ابعث الروض من ترابي
أخرج طراوة عيوني بدم شقائق النعمان
لو لم أكن أهلا لسيف علي
فأعطني نظراً حاداً كسيفه .

المسلم يستريح على الساحل
خجل من البحر، يائس من النفس
من رأى جراحاته المخفية؟

(١) أي سمعت المسلمين حكاية ألم القلب لكن أحداً لم ينتبه وبلغتهم رسالة العشق لكن أحداً لا يهتم .
(٢) ألف الأستاذ خليفة عبدالحكيم كتاباً بعنوان: (رومي . عصر) طبع في كراتشي بين فيه أثر الرومي على إقبال . ويقول إقبال نفسه :

مرآ بنگر که در هندوستان دیگرنمی بینی * برهمن زاده رمز آشنائی روم و تبریز است

غير هذا الرجل الفقير المهموم^(١).

★★★★★

من أخبره أن ريح الحبيب آتية؟
من أعطاه أمل الربيع الجديد؟
ذهبت الحرقة القديمة من نفسه
من الذي أضرم الشرر في غابته؟

★★★★★

أعط لنهري من بحرك جوهرها
وأعط للجبال والصحراء متاعي
إن ما أعطيت من طوفان لم يفتح قلبي
فأعطني هديراً من طوفان آخر.

★★★★★

انظر في خلوة غنائي على الناي^(٢)
انظر ذو باني في خلوتك
أخذت حكمة الفقر من السالفين
انظر إلى استغنائي عن السلطان.

★★★★★

أجدت في غنائي كيف ما كنت
وكشفت النقاب عن وجه كل معنى

(١) يقصد أن الأمة تطلب الراحة والدعة وتركن إلى الكسل وهي خجلة أمام قوى العالم وياسة من مستقبلها.

(٢) المقصود هنا تبليغ دين الإسلام.

لا تسلني عن اضطرابي؛ إذ رافقت
الصديق حيناً وتركته حيناً آخر .

★★★★★

كنت رفيقا للألم، رفيقا لحرقة شقائق النعمان^(١)
وكشفت ضمير الحياة^(٢)
لا أعلم مع من قلت نكتة الشوق؟
فقد كنت وحيدا، وأنشدت وحيدا^(٣) .

★★★★★

أضأت النظر بنورك
لكي أرى باطني وأرى الشمس والقمر^(٤)
أرتجف حين أقول إني مسلم
فإني أعرف تبعات نظمي لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٥) .

★★★★★

يكفي ذوبان أغنية واحدة في شارعك
تكفيني هذه البداية وهذه النهاية
لقد استهوتني جرأة ذلك السكير الطاهر

(١) أي شريكا في آلام الأمة .

(٢) أي حقائق الحياة الإنسانية .

(٣) أي أن الأمة لم تهتم بما لقنه لها من درس محبة الرسول واتباع سنته .

(٤) أي أرى طبقة الكائنات .

(٥) أي ما يستتبع ذلك من التمسك بعقيدة التوحيد الخالص والبعد عن الشرك بكل أنواعه .

الذي قال لي : «لي المصطفى وكفى»^(١) .

﴿١٢﴾

تلك «الها والهو» التي تعلمتها من الشوق
تستطيع أن تفجر نهرا بين الصخور
هذه هي أمينتي الوحيدة أن ينال «جاويد»^(٢)
اللون والرائحة من عشقك

★★★★★

لو تنظر مرة إلى الإفريخ ذوي القلنسوات المائلة
تظن أنهم شمس وأقمار
فتاي بسيط دمه نائر
فاحفظه من أصحاب النظرات الكافرة .

★★★★★

أعط اليد لمن زلت أقدامهم وساعدهم
ومد يدك لمن لم يهبوا لغير الله
وأعط نصيبا من النار التي ألهمت
روحي لأبناء المسلمين .

﴿١٣﴾

ولتناول أيضا تلك الخمر من قدح الصديق
لكي تبقي في صدره حتى الأبد

(١) حب الرسول له مكانة عظيمة لدى إقبال حتى أثار بعض المعارضين هذه النقطة ولم يفهموا روح هذه المحبة القوية . وإقبال هنا يمثل الآية الكريمة «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله» .

(٢) أي جاويد لنجل العلامة إقبال .

انظر إلى سجوده يا «عبدالعزیز»^(١)
إنني أكنس بالأهداب التراب من باب الصديق .

أنت سلطان الحجاز وأنا فقير
لكني في مملكة المعاني قدير
الدنيا التي نبتت من بذرة «لا إله إلا الله»
تعال وانظرها في أحضان ضميري .

إني أتألم من أعلاي إلى سفلي
وألبي مزمن لا يقبل العلاج
إني سهم سقطت من جراب الملة
وحتى الآن يمكن شدّه في القوس^(٢) .

تعال ، معاً نمتزج ، ونرقص
نقتلع القلب من الدنيا ونرقص
في زقاق الحبيب ، في حرمه
نسكب الدموع الدامية مرة ، ونرقص^(٣) .

(١) هو المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود الذي وحد الجزيرة العربية وأسس المملكة العربية السعودية، ويحتفل هذه الأيام بمرور مائتي عام على تأسيسه للمملكة العربية السعودية (١٤١٩هـ). وكان إقبال يضع فيه أمل الأمة الإسلامية، وقال: إنه يشعر أن أسداً ظهر في الجزيرة يعيد للأمة مجدها.
(٢) أي أنه رغم ضعفه وكبر سني لكن يمكن الاستفادة بي في تبليغ الإسلام بين أفراد الأمة.
(٣) يقصد أن نعمل معاً من أجل الدعوة الإسلامية وليس المقصود هنا الرقص الحسي، بل العمل بنشاط من أجل الدعوة.

مقامك في صحراء مساؤها متجمل
 كالسحر . . . كالمرأة
 أبسط الخيمة كيف ما شئت
 ولكن استجداء الطناب من الآخرين حرام

★★★★★

نحن مسلمون أحرار من قيد المكان
 خارجون عن دائرة التسع السماوات
 علمونا تلك السجدة التي نعرف بها
 قيمة كل إله^(١).

★★★★★

اجعل بينك وبين صنم الإفرينج بونا شاسعاً
 فعهدده وميثاقه لا يساويان حبة شعير
 خذ النظرة من عين الفاروق^(٢)
 وضع القدم الجريء في العالم الجديد^(٣).

★★★★★

(١) أي لا نسجد لغير الله لأننا من الموحدين لا نشرك بالله أحداً.

(٢) هو عمر رضي الله عنه.

(٣) هذا الشعر كتبه إقبال للملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله وهو يقول للملك: لا تتعامل مع حكومات الإفريجة إلا بحذر، وإلا جذبوك إليهم.

إلى الأمة الإسلامية

لا تطلب مني كلاما ككلام العارفين

فلدى طبع كطبع العاشقين^(١)

إني أنثر الدموع في لون شقائق النعمان^(٢)

أنثرها كالندى قطرة قطرة

في هذا البستان !

(١) اختار إقبال العشق لأنه المحرك للأجزاء يدفعها إلى كلها الذي صدرت منه .

(٢) يذكر إقبال شقائق النعمان أو زهرة «اللله» في مواضع كثيرة، ويكنى بها عن معان عظيمة يحملها الشاعر في نفسه، ومن المعروف أن هذه الزهرة حمراء بلون الدم وبداخلها بقعة سوداء . والمقصود هنا أن الدموع بلون الدم والزهرة المتفتحة سوداء الباطن فتفتحها يكشف عن باطنها المحترق بحرارة العشق .

- ١ -

أوثق قلبك بالحق ، واسلك سبيل المصطفى

اقطع منازل سفرك كقمر جديد

واكبر في هذا الفضاء الأزرق

لو أردت مقامك في هذا العالم

فأوثق قلبك بالحق واسلك سبيل المصطفى

★★★★★

أنا كالموج ارتفعت من بحري

وانطويت على نفسي كالجوهر

وغرود غاضب مني

إذ أنني اجتهدت في تعميم الحرم .

★★★★★

تعال أيها الساقى وطوف بالذن

انثر الأكمام على الدارين

أظهر الحقيقة واضحة للسكير

إن الملا لا يعرف من سر الدين إلا القليل^(١) .

★★★★★

تعال أيها الساقى وارفع النقاب عن الوجه

فقد انسكب دم القلب من عيني

(١) وهو يشير إلى ما دعا إليه أحد شيوخ ديوبند قاتلا: بأنه الأمة تُبنى بالاطمان وليس على أساس العقيدة والدين .

وبلحن لا هو شرقي ولا هو غربي^(١)

اعزف أغنية من مقام «لا تخف»^(٢)

أخرج من الصدر تكبيرك

اخلط ترابك باكسيرك

أمسك ذاتك واستمسك وعش طيبا

ولا تدع بيد أحد تقديرك

المسلم العارف بذاته، إنسان كامل^(٣)

الذات في ترابه حاكمة محكومة

لو تعرف أن الذات متاعك

فحرام أن تعقد على سواها اهتمامك^(٤)

إن المسلمين الذين رأوا ذاتهم جلية^(٥)

استراحوا - كالجوهر - في كل بحر نزلوه

لو أنهم هربوا من الذات في هذا الدير

(١) وإقبال هنا يستفيد من التعبير القرآني الذي وصف به الله نوره: «شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية».

(٢) إشارة إلى الآية القرآنية: «لا تخف إنك أنت الأعلى» طه: ٦٨.

(٣) يشير إلى أن كمال حياة المسلم يكون باستحكام الذات.

(٤) ترتكز فلسفة إقبال على الذات فهي جوهر الكون وأساس نظامه وسر الحياة فيه.

(٥) يقصد باتباعهم سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قسماً بروحك : لا اشتروا موتهم^(١) .

★★★★★

أزحت الستار عن وجه التقدير
لا تكن يائساً - واسلك سبيل المصطفى
لو ساورك الشك فيما قلت
فابعد عن الدين ومت موة الكافر

★★★★★

فتحوا للأتراك الأبواب المغلقة
ووضعوا للمصريين أسساً محكمة
عليك أن تمسك بيدك طرف الذات
فلم يوهب أحد بدونها دنيا ولا دينا^(٢) .

★★★★★

أولئك القوم الذين يذوب ربيعهم
لا يترك سوى روائح سريعة الزوال
ينبت بترابهم شقائق النعمان
إلا أن ألوان قبائه باهتة^(٣) .

★★★★★

(١) لو أنهم ابتعدوا عن دينهم صاروا عبيداً للآخرين لأن العبودية تعني الموت .

(٢) لم يال إقبال جهداً حتى آخر حياته أن يحذر الأمم الإسلامية من الحضارة الأوربية، ويدلهم على أن الطريق السليم هو التمسك والاستمساك بالذات . وهو هنا يخاطب الهندي المسلم .

(٣) يشير إلى الحضارة الزائفة للغربيين، ويقول: إن الأمة التي تظل تجتر ذكريات ماضيها سيعيش شبابها حياة يائسة، ولن يجتهدوا في سبيل رفعتها .

أعطى الله تلك الأمة القيادة

تلك الأمة التي كتبت تقديرها بيدها^(١)

وليس الله مع تلك الأمة

التي يزرع فلاحوها للأخريين .

★★★★★

تعلم الحكمة القرآنية من الرازي^(٢)

وأشعل مصباحاً من مصباحه

لكن خذ مني الحكمة

«لا تستطيع الحياة دون سكر وحرقة» .

﴿٢﴾

الذات

الإنسان الذي طبع «لا إله إلا الله» على الذات

هو الذي يستطيع أن ينبت النظرة من التراب الميت

فلا ينبغي أن يفلت من يدك ذيل هذا الرجل

فقد رأيت الشمس والقمر في حوزته .

★★★★★

تعلم أيها الغر ، واحصل على القلب العالم

وابحث عن الطريق كما فعل السلف

فكما يصرح المؤمن بما هو مختف

(١) يقصد الأمة الإسلامية .

(٢) لا حرج من أن تستفيد من تفسير الإمام الرازي وأضف من مؤلفاته على معلوماتك ، ولكن عليك أن تعرف هذه الحقيقة وهي أن العلوم العقلية لا يمكن أن تحقق فلاحاً في الحياة .

فافهم أنت أيضا وأدرك من «لا موجود إلا الله» .

ليس بقلبك أثر جراحات مختفية

ليس فيه قوة وحرارة المسلم

لقد رويت بستان ذاتك

من ذلك البحر الخالي من الطوفان .

﴿٣﴾

أنا الحق

«أنا الحق»^(١) ليس إلا مقام الكبرياء

هل يليق له الصليب أو لا يليق؟

لو يتنادي به الفرد فيجب أن يعاقب

لو تنادي به الأمة ، فلا ضير ، فليس بالشيء الذي يعاب .

إن ما يناسب تلك الأمة هو «أنا الحق»

فمن دماؤها ندى كل غصن

الجمال مختف في جلالها^(٢)

إذ أن لها تسعة أفلاك كالمرأة .

(١) أنا الحق، هي العبارة التي نطق بها الحلاج، ونال بها جزاءه وهو القتل، وإقبال يحذر المسلم من

التكبر ومن قال هذه الكلمة نال نفس الجزاء الذي ناله الحلاج ولكن إذا الأمة كلها أعلنت أنها تتبع

الله ورسوله وأنها على حق فلا حرج .

(٢) الجمال عند إقبال لا يكون بغير جلال .

مقام الأمة مقام عال وسط الأمم
 لأن هذه الأمة إمام للدارين
 إنها لا تني عن مواصلة أمور خلقها
 فالنوم والتعب عليها حرام^(١).

★★★★★

وجودها شعلة من الحرقه الداخلية
 الألم كله بالنسبة لها حقير كالشوك
 هممتها هي شرح «أنا الحق»
 حين تقول: «كن» - فعلى الأثر - يكون^(٢).

★★★★★

تطير فريدة في فضاء الفلك
 نظرها موصل إلى العرش
 القمر والنجوم أسرى في شباكها
 وفي يدها تقدير الزمان

★★★★★

إنها في البساتين عندليب حسن التغريد
 وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقراض
 الأمير فيها فقير رغم كونه سلطانا

(١) هنا تلميح إلى الآية القرآنية: ﴿لا تأخذ سنة ولا نوم﴾ البقرة: ٢٠٥، و﴿وما مسنا من لغوب﴾ ق: ٣٨.

(٢) تلميح إلى قوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ النحل: ٤٠. ويقول إقبال: إن الأمة التي تشرح مهمتها مفهوم أنا الحق عليها أن تثبت هذا بالعمل لا بالفناء ولا بتلك الدعاوى التي يدعيها الصوفية الذين أضروا بالإسلام والأمة الإسلامية.

والفقير فيها غني رغم كونه «دوريشا».

أسكب الخمر المعتوقة من الجرة في الكأس الجديد^(١)

أسكب ضياءك على الطريق والقصر

لو كنت تريد ثماراً من غصن المنصور^(٢)

فاسكب في القلب «لا غالب إلا الله».



الصوفي والملا

عرفت أن الملا ذو وجه عبوس

ولا تستطيع نظره أن تفرق بين اللب واللحاء

فلو طردني من الكعبة بهذا الإسلام

الذي أعتنق، فهذا حق له^(٣).

نصب الإفرنجي فخاً على الكعبة والدير^(٤)

ذهب صدق «لا غير» من الخانقاهات

حكيت أمام الملا - مرة أخرى - هذه الحكاية

(١) يقصد بالكأس الجديد الشباب والخمر المعتوقة روح الإسلام ومحبة سنة الرسول والجرة تعني الإسلام.

(٢) يشير إلى المنصور الحلاج صاحب العبارة المشهورة «أنا الحق» ومنصور في لغة صوفية الفرس والهند هو حسين بن منصور الحلاج، وإقبال هنا يختلف مع الصوفية فأنا الحق هنا تعني الرفعة في الدنيا على غير المسلمين. والسبيل هو عدم الشرك بالله وعدم عبادة غير الله من بين جميع المخلوقات.

(٣) لأن الملا غير وبدل في الإسلام بينما إسلامي هو الإسلام الحقيقي فله العذر في هذا.

(٤) يقصد بالكعبة المسلمين والدير الهنادكة.

فدعا «يارب لتكن العاقبة خيرا»^(١).

أنت أسير في قيد الملا والصوفي
أنت لا تأخذ الحياة عن حكمة القرآن
ليس لك بآيات القرآن شأن
إلا أن تموت بسهولة بسورة يس^(٢).

علق أمامك من القرآن مرآة
لقد أصبحت متقلبا وتغيرت كثيرا، فاهرب مم أنت فيه من شرك
ضع أعمالك في الميزان
وحرك قيامات السابقين^(٣).

سلامي على الصوفي والملا
فقد بلغوني رسالة الله
لكن تأويلاتهم أوقعت في الحيرة
رب العزة وجبريل والمصطفى^(٤).

(١) أي أنه طلب المشورة من الصوفية فنصحوه بعدم الجهاد والاكتفاء بالدعاء.

(٢) جرت العادة في شبه القارة الهندية والباكستانية أن يظل الناس يرتلون سورة «يس» بجوار الشخص المريض طوال فترة احتضاره خاصة إن كانت علته شديدة ذلك لأنهم يرون أن هذا يسهل خروج الروح.

(٣) يقصد افعل كما فعل خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ومحمود الغزنوي.

(٤) وإقبال هنا يتندر على تأويلات الصوفية وشيوخ المدارس التي تتعلق مع الإسلام وجاءت تأويلاتهم محيرة للجميع، وهو يود أن يقول إنها أغضبت الله ورسوله.

تكلم واعظ متفتن في تكفير الناس عن جهنم
 لكن الكافر قال حديثاً أطيب من حديثه
 «ذلك الغلام لا يعرف أحواله
 إذا قال إن جهنم مقام آخر»^(١).

★★★★★

المريد العارف بالنفس المجرب
 قال للشيخ كلاماً شائكاً :
 «تفويض الروح للموت الناقص
 هو الحصول على الرزق من تراب القبر».

★★★★★

قال المتمشيخ ذو الثياب المهلهلة
 اجعل هذه النكتة حرزا لروحك :
 «عليك أن تتعرف على نمادة العصر
 فمن فيضهم يستطيع الإنسان أن يقوم بأعمال إبراهيم»^(٢).

★★★★★

(١) يريد الشاعر أن يقول: إن الواعظ يرى بأن الكافر مآله جهنم، بينما الواعظ نفسه عبد و غلام للإنجليز وهو لا يدري أن المسلم إذا رضي بالعبودية فهو أسوأ من الكافر.

(٢) اعتقد أنه يلحق إلى معجزة تنسب إلى إبراهيم عليه السلام، وتروى بصور مختلفة و خلاصتها أن إبراهيم أبى أن يعترف بالسوهمية «نمرود كما يفعل أهل زمانه فرداه النمرود بدون طعام فمر على كتيب رمال وعباً منه كيساً يدخل به على أهله لكن السله أحال الرمال في الكيس إلى دقيق (الشعالي: قصص الأنبياء ص ٩٥-٩٦).

﴿٥﴾

الرومي

اسكب الخمر المعتقة مرة أخرى في حلقك^(١)
فمُلك برويز لا يتساوي مع كأس هذا الخمر
عليك أن تعلق أشعار جلال الدين الرومي
على حائط حرم القلب^(٢).

★★★★★

عليك أن تأخذ من كأسه تلك الخمر القانية
فقد تحول الحجر من تأثيرها ألماسا^(٣)
هذه الخمر تهب الغزال قلب الأسد الجسور
وتغسل البقع من ظهر النمر.

★★★★★

أخذت نصيبا من قوتها وحرارتها
ليلي أصبح كالنهار من كوكبها
انظر الغزال في صحراء الحرم
تنساب من شفيتها ضحكة الأسد^(٤).

★★★★★

(١) الخمر المعتقة أي تعاليم الإسلام الأصيلة.

(٢) ويعترف إقبال أنه بعد بأن طالع مثنوي جلال الدين الرومي عرف كيف يحب الرسول ويتبع سنته.

(٣) أي أنها تحول الكافر إلى مؤمنا.

(٤) حين يتحدث عن الرومي فهو يتحدث عن الخمر التي طالما تحدث عنها الرومي. والمقصود بها عاطفة

محبة الرسول وسنته، ويذكر أن تصور الرومي لمحبة الرسول وسنته يختلف عما جاء به الحلاج.

هي بأكملها ألم الحب وحرقته
وصالها يعرف معنى الفراق
جمال العشق يأخذ من نايه^(١)
نصيبا من جلال الكبرياء .

★★★★★

حل عقدة من عمل هذا التافه
وجعل من غبار الطريق هذا ترياقا^(٢)
إن ناي ذلك العازف الطاهر
عرفني العشق والسكر .

★★★★★

فتحوا باب القلب في وجهي
خلقوا الدنيا من ترابي
نلت من فيضه اعتبارا
جعل القمر والنجوم رفيقة لي .

★★★★★

خياله يصل إلى القمر والنجوم
ونظره صوب نجم الثريا
ضع قلبك المضطرب أمامه
فإن أنفاسه قد اكتسبت من الزئبق اضطرابه^(٣) .

(١) يشير إلى الناي الذي استهل به الرومي المتنوي .

(٢) أي جعلني مسلما صادقا وعرفني كيف أحب الرسول وأتبع سنته .

(٣) يقصد اختيار صحبة الرومي .

خذ من الرومي أسرار الفقر
 لأن الغني يحسد ذلك الفقر^(١)
 الحذر من ذلك الفقر وتلك الدروشة
 التي تصل بها إلى مقام الذل والخضوع .

★★★★★

حين صارت الذات مهجورة الألوهية^(٢)
 علمت الفقر آداب التسول
 استعرت من عين الرومي السكرانة
 سرورا من مقام الكبرياء

★★★★★

انسكبت الخمر المشعشة من كرمي
 فما أسعد ذلك الرجل الذي تعلق بذيلي !
 لدي قدر من تلك النار التي أثارها
 السنائي - في البداية - في قلب الرومي^(٣) .

★★★★★

(١) الفقر في لغة إقبال ليس الانتقار إلى المال أو قلته فهذا النوع يحذر منه إقبال والفقر الذي يعنيه هو

خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع .

(٢) حين حُرمت الذات من الجلال والعظمة .

(٣) السنائي هو مجد الدين السنائي طليعة شعراء الصوفية الكبار وقد ذكره .

إقبال أيضا مع الرومي :

قال للرومي في الخلد سنائي • لا يزال الشرق بالتقليد يؤسر

قال منصور ولكن قد سمعنا • إن سر الذات أفشاء القلندر



رسالة الفاروق^(١) رضي الله عنه

هبي يا رياح الصحراء من جزيرة العرب

وأثري موج نيل المصريين

وبلغي فاروق رسالة الفاروق «رضي الله عنه»

بأن يمزج في نفسه الفقر مع الملك .

★★★★★

الخلافة هي أن يكون الفقر مع التاج والملك

ما أحسن هذه الثروة التي لا تنتهي

يا صاحب الحظ الفتى ، لا يفلت من يدك هذا الفقر

فبدونه تموت المملكة بسرعة .

★★★★★

الشاب الذي يعرف نفسه تماما

هو الذي يستطيع أن يعيد خلق العالم القديم

في طوافه توجد آلاف المجالس

إلا أنه يفضل الخلوة مع نفسه .

★★★★★

افتح جميع الأبواب أمام العقل والقلب

خذ قدحا من شيخ كل خمارة

عليك أن تجتهد بعواطفك الجياشة التي تربي القلب

(١) كتب الشاعر هذه الأبيات حين اعتلى الملك فاروق ملك مصر عرش مصر . والفاروق هنا هو عمر

ابن الخطاب الذي كان يلقب بالفاروق .

لكي يبق ذيلك طاهرا، وكمك ندية .

★★★★★

سعيدة تلك الأمة التي عرفت نفسها

لا تستريح من ألم البحث

بريقها تحت هذه السماء الزرقاء

كالسيف المسلول من الغمد^(١) .

★★★★★

ما أعذب غناء الملاح التركي

ذو الوجه الأحمر والعيون الزرقاء

لو تعقد أمري في البحر

فلا أطلب الحل إلا بالطوفان^(٢) .

★★★★★

نأمل في ترابنا السيطرة على العالم

كتبوا على جبيننا الأمانة^(٣)

انظر إلى ذلك العالم بداخلك

- ذلك العالم - الذي زرعوا بذرتة في قلب الفاروق .

★★★★★

(١) هذا البيت من شعر الأمير خسرو .

(٢) لأن هذا سيبرز كفاءته وقدراته .

(٣) استخدم إقبال صيغة الجمع إجلالا لذات الله سبحانه وتعالى، والأمانة هنا تعني الاستخلاف في

قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .

إن من يعرف أسرار اليقين
يجعل النظرتين نظرة واحدة
وقد مزجوا بنور قنديلين
فلا تفكر في التفريق بين الملك والدين^(١) .

★★★★★

المسلم الذي امتحن نفسه
جعل غبار طريقه سماء
لو لديك شرارة من شوق . فاحتفظ بها^(٢)
فيمكن أن تخلق بها الشمس !! .



شعراء العرب

أخبر عني شعراء العرب
إني لم أعط للشفاة الحمراء إلا ثمنا قليلا^(٣)
لقد حولت ليالي مائة وثلاثين سنة إلى سحر
بالنور الذي أخذته من القرآن .

★★★★★

أوجدت في الأرواح الآهات والتأوهات
لا أعتبر القصور والمقامات سوى حفنة من تراب

(١) فالإسلام دين التوحيد، وهو لا يفرق بين الدين والدولة. فهو دستور كامل للحياة.

(٢) الشوق أو شرارة الشوق أي عاطفة محبة الرسول ﷺ .

(٣) أي لم الجأ إلى قول الغزل، بل عمدت إلى شرح تعليمات القرآن الكريم.

يوماً ما سيكون النهر الصغير ندا للبحر الهائج^(١)
بما أعطيته من هياج .

عليك أن تترك رسم الصور الجميلة^(٢)
ولا تطلب عوناً سوى ضميرك
لقد جئت بالقوة إلى روحنا
فاعط المسلم حرارة ولهيباً مما تملك

يوجد في ترابنا قلب . ويوجد في هذا القلب غم
الغصن القديم حتى الآن غصن ندي
ففجر تلك العين بسحر الفن
ففي داخل كل مسلم يوجد بثر زمزم .

المسلم عبد متصف بصفات المولى «عز وجل»^(٣)
قلبه سر من أسرار الذات
لا ترى جماله إلا بنور الحق
إذ أن أصله في ضمير الكائنات .

(١) يقصد بالنهر الصغير الأمة الإسلامية الضعيفة المستضعفة .

(٢) أي ما كان الشعراء يقومون بوصفه في أشعارهم .

(٣) إشارة إلى «تخلق العبد بأخلاق الله» .

امنح تراب تلك الأمة الحمية والحرارة
حتى تولد الشمس من ليلاها
أنشد تلك الأغنية - فمن فيضها -
تهبها ذوق الثورة مرة ثانية .

الإسلام هو شراء غم القلب
والارتعاش لحمى الأصدقاء - كالزئبق^(١)
وجود الأمة يكمن في إخلاء الذات
ثم الهتاف بعد ذلك «أنا الأمة» .

من رأى أسرار الروح جلية
لا يرى الدنيا إلا بعينيه
اخلق لنا في صدرك
يمكنك به أن تجعل الخريف ربيعاً^(٢) .

احفظ ما في طينك ومائك
فالسرور والحرقه والسكر هي محصولك
رأيت كأس هذا وذاك فارغا

(١) أي عشق ومحبة سنة رسول الله ﷺ ثم الاتحاد مع أفراد الأمة والتعاطف معهم والتفاني من أجلها حتى يصير كل فرد فيها هو الأمة .

(٢) والمقصود بالخريف حالة الأمة السيئة والربيع هو ما تكون عليه الأمة من عزة ورفعة .

فالخمر الباقية توجد في قارورة قلبك^(١) .

★★★★★

أضيء ليلة هذه الجبال ، والصحراء المحرقة للقلب
التي لا يوجد فيها طير ولا ماء
هذه الليلة لا تُضاء بقنديل الرهبان^(٢)
فأنت تعرف أنها تحتاج إلى الشمس^(٣) !! .

★★★★★

اقرأ حظ وجهك جيدا
واحصل على شريان غدك
ضع القدم مثلي في صحراء الحرم
لترى داخلك وقدرك وقيمتك

﴿ ٨ ﴾

يا ابن الصحراء !

حين هبط النور على الصحراء في الأسحار
غرد طائر على غصن النخيل
اقلع خيامك وارحل يا ابن الصحراء
فلا حياة دون تذوق الرحيل

★★★★★

(١) أي أن غير المسلمين ليس لديهم شيء من عشق ومحبة الرسول ولهذا غرقوا في ظلمة المادية ويمكن للمسلمين أن يجدوا مكانتهم في الدنيا بمحبتهم للرسول ولسنته .

(٢) المقصود شعر الأمم الأخرى .

(٣) المقصود بالشمس تعاليم الإسلام .

جعل الله العرب أدلاء للقوافل

وامتحنهم بفقرتهم

لو أن فقر الفقراء ذو حمية

فمن الممكن أن يقلب الدنيا رأساً على عقب!

★★★★★

في هذه الليالي يكمن عويل صبح الغد

لأن هذه الليالي منورة بتجليات سيناء^(١)

الجسد والروح كلاهما مجكم بهواء البادية والصحراء

إن ظهور الأم يكون من بين الجبال والصحراء^(٢).

﴿٩﴾

أُتري ! ربما يكون في هذا الغبار فارس^(٣)

خذ التسليم والرضا دستورا مرة أخرى^(٤)

والتزم طريق الصدق والإخلاص والوفاء

لا تقل إن شعري هكذا وليس هكذا

خذعني - كثيراً - الجنون الذكي^(٥).

★★★★★

(١) أي الأنوار الإلهية.

(٢) أي أن مطالعة التاريخ تدل على أن الأمم المنتصرة خرجت من بين الجبال والصحراوات.

(٣) المقصود بالفارس هنا الإنسان المؤمن.

(٤) أي عدُّ للشريعة الإسلامية.

(٥) الجنون من المصطلحات التي يستخدمها إقبال وهو يعني بالجنون الحماس والإقدام وأداء الواجب

تُصبح البساتين من الجنون خراباً^(١)
 لم تعد تألف هذا الهياج المضطرم
 ومن الهواء الذي نفثته في المدينة
 يبقى الجنون، لكنه يصبح عاقلاً^(٢).

★★★★★

أنا أول شقائق النعمان لبداية ربيعي
 أحترق من جراحي تدريجياً
 لا تنظر إلى وحدتي بعين الاحتقار
 ففي خضني مائة قافلة من الزهور^(٣).

★★★★★

إني مضطرب كغبار الطريق
 الذي يكون دائماً فوق أكتاف الهواء
 يا للحظ السعيد، ويا للأيام الحلوة
 لو يخرج مني فارس^(٤).

★★★★★

يا لحظ القوم السعداء ذوي الأيام المضطربة
 يولد من ضميرهم الإنسان المحنك

(١) الحديقة والروضة هي رمز لعالم الروح.

(٢) أي أن المسلم يستطيع أن يمضي على طريق الحياة الإسلامية باتباعه سنة رسول الله ﷺ ويأتي هذا بحبه لرسوله ﷺ، وعشقه له.

(٣) إذا كنت وحيداً فبعد قليل سينضم إليّ الكثيرون ممن يستمعون إلى نصحي وإرشادي.

(٤) رغم حالة الاضطراب التي تمر بها الأمة المسلمة لكن هناك أمل في مولد إنسان مؤمن يأخذ بيدها ويُعلّي من شأنها.

ظهوره ووجوده سر من أسرار الغيب
لأن كل غبار لا يظهر الفارس^(١) .

دُبَّتْ كالموج في بحري
دُبَّتْ حتى بلغت الطوفان
لم أر لونا آخر أطيب من هذا
فرسمت رسمه بدمي^(٢) ! .

نظرتُه تملأ الجرار الخالية
تجعل الخمر يدور في كرم الهوى
الطوفان الذي لا يعطي إلا الضياع
أنهاره قد تصير ندأ للبحر^(٣) .

حين يمسك بزمام القافلة
يعطي ذوق التجلي لكل مُخْتَفٍ
ويجعل السماوات تحت قدميه^(٤) .

(١) ظهور الفارس يحتاج إلى غبار خاص .

(٢) يقصد تربية الذات، ومعرفة الذات هي الغاية من تربية الذات .

(٣) حين يظهر الإنسان المؤمن مسيوجد في المسلمين حب الرسول واتباع سنته، وعندئذ ستخلق في المسلمين عاطفة الجهاد التي تمكنهم من مواجهة أقوى الأمم .

(٤) وسيجعل هذا الرجل المؤمن بالقوة الروحية الأرض والسماوات تحت تصرفه .

بارك تلك الروح الطاهرة
التي أنجبت أمير القافلة
من حضن هذه الأم الميمونة
إنني أباهي بها حور الجنان

يقول القلب في الصدر بشجاعة:

«متاع الخلق مسلوب منهوب»

سمعت نداءً من السماء^(١) لحظة الموت:

«في سقوط الأزهار طلوع الثمار»^(٢).

❖ ١٠ ❖

الخلافة والملوكية

أحرق العرب أنفسهم بنور المصطفى^(٣)

فأضاء مصباح الشرق المنظفيء

لكن تلك الخلافة ضلّت الطريق

فقد علمت المسلمين في البداية طبع الملوكية^(٤).

الخلافة شاهدة على مقامنا

وغيرها حزام علينا

(١) نداء السماء يعني رسالة الأمل.

(٢) المصرع الأخير للشاعر لطف الله آذر، وهو من شعراء زمان عالمكير الإمبراطور المغولي، والمقصود بهذا المصرع أن شاعراً سيأتي من بعدي يستمر في نصيح الأمة وإشاردها.

(٣) أي أن العرب عملوا طبقاً لتعاليم رسول الله ﷺ.

(٤) أي ظهور الدولة الأموية والعباسية.

فغيرها كله مكر وخداع واحتيال
أما الخلافة فهي حفظ الناموس الإلهي .

هذه الخلافة توقع الكليم^(١) بالملوكية .
وهو فقير بلا قلنسوة ولا غطاء
من الأعيب القدر أحيانا
أن تنال من النسيم ما يأتي به الريح الصرصر .

الإنسان حتى الآن عبد في الدنيا
نظامه غير ناضج ، أعماله ناقصة
أنا ملاذ الغلام الفقير في هذه الدنيا
فالاستبدادية في دينه حرام .

المحبة بنظرته خالدة باقية
سلوكه معيار العشق والسكر
مع أن مقامه هو مقام العبد
لكنه خالق^(٢) لعالم الشوق .

(١) أي الإنسان المؤمن وهنا إشارة إلى موسى عليه السلام .

(٢) استخدم إقبال هذا اللفظ استخداما مجازيا لأن المعنى الحقيقي هو أن الله وحده هو خالق كل شيء .



إلى الأتراك العثمانيين

صار العثماني أميراً في بلده
 قلبه مطلع ، عينه بصيرة
 لا تظن أنه وجد الخلاص من قيد الإفرنج
 فهو حتى الآن أسير في طلسمهم^(١) .

سعداء من حطموا سحره
 سعداء من لم يربطوا القلب بميثاق الإفرنج
 لا تكن يائسا واعرف ذاتك
 فالرجال كانوا قبلاً وما زالوا وسيبقون كذلك .

أعطوا الأتراك أملاً جديداً ورغبة
 ووضعوا أساساً آخر لعملهم
 إنهم كشفوا النقاب عن وجه القدر
 لكن أين المسلم الذي يرى !!^(٢) .

(١) يشير إلى أتاتورك حين جرّ تركيا إلى تقليد الإفرنج، وقد أعجب إقبال به في البداية ثم نقده بعد

ذلك، وهو يتقد اتباع الأتراك للمنهج العلماني غير الإسلامي.

(٢) والمعنى الأصلي هنا هو أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

﴿١٢﴾

إلى بنات الأمة

اتركن أيتها الصغيرات هذا الافتتان
فهذا الدلال لا يناسب المسلمات
لا تعلقن قلوبكن بالجمال المصطنع
وتعلمن جذب القلوب بالنظرة^(١).

★★★★★

نظرتكن سيف أعطاكه الله
وبجراح هذا السيف أعطانا الله روحنا
لقد حمل القلب الكامل العيار تلك الروح الطاهرة
التي روت سيفها ماء الحياة^(٢).

★★★★★

ضمير العصر الحاضر بلا نقاب
ملامحه في إظهار اللون والنضارة
تعلمن من نور الحق إضاءة الدنيا
فهو مع كل تجلياته في حجاب^(٣).

★★★★★

العالم متين محكم بسبب الأمهات
ففي وجودهن قيادة لهذا العالم

(١) أي الجمال الروحي الذي هو أفضل كثيرا من الجمال الحسي.

(٢) يدعو إقبال الفتاة المسلمة إلى التزين بالحياء.

(٣) لإقبال في ديوانه ضرب كليم قسم خاص بالمرأة ومجد لهذه المعاني ما يشابهها ص ٩٧ ترجمة عزام.

لو لم يعرف القوم هذه الحكمة
فلن يكون نظام أعمالهم محكماً .

أعطتني نظرة الأم الطاهرة - في داخلي -
هذا الجنون الذي يربي العقل
لا يمكن أن تُحصَل شيئاً من مكتب العين والقلب
فليس المكتب سوى سحر وخرافة .

سعيدة تلك الأمة التي هي من وارداته
ترى كائناته القيّامات
ماذا أتى قبلاً؟ ماذا وقع له سابقاً؟
يمكن أن نرى ذلك من جبين أمهاتها؟^(١)

لو تقبلن النصح من الدرّوش
تبقىن خالداًت رغم مآت آلاف الأمم
كن كالبتول واختفين عن هذا العصر
وخذن الشبير في حضنكن^(٢) .

(١) فتقدم الامم منحصر على سيرة نساء الأمة .

(٢) البتول: فاطمة رضي الله عنها والشبير لقب للحسين، أي قمن بتربية اولادكن على سيرة الشبير
وامضين على نهج فاطمة رضي الله عنها .

أظهرن الأسحار من ليالينا
وأقرثن بالقرآن أهل النظر
إنكن تعرفن أن حرارة تلاوتكن
قد غيرت تقدير عمر^(١) .

﴿١٣﴾

إلى العصر الحاضر

ما هذا العصر الذي يستغيث منه الدين
آلاف القيود كامنة في حرите
سلب من وجه الإنسان اللون والطلاوة
رسم رسماً خاطئاً فابتعد عن كمال فنه^(٢) .

★★★★★

نظره يرسم الدلال
وكمال فنه تقليد آزر^(٣)
الحذر من حلقة تجاره
فهذه التجارة كلها قمار .

★★★★★

هذا العصر معلم سيء للشباب .
هذا العصر نهار لليلة إبليس
أتلوى بذيله كاللهب
فهذا العصر بلا نور وبلا حرارة .

(١) إشارة إلى واقعة إسلام عمر .

(٢) الفن في التصوير، إشارة إلى بهزاد الرسام الفارسي الشهير .

(٣) آزر هو أبو سيدنا إبراهيم، وكان يقوم بنحت الأصنام .

جمع المسلم الفقر مع السلطة
 جمع ضميره بين البقاء والفناء
 ولكن الأمان ! الأمان من العصر الحاضر
 فقد جمع السلطة والشيطنة معا .

★★★★★

ماذا أقول عن رقصك - هل يجب أن يكون هكذا، أو لا يكون؟
 هذا ليس من نشاط داخلك - إنه من أثر الحشيش
 إنك تدق قدميك مقلدا رقص الإفرنج^(١)
 ما في عروقتك ليس ثورة الدم .

﴿١٤﴾

البرهمن

فتحت على نفسك باب مئات من الفتن
 وخطوت خطواتين ، ثم زلّت قدمك
 زين البرهمن طاقه بالأصنام
 وأنت أيضا وضعت في الطاق قرآنك^(٢)

★★★★★

لا أقول عن البرهمن^(٣) إنه عاجز عن عمل شيء
 فهو يستطيع أن يكسر الحجر الكبير إلى قطع صغيرة
 لكن نحت الآلهة من الحجر

(١) وإقبال يعني بالرقص الوجد الذي يهب الروح للمؤمن ويوجد بداخله روح الجهاد

(٢) أي قطعت علاقتك بالقرآن الكريم وتعاليمه .

(٣) البرهمن أي مثل الأمة الهندوكية .

يحتاج إلى قوة اليد والعضد^(١).

البرهمن يحفظ عمله

لا يقول لأحد سره

يقول لي : اترك التسبيح

وهو يحمل زناره على كتفه^(٢).

قال البرهمن : انهض من باب الغير

فإنه لا يأتي من المخلصين لبلدهم إلا الخير

لا يتسع مسجد واحد لشيخين

ومن سحر الأصنام يتسع الدير لكثيرين^(٣).

﴿ ١٥ ﴾

التعليم^(٤)

إن تكن القوة والحرارة خالدة

فهي سوط لجواد الحياة

فعلم الأولاد هذه القوة والحرارة

لأن الكتاب والمكتب سحر وخرافة

(١) فالبرهمن يوجد آلهته بتكسير الأحجار وهذا يحتاج إلى جد وجهد.

(٢) والبرهمن (الأمة الهندوسية) شاطر لا يفغل عين هدفه ولا يطلع أحد على أهدافه وهو يريد أن أترك ديني بينما هو متمسك بدينه.

(٣) يقول البرهمن (الهندوسي) للمسلم : اترك الإنجليز وتعال إلينا فلن يصيبك ضرر من صداقتنا، المسجد لا يتسع لشيخين بينما الدير (حزب المؤتمر) يتسع لهما بكل رحابة.

(٤) يقصد نظام التعليم الغربي ومنهجه وعواقبه.

إن النظرة الحلوة الطاهرة أحسن بكثير
 من العلم الساذج الخالي من الذوبان
 والقلب المستغني عن الدارين^(١)
 أحسن بكثير من النظرة الطاهرة الحلوة .

الله غني عن ذلك المؤمن
 الذي ليس في جسده روح اليقظة
 لذا فإني أهرب من مكتب الأصدقاء^(٢)
 لأنه ليس فيه شاب حافظٌ لنفسه .

خذ النصيحة مني : الرجل فاقد البصر
 يرى أحسن ممن يبصر خطأ
 خذ النصيحة مني : إن الجاهل الطيب
 أحسن من العالم الذي ليس له دين .

ما الفائدة من ذلك الفكر الذي يجوب السماء
 الذي يصير غباراً للثوابت والسيارة من النجوم
 مثل قطعة من السحاب الصغير

(١) أي المملوء بحب الله تبارك وتعالى .

(٢) أي من تعليم المدارس والكلليات .

تهيم مع الهواء في سعة الأفلاك^(١) .

★★★★★

الأدب زينة الجاهل والعالم

جميل من تحلّى بالأدب

لا أصادق ذلك المسلم

الذي زاد علما وقل أدبا^(٢) .

★★★★★

لا ينبغي أن تياس من الأطفال

ولا بأس إن لم تكن لهم عقول نيرة

ولكن أخبرني يا شيخ المكتب لو تعرف

«في صدورهم قلوب أم صدورهم خالية»؟^(٣) .

★★★★★

علمٌ ولدك الدين والعلم

لكي يتألق مثل القمر ويشكّل نجوم خاتمه

لو وضعت الفن في يده

فهذه اليد تصير كيد بيضاء في كفه^(٤) .

(١) أي ما الفائدة من ذلك العقل الذي يجعل من الإنسان عالم فلك لكنه لا يوجد بداخله التقوى والتدين فمثله مثل قطعة سحاب تجوب الفضاء دون هدف.

(٢) يخاطب الشاعر هنا أساتذة الكليات.

(٣) يشير إلى أهمية التربية والأخلاق وأنها السبيل إلى العلم الحقيقي، وهذا الأدب، وأدب من نوع خاص فهو مزيج من القلب والعقل وهو يجدد الروح.

(٤) يشير إلى معجزة موسى عليه السلام إذ أدخل يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء الآيات الاعراف: ١٠٨، والشعراء ٣٣، والنمل: ١٢، وهو هنا يوجه حديثه إلى الوالدين والأساتذة ليعلموا أولادهم الدين والعلم، وكذلك الفن وقد عبر عن الفن باليد البيضاء.

ذهب - هذا التعليم - بالأغنية من صدر طائر البستان
 ذهب بالحرقة القديمة من دم شقائق النعمان
 ما فخرك وما اعتزازك بهذا المكتب وبهذا العلم
 الذي لم يهب الرزق وأخلى الجسد من الروح؟ .

★★★★★

يا إلهي ، اجعل أوقات هذا الدرويش سعيدة
 لأن القلوب قد تفتحت من نفسه كتفتح البرعوم
 لقن فتى مكتبتنا هذه النصيحة
 «لا ينبغي أن تقع في قيد أحد من أجل الرزق» .

★★★★★

الرجل الذي ثبت في خاطره «لا إله إلا الله»
 هرب بعيدا عن قيود المكتب والملا
 لا تأمن لذلك الدين وذلك العلم
 الذي يسلبنا العين والقلب واليد^(١) .

★★★★★

حين ترى قاطع الطريق وقد قضى على القافلة
 فماذا تسأل؟ أتسأل كيف قتلها؟
 لا تأمن لذلك العلم الذي تقرأ
 فيمكن أن تقتل به روح الأمة .

★★★★★

(١) في رأي إقبال أن الإنسان لا يتعلم في الكليات طهارة السيرة وعاطفة العشق وقوة الجهاد.

الشاب الوسيم يرتدي قلنسوة ملونة
وله نظرات صائبة كنظرات الأسود
تعلم بالمكتب علم الخراف
فلم يتيسر له الكلا^(١).

قال البعير لأبيه في الصحراء:
لا أرى الله الكائن في كل مكان
قال الأب: يا بني حين تزل الأقدام
فالجمال يعرف نفسه، ويعرف الله أيضا^(٢).

﴿١٦﴾

البحث عن الرزق

الطيران من سقف إلى سقف
لا يعطي للصقر أي مقام
من الأفضل أن يموت في العش
من أن يكون له صيد ضامر كقبضة ريش.

انظر إلى نفسك بالعين العارفة بالأسرار^(٣)
لأن نظرنا سوط لنا^(٤)

(١) علم الخراف: هو الذي يدفع الإنسان إلى الخضوع وحب الخضوع للغير بينما علم الأسود هو الذي يوجد في الإنسان عاطفة الغلبة والسيطرة.

(٢) إشارة إلى المثل العربي «الجمال لا يعرف الحق إلا عند الزلق».

(٣) أي حاول أن تتعرف على حقيقتك.

(٤) أي تدفعنا للبحث والاجتهاد.

لقد أعطينا البحث عن الرزق
لكي يكون ذريعة لفتح الأجنحة .

﴿١٧﴾

التمساح مع ابنه

ما أطيب ما قال التمساح لابنه :
الساحل في عقيدتنا حرام
اختلط بالموج ، وابتعد عن الساحل
فكل بحر وكر لنا^(١)

★★★★★

أنت لست في النهر ، لكن النهر في حضنك
الوقوف في الطوفان هو جوهرك
لو استرحت برهة من طوفانك
فإن هذا البحر - الذي هو بحرك - يسبب لك الموت^(٢)

★★★★★

(١) أي أن الدنيا كلها وطن لنا فإن لم يناسبك مكان ما فاذهب إلى غيره .

(٢) يقول إقبال للمسلم : أنت لست في الدنيا لكن الدنيا في حضنك فأنت لست عبدا لها بل هي مسخرة لك استخلفك الله عليها، وخلوها من المشاكل والمصاعب يعني الموت بالنسبة للإنسان؛ لأن معناه انتهاء الجهد والجهد .

﴿١٨﴾

خاتمة

لم أقل شيئاً عن الساقبي أو الكأس
لقد قلت حديث العشق دوغما خوف
وما ما سمعته من طاهري الأمة
أخبرتكم به بنشوة الكسير^(١) .

★★★★★

ارجع إلى نفسك وتمسك ، بأطراف القلب
اجعل من داخل صدرك مستقرا ومقياما
اسقي هذا الزرع من دمك الصافي
فإني بذرت الحب ، أنت عليك بالحصاد! .

★★★★★

ليس الحرم سوى قبة القلب والنظر
وطوافه ليس طواف السطح والباب
فبيننا وبين بيت الله سر
لا يعرفه أيضا جبريل الأمين^(٢) .

★★★★★

(١) أي لم أقل شعراً لكنني قد قدمت لك النصائح التي أخذتها عن أهل السلف وعلماء الأمة بعد أن صغتها لك شعراً.

(٢) ليس الإيمان بالحركات الظاهرة إنما هو شيء داخلي ذاتي وليس في الحركات المشهودة، وأن الله وحده يعرف حقيقة العلاقة بيننا وبين بيته العتيق.

إلى العالم الإنساني

الإنسانية هي احترام الإنسان

فاعرف مقام الإنسان

«جاويد نامه»

تمهيد

﴿١﴾

تعال أيها الساقبي وقدم تلك الخمر المعتقة
 واجعل شيخ الأمس شاب الغد
 ومن فيض أنفاسك أعط لحنا
 يشعل عصا الناي، يجعلها كالمشعل^(١).

★★★★★

اخرج مرة من حجرة الخلوة
 وافتح الصدر لنسيم الصباح^(٢)
 عليك أن تزيد صباح مقام اللون والرائحة
 حسب نواح الطائر^(٣).

﴿٢﴾

زمان الفتن جاء، ثم ولى
 ربّي في أحضان الأخصاء، وولى
 إن جنكيزية الزمان أوجدت مائتي بغداد^(٤)

(١) يقول الشاعر: يا إلهي أعطني شراب محبتك حتى يكون لشعري تأثيرا، فأستطيع أن أبلغ رسالة المحبة إلى الدنيا كلها.

(٢) الصدر مثل كم الزهرة لا يُفتح إلا بالنسيم.

(٣) أي أوجد عاطفة التعاطف وبلغ الدنيا كلها رسالة المحبة.

(٤) يقصد بمائتي بغداد الكثير من الدول والسلطنات.

مثل قبور مظلمي الحظوظ ، وولت .

كثير من الناس الذين حملوا ألم الغد

ماتوا بالأمس ، ولم يروا الغد^(١)

سعداء أولئك الذين ارتبطوا بالحاضر

فقد التقطوا آلاف الهيجانات القديمة^(٢) .

﴿٣﴾

إنك لا تملك ألحاناً رقيقة كألحان الليل

فليس في جسدك الروح اليقظة

وليس في أصابعك أثر وخز الشوك

من هذه الخميطة حيث قطف الأزهار مسموح^(٣) .

تعال وتعلم التعمق في الذات

وتعلم أن تحك صدرك بأظافرك

لو أردت أن ترى الله ظاهراً

فتعلم أن ترى الذات أكثر ظهوراً .

(١) هذا البيت من شعر أمير خسرو .

(٢) وهم سعداء لأن امتهم في العصر اللاحق ستجني ثمار جهدهم الحالي .

(٣) الخميطة رمز للعالم الروحي . يقول الشاعر: أيها الإنسان يمكنك أن تحقق الرفعة في الدنيا لكنك

تخشى المشكلات والنتيجة أنك تعيش حياة الضياع .

دع التذمر من صلابة الأيام
فالإنسان الذي لا يتحمل ، قليل القدر
ألا تعلم أن ماء الأنهار
ينساب على الأحجار فيبدو رائعاً^(١) .

★★★★★

ما أطيب ما قالت الحمامة^(٢) لابنتها :
إنك لن تستطيعي أن تعيشي بالطبع الناعم كالحرير
لو صحت «الله أكبر» من سكرة الشوق
فإنك تستطيعين أن تنزعي التاج من رأس الصقر .

★★★★★

سقطت من مقام الكبرياء
وبلطت وجهك أمام الأخساء
إنك صقر! لكن لا تغتر
حتى لا تقع في فخ نفسك^(٣) .

★★★★★

(١) في هذا يكمن الجمال والجلال اللذان يعتز بهما إقبال كثيرًا، كما أنه يريد أن يقول بأن الذات تستحکم بمواجهة الصعاب .

(٢) يقصد بالحمامة الإنسان المسلم، ويعتقد الناس أن هديل الحمام تسييح لله ولهذا استخدم الشاعر الحمام هنا تعبيرًا عن المسلم .

(٣) صقر أو شاهين أي خليفة الله .

ما أطيب اليوم الذي تستعيد فيه ذاتك !
 فهذا هو الفقر الذي يهب الإنسان الغنى
 إن حياة الخلود في اليقين
 وسوف تموت لو سلكت طريق الظن والتخمين .

★★★★★

أنت أيضا مثلي في حجاب عن ذاتك
 فما أطيب اليوم الذي تستعيدها فيه !
 يجعلني التفكير في الرزق كافرا
 ويحيلك العلم الكتابي كافرا .

★★★★★

ما أطيب ما قال الجمل لصغيره
 سعيد من يعرف عمل نفسه
 نحن أقدم من جاب الصحراء
 فتعلم منا أن تحمل أثقالك على ظهرك^(١) .

﴿ ٤ ﴾

إنني أذكر ما قاله لي عالم من الإفرنج
 قال كثيرا عن أسرار الوجود والعدم
 لكنني أقول لك كلمتين فقط

(١) يشير إلى ضرورة الاعتماد على النفس .

أخبرني بهما رجل عجوز من العجم^(١) .

ألا كم ستبقي هكذا يا مقتول الظاهر؟
 كم من آلام اشتريتها لقلب واحد؟
 إن الجلوس مع عارف بالنفس لبضعة لحظات
 أحسن بكثير من تأويلات الشيوخ .

﴿٥﴾

إن ما تراه هو الوجود أو الظهور
 كم من المشاكل وجد حكيمنا لها حلولا
 كتب كتابا عن فن الغوص
 لكنه لم ينزل إلى قلب البحر .

حطم جبل بيستون بضربة معول
 فالفرصة قليلة والزمان متقلب
 اترك الحكماء في هذه السفسطة
 أمن الفأس أم من الحجر يتطاير الشرر؟

(١) يقصد علماء الشرق .

لا تترك مصباح الأمل من الكف
 واحصل على مقام «الها» و«الهُو»
 حذار أن تضع وسط أركان الدنيا الأربعة
 ارجع إلى نفسك وحطم هذه الجهات الأربع^(١).

★★★★★

قلب البحر بعيد عن السكون بسببك
 لأن في جيبه درة فريدة منك
 احفظ أيها الموج - وارع - اضطربك
 فإنك أنت متاع بيت البحر^(٢).

★★★★★

عليك أن تشد الدارين إليك
 لا ينبغي الهروب عن الحضور أمام الذات
 انظر حاضرک في نور الأمس
 إذ أن فصل الحاضر عن الماضي ليس بمستطاع .

★★★★★

(١) المؤمن الحقيقي هو من لا يتوه في الدنيا بل تنسبه الدنيا فيه (إنما الكافر حيران له الآفاق تيه وأرى

المؤمن كونا تاهت الآفاق فيه) عزام. ضرب كليم ص ٢٨.

(٢) أوجد الله للإنسان في هذه الدنيا مئات الآلاف من النعم الخفية ولهذا فمن واجب الإنسان أن

يجتهد للحصول على هذه النعم فيستفيد ويفيد الآخرين.

أظهرت لنا شقائق النعمان ذاتك
فكشفت النقاب عن الوجه الحسن
حين ظهرت قالوا: شقائق النعمان
كيف كنت على الغصن؟ ماذا كنت؟ .

★★★★★

لا يبكي الرجل من الأذى والغم والألم
وما يبقي على قلبه قليل من غبار الزمان
لا تقس بكاءه ببيكائك
فإن - الرجل - دائما يبكي من الحرقه والنشوة^(١) .

★★★★★

لا تظن أن الرجل المقدام مات
فهو لا يموت ولو تحت السماء مات
عليك أن تموت مثل هذا الموت
والامت أي موتة تشاء^(٢) .

★★★★★

لو لم يكن ترابك محرما للروح
فلن يكون لغصنك شيء من طراوة مطر الربيع

(١) ويقصد الشاعر هنا أن الرجل الجبان يبكي من المصائب لكن الرجل المؤمن صاحب الهمة يمكن أن يبكي من حرقه حبّه لله تعالى .

(٢) يرى إقبال أن القلب الحي لا يموت فهو حي بعد الموت ، والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

تحرر من الحزن والغم واحفظ أنفاسك
لأن الصدر المليء بالأنفاس ليس فيه غم .

★★★★★

أنفاسنا جميعها قلقه من كثرة الهموم
تجد لكل غم شريك لا يصلح لحمل الأسرار
من الممكن أن تغير طريقة المستقبل
حين تعرف كم هو ثمن هذه الأنفاس القليلة^(١) .

★★★★★

الشاب الذي ربط قلبه بذاته^(٢)
يستطيع أن يمضي في البحر والنهر في مأمن من الشباك
تجليات النشوة للنظر حلال
لكن ينبغي أن تحفظ القلب واليد .

★★★★★

إن الغم الذي تتألم منه قلوبنا
أصله من هذا التراب
أما ذلك الحزن الحلو الذي ينبع من الأفكار السامية
فلا أنا ولا أنت نعرف عنه شيئاً

(١) لو تعلم الإنسان كيف يقدر وقته الحالي أمكنه أن يشكل حياته المستقبلية بطريقة أطيب .

(٢) أي الذي قوي ذاتيته .

لا تقل هكذا فعل بي الله
لأن غسل التراب عن ذيلي ممكن
أقلب هذا العالم رأساً على عقب
ففيه يكسب الجبان في قمار الحياة ويخسر الشَّهْمُ .

★★★★★

أخرج الحقد من صدرك
فأحسن أن يخرج دخان البيت من النافذة
لا تعط أحداً خراجاً من زرع القلب
لا تجعل نفسك يا عمدة القرية مغيراً عليها .

★★★★★

الأسحار في جيوب ليله
وضياء الدارين ينبعث من كوكبه
ماذا أقول لك عن علامة المؤمن
سوى أن البسمة تبدو على شفثيه حين يأتيه الموت^(١)

★★★★★

بكى الندى من نسيم الصباح صائحا
إني أمل نظرة منك

(١) قال إقبال هذه الرباعية قبيل وفاته بقليل، ويقول: إن الرجل المؤمن يعيش حياته كلها في سبيل الحق ولهذا فهو راض سعيد وقت مغادرته لها لأنه في سبيله إلى لقاء وجه ربه.

صار قلبي بارداً من صحبة الورد
امض يا نسيم الصباح حتى أنسكب على الحشائش^(١) .



القلب

القلب بحر لا ساحل له ولا شطآن
التمساح يرتجف من رهبة موجه
الفلك لا يساوي فقاعة من فقاقيع ذلك الفيضان
الذي يغرق مئات السهول والوديان .

★★★★★

قلبنا نار، والجسد موج دخانها
نغمة وجودي هي ارتفاع الحرارة في كل لحظة
تماسك القلب - وصلابته - في التهجد
فإنه يكون كالزئبق الذي يسكن حول عوده^(٢) .

★★★★★

يحمل الزمان عمل الرجل الدرويش
- الحافظ لنفسه - إلى الأيام
هذا هو الفقر والغنى، بأن

(١) يقصد بنسيم الصباح الحياة القوية التي تخلق منه شيئاً قويا .

(٢) أي أن وجود الجسم يتوقف على القلب بل الجسم مظهر خارجي للقلب كما الدخان مظهر للنار .

تحفظ قلبك مثلما يحفظ البحر جوهرة^(١) .

★★★★★

إنك لم تختبر قوة ذاتك
لم تفك القيد من يديك وقدميك
لو لم يوجد في صدر الإنسان قلب
يصير العقل كالقيد للإنسان .

★★★★★

تقول إن القلب من تراب ودم
وهو أسير لطلسم الكاف والنون
مع أن قلبنا في صدرنا
لكنه خارج عن دنيانا^(٢) .

★★★★★

عالم الشمس والقمر هو زناره
حل كل عقدة يكون من صياحه
بلغ رسالتي هذه إلى الهند
إن العبد يتحرر بيقظته^(٣) .

(١) والمعنى المقصود هنا هو أن الفقر والغنى حقيقة واحدة يتم التعبير عنها بطريقتين، والوصول إلى حقيقة الفقر والغنى يكون برعاية الذاتية وتربيتها.

(٢) يقول الشاعر إن القلب (الذات) ليس بالشيء المادي ولا يرتبط بالقوانين التي نعرفها.

(٣) إشارة إلى الدعوة التي ظهرت من أجل تحرير الهندود والدعوة إلى السيقظة على أساس أنها هي السبيل إلى التحرر، ويقول الشاعر: طالما لا يستيقظ القلب لا يمكن الحصول على الحرية.

والخلاصة أنه أنا وأنت زرع الله
وهذا محمل لعروس الحياة
غبار الطريق صار عالماً بالأسرار
وأنت لا تعرف أهذا هو العقل أم القلب؟^(١)

★★★★★

أحياناً يكون باحث الحسن الغريب
خطيباً منبره من صليب
وأحياناً يكون السلطان مع الخيل والجيش
لكنه ليس له من ثروته نصيب .

★★★★★

ليس عالم القلب هو دنيا اللون والرائحة^(٢)
لا يوجد فيه قصر أو حارة ، ولا منخفض أو مرتفع
ليس هناك أرض ولا سماء ولا جهات أربعة
فليس في هذا العالم سوى «الله هو»^(٣) .

★★★★★

(١) يشير الشاعر إلى أن العقل يحرم الإنسان أحياناً من نعمة عشق وحب تعاليم الدين وأن القلب هو الوسيلة الوحيدة لذلك .

(٢) أي المحسوسات الموجودة في هذه الدنيا .

(٣) أي لا موجود بحق إلا الله .

رأى البصيرة، فأحضر العقل المكيال
لكي يكيّل أركان الدنيا الأربعة
السكير الذي يسمونه بالقلب
قد امتص بداخله هذا اللون وهذه الرائحة^(١).

★★★★★

ما الحب؟ أهو من أثر النظرة؟
كم هو حلو جرح سهم النظرة!
أتذهب بصيد القلب! الق بالجمعة
فإن هذا الصيد، صيد النظرة.

﴿٩﴾

الذات

الذات مضيئة بنور الكبرياء
بلوغها العلا من عدم وصولها
الفراق من مقامات وصلها
وصالها من مقامات الفراق^(٢).

(١) أي احتوى الدنيا كلها، ويشير الشاعر إلى أن صاحب العقل يضيق وسط هذه الكائنات بينما صاحب القلب يختلف عن ذلك ولإقبال بيت شعري يقول فيه: إنما الكافر حيران له الآفاق تيه، وأرى المؤمن كونا تاهت الآفاق فيه

(٢) أي أن الذات ليست بالشيء المادي بل هي بما يهبها الله من نور وهي بحاجة دائما إلى رعاية الله وعليها أن تسعى دائما إلى الحصول على رعاية الله عن طريق التقرب إليه بطاعته والخضوع له.

حين يترك القوم الأحاديث والأقاويل
تنبت في ترابهم الرغبات
فالذات تتحول بالأمل إلى سيف
نفسه يفصل بين الألوان والروائح^(١) .

★★★★★

إن للذات من وجود الحق وجود
ولها من ظهور الحق ظهور
لا أدري أين يكون هذا الجوهر المضيء
لو لم يكن البحر^(٢) .

★★★★★

حين يألف القلب صحبة الورد
يألف في نفس اللحظة لذة النوم
حين خلقوا «أنا» استيقظ القلب
ويموت حين تكون «أنا» محكومة الجسد .

★★★★★

وصالنا وصال في فراق
ليس هناك غير البصيرة لحل هذه العقدة
مع أن الجوهر قد تاه في حضن البحر

(١) أي يقطع من شدة حدته كل شيء .

(٢) إشارة إلى أن الذات بحاجة دائماً إلى خالقها مثلما الجوهر بحاجة إلى البحر .

إلا أن ماء البحر ليس ماء الجواهر^(١) .

★★★★★

إن كف التراب الذي أملك هو من عتبات بابه

ووردي وريحاني من ماء سحابه المقطر

أنا لا أدري عن نفسي شيئا سوى

أنني قابع في حضنه .

﴿١٠﴾

الجبر والاختيار

أعرف جيداً أن سبحانه وتعالى يوماً ما

سيضع القصر والكوخ في الميزان

إنني أخاف الغد حين تقوم القيامة

أخاف ألا يوافقني ولا يوافقته^(٢) .

★★★★★

قال لي راهب عجوز من روما

لدي حكمة فاحفظها

كل قوم يخلقون قضاءهم بيدهم

فأهلكك القدر، وأهلكنا التدبير .

(١) رغم أن البحر احتوى الجواهر إلا أن هناك فصل بين ماء البحر وماء الجواهر . وهذا شيء لا يدرك

إلا بالبصيرة .

(٢) أخشى أن يصيبني الخجل من ذنوبي فلا أكون جديراً بالوقوف بين يدي الله يوم القيامة .

﴿ ١١ ﴾

الموت

سمعت أن (ملك) الموت كان يقول لله :

كيف تكون عين الذي خلق من الطين خالية من نداوتها^(١)

إنني أخجل حين أقبض روحه

إذ لا يخالطه إحساس بالخجل .

اعطه الثبات فهو أمير الجهات الست^(٢)

وييده زمام الكائنات

لا يخجل من ذل الموت

لأنه ليس محرما لأسرار ناموس الحياة .

﴿ ١٢ ﴾

قل لإبليس

بلغ إبليس رسالتي هذه :

إلى متى هذا الانتفاض تحت الشبكة؟

أنا لا أحب هذا البيت الترابي^(٣)

لأن صباحه ليس إلا إرهابا للمساء .

(١) أي الإنسان الذي سيطرت عليه الماديات الذي لا يوجد بداخله عاطفة الغيرة .

(٢) الشرق، الغرب، الشمال، الجنوب، فوق، تحت .

(٣) الدنيا ويقول الشاعر: لا يستريح أحد في هذه الدنيا ففي كل سرور مظهر من مظاهر الألم .

حين خلق الله الدنيا من العدم
 كان ضميرها البارد خاليا من الهيجان
 لم تكن هناك حرقة وحرارة إلا في روحنا
 فقد خلقوك من نارنا^(١) .

أعطى الفراق للشوق بصيرة مضيئة
 أعطى الفراق للشوق ذوق البحث
 لا أعرف كيف صارت أحوالك ؟
 لقد أخبرني بذاتي هذا الماء والطين^(٢) .

لقد أخرجوك من عتباتهم
 وسموك بالرجيم والكافر والطاغوت^(٣)
 إنني في اضطراب وألم منذ صبح الأزل
 من الشوك الذي غرسوه في القلب .

(١) يقول الشاعر: إن إبليس مظهر خارجي لنار غضبنا .

(٢) كناية عن الوجود الحسي المكون للإنسان، ويقول الشاعر: بأن الإنسان قيد في شكل جسده ظهر بداخله شعور بذاتيته .

(٣) عن موضوع إخراج إبليس تكلم الرومي في كتاب «فيه ما فيه» ص ١٠٨ النص الفارسي «فرورزان فر» .

أنت تعرف صوابي وخطأي
لم يثبت الحب من زرعي الخرب
إنك حملت آثامي التي لا حصر لها لتواسيني
فامسك النفس ، فذنوبي بلا حساب^(١) .

تعال نلعب الترد كالمملوك
لكي نذيب هذه الدنيا جميعها
ونجعل بسحر الفن ورقة عُشبها الأخضر
جنة في اتجاه الفلك^(٢) .

﴿١٣﴾

إبليس الترايبي وإبليس الناري^(٣)

فساد العصر الحاضر واضح بين
الفلك خجل من قبحه
لو تخلق ذوق البصيرة

(١) أي أن الإنسان ضعيف وناقص يرتكب المعاصي وينسبها إلى الشيطان يقول بأنه دفعني لارتكاب المعاصي .

(٢) يرى الشاعر أن بداخل كل إنسان شيطانه فإذا تخلص كل إنسان من الجانب السيء بداخله أحال بذلك الدنيا إلى جنة ، فلو اتبع الإنسان تعاليم القرآن قضى على ما بداخله من شرور وأمات الشيطان بداخله .

(٣) إبليس الترايبي هو آدم وهو الإنسان ، وإبليس الناري هو إبليس الحقيقي وهو يشير في هذه القطعة إلى أبالة العصر الحاضر .

تلق في خدمتك مائتي شيطان

قُطَاع الطرق والناهبون كلهم آذان صاغية في جميع الطرق

لأنهم جادون في نهب القلوب

الذنب العظيم في مقابل الشيء الحقير

ما أرخص ما يبيع هؤلاء التجار

أي شيطان هذا الذي يمشي منقلبا

لقد جعل عيونك غافلة عن السحر

إنني أحسبه شيطانا ميتا

ذلك الذي يصيد صيدا هزيلة مثلك^(١).

أي سم كامن في كأسه

يقضي على الروح، ولا يؤثر على الجسد

إنك ترى حلقة الشبكة الظاهرة

لكنك لا ترى الفخ الكامن وراء الحبة .

(١) ينصح الشاعر بضرورة مواجهة الشيطان القوي، أما الشيطان الضعيف فهو خاضع ومستعبد ولا جدوي من مواجهته.

سقط البشر حتى من مقامهم
وما فتح لهم كان بقدر محكم
الإثم يصير باردا سقيما
لو يكن إبليسك ترابي الأصل .

فلا تكن صيدا لأبالسة هذا العصر
فدلالهم لائق للأخساء
فما أحسن إبليس للأصلاء
فهو قد رأي الله وعياره كامل .

الرجل الكامل نذّه في المعركة
لأن من نسبه هذه النار ، له مكانة عالية
ليس كل ترابي جدير بحبله
فالصيد الضعيف حرام عليه .

مع أن هذا بعيد عن فهم الدون
لكن ينبغي قول هذه الحكمة
إن العاصي الغيور في طبعه
لا يجاري هؤلاء الأبالسة الجدد^(١) .

(١) أعتقد أنه يشير إلى أئمة السياسة الجدد في أوربا وأصحاب الحضارة الأوربية الزائفة .

إلى رفقاء الطريق

تعال نصنع لهذه الأمة شأنها

تعال نقامر قمار الحياة كالرجال !

ولنبك في مسجد المدينة

حتى نذيب القلب في صدر الملا !



القلندر هو الباز الجريء في السماوات^(١)

تصبح الأثقال على جناحيه خفيفة

الفضاء الأزرق هو مكان صيده

فهو لا يحوم حول الأوكار.

حين انقشع الغبار عن متاع الحياة في جميع الجهات

انسكبت من روعي نعمة «الله هو»^(٢)

امسك هذا العود الذي تقطعت أوتاره

- من حرقه المضرب - كالدموع^(٣).

اضطربت كقطرة دمع في قلب الفطرة

اضطربت حتى وصلت إلى عينيها

يستطيع أن يرى ضيائي من أهدابها

لأنني لم أتقطر على أوراق الكلا إلا قليلا .

(١) القلندر هو الإنسان الذي لا يصل نفسه بجمال ولا أهل ولا دار.

(٢) أي توحيد الله خالق جميع الكائنات.

(٣) صورة رائعة لأوتار العود المتقطعة المتساقطة كالدموع.

تأتيني من المنطق نكهة غير ناضجة

فأدلته أدلة ناقصة

- بينما - يفتح أمامي الأبواب المغلقة

بيتان من شعر الرومي أو الجامي^(١).

★★★★★

تعال خذ مني هذه الخمر المعتقة

التي تمنح الروح للكأس الترابي^(٢)

لو ترويه من زجاجتي

فإن قد آدم ينبت غصن شقائق النعمان.

★★★★★

أحمل بين يدي نفس العود

ففي داخلي آهات وصراخات متنوعة

خيوطه وأوتاره من عروق الحجر

لكني أضرب عليها بأظافر الأسد^(٣).

★★★★★

(١) يميل إقبال إلى الوجدان أكثر من ميله إلى الفلسفة والكلام فالإيمان في القلب والفلسفة تؤدي

بالإنسان إلى الدخول في متاهات الشرك.

(٢) الكأس الترابي هو الإنسان، وتعال تعلم مني أسلوب العشق.

(٣) أي أن تعاليم الإسلام تدعو المسلم إلى الجهاد، والدين كله كفاح وجهاد وهذا ما يجعل من المسلم

مسلمًا حقيقيًا.

بلّغ حديثي إلى براويزة هذا العصر^(١)
 أنا لست فرهاداً فأحمل الفأس بيدي^(٢)
 إن الشوك الذي يوخز صدري
 يمكن أن يؤلم قلب مائة جبل كبيستون

★★★★★

اجعلني فقيراً، واجعل متاعي نظرة
 جبل الأصدقاء في عيني صار رقيقاً كقشة من تبين
 اعرف مني، وافهم أن غراب الدخمة^(٣)
 أحسن من الباز الجالس على يد الملك .

★★★★★

لم أغلق باب القلب في وجه أحد
 لم أنقطع عن الأقرباء والأصدقاء
 جعلت في صدري مقعداً
 ثم جلست سعيداً تحت هذا الفلك الدوار^(٤) .

★★★★★

(١) أي أعداء الإسلام.

(٢) إشارة إلى قصة فرهاد ويقصد أن المسلم لا يسعى إلى الحصول على حب امرأة مثلما فعل فرهاد.

(٣) الدخمة: اسم لمقابر البارسيين، وكانوا يضعون عليها موتاهم، وتأتي الغربان وتطعمم بلحوم الموتى والبارسيون كانوا سعداء؛ لأنهم يعتقدون أن هذا هو الطريق لكي ترفع أجساد موتاهم إلى الله.

(٤) أي لم أترك الدنيا لأعيش حياة الرهينة.

ليس في هذه الروضة جاها ولا بهاء
 ليس من نصيبي قباء ولا قلنسوة
 لقبني البستاني ببليد الروضة
 لأنني عشقت عين الترجس^(١).

تكلم في هذا المحفل مائتا عالم
 قالوا كلاماً أرق من ورق الياسمين
 لكن أخبرني من صاحب البصيرة هذا
 الذي رأى الشوك فحكى أحوال البستان؟^(٢)

لا أعرف نكات العلم والفن
 فقد أعطيت للكلام مقاما آخر
 إن خفة القدم منحت حرقتي وسروري
 للشيوخ القدامى في القافلة

لا تحسب أنني أشدو كطائر الصباح
 فإنني لا أعرف غير الآهات والتأوهات

(١) يشير الشاعر إلى أنه أطلع المسلمين على الاعيب اعدائهم الإنجليز فارتكب في نظرهم جريمة لا تنفرد، ولهذا لم يكن من نصيبه أي منصب أو وظيفة.
 (٢) يقصد من يستطيع أن يأتي بالربيع إلى الروضة.

لا تترك ذيلي من يدك حتى تجد
مفتاح الحديقة في عشي .

الدنيا في عيني ليست سوى معبر
هناك آلاف المسافرين ، ولا يوجد رفيق للطريق
مضيت عن زحام الأقرباء والأصدقاء
فليس هناك من هم أشد غربة من الأقارب .

تعلم الوجود من الفناء
تعلم كيف تزيد قيمتك
أوقع نفسك في محيط نغمتي
وتعلم كيف تستريح في طوفاني كاللؤلؤ

إنني تربيت في هذا المنزل الترابي
لكن قلبي ساخط على منزلي هذا
مع أنني ترعرعت من فيض نداءه
لكن لم أجعل من الأرض سمائي .

إنك لا تعرف أن القلوب تحيا بنفس الرجل الكامل
وحتى تكون محرما لهذا الرجل اعرف
أنه يحفظ نفسه عن الآهات والتأوهات
فهو يملك حزنا كحزن الرجال^(١)

★★★★★

اخلق النظرة، وانظر الروح في الجسد
انظر الياسمين الذي لم يتفتح بعد على الأغصان
وإن لم تكن مثل السهم في القوس
فانظر إلى الهدف بنظرة الرامي

★★★★★

العقل غريب عن ذوق اليقين
قمار العلم والحكمة لا يأتي إلا بنتيجة سيئة
إن مائتين مثل أبي حامد والرازي لا يتساوون
مع جاهل عيونه ترى الطريق^(٢).

★★★★★

(١) أي أن المؤمن لا يشكو أبدا مما يدور في العالم، فهو يتغلب على جميع المشكلات عن طريق الكفاح والجهاد المستمر.

(٢) أي أن القلب هو السبيل إلى الإيمان الخالص الخالق لا العقل.

ماذا يعني الحرير^(١)؟ ماذا تعني الفضة والذهب؟^(٢)
 ماذا يعني العبد الجميل المتمنق بالذهب؟
 هل عند أهل الفضل متاع آخر غير هذا؟
 إنهم في غنى عن الدارين - مثل خالقهم^(٣).

سُكرى للذات هو عين العقل
 الصياح قليل من خمارتي
 فاشرب مع أن خمري ليست صافية
 فهذه ثمالة دنان الأمس .

إن لك ألعيب بالعمامة^(٤) والخرقه^(٥)
 وجدت في نفسي رائحة الحبيب
 عصا الناي هي رأسمالي^(٦)
 فليس عندي عصا المنبر أو عصا الصليب .

(١) في الأصل القماش .

(٢) أي الثروة .

(٣) أي أنهم ابتعدوا عن الله بسعيهم إلى الثروة والجاه .

(٤) رمز للعلماء الذين يهتمون بالشكل دون المعنى .

(٥) رمز للصوفية المترهبين .

(٦) رمز للمعرفة الإلهية ورأسمال الشاعر هو محبته للرسول ولسنة الرسول ﷺ لأنه السبيل إلى

الحصول على محبة الله .

حين رأيت جوهر مرآتي
 اختلوت في صدري
 وهربت بغمي القديم عن هؤلاء
 العلماء عديمي الذوق والبصائر .

★★★★★

حين جمعت متاعي راحلا عن هذا العالم
 قال الجميع : «إننا نعرفه جيدا»
 لكن أحدا لم يعرف عن هذا المسافر
 من أين جاء؟ ومع مع تكلم؟ وماذا قال؟^(١) .

★★★★★

لم يعد ذو القلب عالما، ولم يعد صافي الضمير
 إن الفقير غني بفقره
 إن ما هو على كتف المنعم الكافر الجاهل
 ليس قباء ولكن سرج من حرير^(٢) .

﴿٣﴾

أنت تسجد وتركع لدار وجمشيد^(٣)

(١) يشير إلى أصدقائه الذين لازموا في فترة مرضه الذين فهموا أنه مجرد شاعر فقط وهو حزين لأنهم

لم يهتموا بحقيقة رسالته الشعرية إلى الأمة الإسلامية.

(٢) يقول الشاعر: إن من يطلب حاجته من غير الله فهو مشرك لا محالة.

(٣) من ملوك الفرس.

لا تُخجل الحرم أيها الجاهل
لا تلمس حاجتك لدى الإفرج
وأزل هذا الصنم من طاق القلب .

سمعت هذا البيت من رجل عجوز
حكيم قدير ذي ضمير مضيء :
«لو أنك حفظت الذات في حالة الفقر والاحتياج
لملكت أيها الفقير الدارين»^(١) .

يكمن سر العمل في كلمتين
مقام العشق ليس المنبر ، لكن المشتقة
لا يخاف الإبراهيميون النماردة^(٢)
لأن النار مَحَكٌ للعود الخام

لا تطلب يا شقائق النعمان المواساة من أحد
فابحث عن العون في ذاتك مثلي
افتح الصدر لكل رياح قادمة

(١) مهما كان المسلم فقيرا محتاجا لا يجب عليه ان يمد يده امام أحد .

(٢) الإبراهيميون: نسبة إلى إبراهيم عليه السلام، والنماردة: نسبة إلى نمrod.

واحفظ ما عندك من آثار الجراح القديمة^(١) .

★★★★★

احفظ هاتين النصيحتين عن شيخ

لا ينبغي أن تعيش بغير روحك

«اهرب من الرجل الدون

فقد رهن روحه وعاش بالجسد» .

★★★★★

قال الموج المضطرب للساحل^(٢)

إني أعرف قيمتي بفرعون^(٣)

أحيانا التوى على نفسي كالثعبان

وأحيانا أرقص بذوق الانتظار^(٤) .

★★★★★

لو أن هذا البهاء والعز من عند الإفرنج

فلا تضع جبينك على باب أحد سواه^(٥)

(١) شقائق النعمان كناية عن الإنسان المجروح في قلبه، وينصح الشاعر المسلم أن يواجه المصائب

بشجاعة وأن يحفظ روح الحجة القديمة لرسول وسنة رسول الله، ولا يغفل عن اتباع سنته .

(٢) كناية عن الرجل المؤمن .

(٣) إشارة إلى قصة موسى وفرعون .

(٤) المقصود أن المؤمن مشغول دائما بالجهاد والكفاح .

(٥) سوى الإنجليز ثم تحملوا ما يأتي من ذلك عن ضرب الأحذية فقد قبلتم الذل وصرتهم كالحمير

فتحملوا تبعات ذلك الأمر .

واعط مؤخرتك لضرب العصى
لأن سارج الحمار له حق على الحمار .

قلب الإفرنجي لا يسيطر عليه أحد
هو كالإله الذي يطوف حول حرمه مائة إبليس
متاعه كله هو الملك وليس الدين
ولا يوجد لديه روح كروح الأمين .

﴿ ٤ ﴾

أنا وأنت يشنا من القلب والدين
هربنا عن أصلنا كرائحة الورد
مات قلبانا والدين بموت القلوب مات
واشترينا الموتين في صفقة واحدة^(١) .

المسلم الذي يعرف أسرار الدين
لا يمسخ جبينه إلا أمام الله
لو لم تخضع السماء لإرادته
فهو يستطيع أن يدور الأرض لمرامه .

(١) أي: موت القلب وموت الدين، يقصد حين ترك المسلمون عشق الرسول واتباع سنته ماتت قلوبهم فمات الدين.

القلب ذو الطبع الغريب ليس من هذه الدنيا
 ليله ونهاره ليس من دوران السماء
 فعليك أن تدرك وقت قيامك بنفسك
 لأن حلاوة العشق والنشوة ليس لها أذان^(١).

★★★★★

لا يكون مقام الشوق إلا بالصدق واليقين
 ولا يكون اليقين إلا بمصاحبة روح الأمين
 لو لديك شيء من الصدق واليقين
 فضع قدمك دون خوف ولا تخشى الكمين .

★★★★★

إن الإدراك والعرفان للمسلم هو أن يدرك
 سر «لولاك» ظاهراً في نفسه
 لا يسع قياسنا لذات الله - فاعرف
 الرجل الذي قال: «ما عرفناك»^(٢).

★★★★★

وهبت أصنامك للإفرنجي
 وامت في بيت أصنامك موتة لا رجولة فيها
 العقل غريب عن القلب، والصدر بارد بلا حرقة

(١) نداء الصلاة أي موعد محدد، أي ليس لها من يجعلك مستعداً لها.

(٢) إشارة إلى الحديث: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك، ما عرفناك حق معرفتك».

لأنك لم تشرب خمراً من كرم السلف^(١).

ليس كل إنسان يخلق ذاته ويذيب نفسه
 ليس كل إنسان يستطيع أن يكون نشوان في حالة التضرع
 قباء «لا إله إلا الله» قباء دامية
 وهي لا تناسب الجبناء^(٢).

المؤمن يحترق من نار وجوده
 وفتح كل ما أغلقوه من فتحه
 جلال الكبرياء في قيامه
 جمال العبادة في سجوده.

ماذا تسأل عن صلاة العاشقين؟
 ركوعهم كسجودهم سرّاً
 إن قوة وحرارة تكبيرة واحدة من «الله أكبر»
 لا تسعها الصلوات الخمس.

(١) أي لو مضى المسلمون على نهج السلف الصالح لضحوا بأرواحهم ورفضوا قبول عبودية الإنجليز.
 (٢) طالما لا تكون بداخل المسلم عاطفة التضحية والبذل والغناء فلا يمكن أن يكون موحدًا بالمعنى الحقيقي فالعارف بمعنى «لا إله إلا الله» هو فقط من يستطيع أن يضحي في سبيل الله.

تلاوته دعوة للعالمين^(١)

ووجود المسلم الحي يكون من ركوعه
إن قتيل هذا العصر الخامل^(٢)، لا يعلم
كم من القيامات مضمرة في صلواته .



الإفرنجي يعرف دستور إعطاء الرزق
إنه يعطي لهذا ما يسترجعه من ذلك
ويعطي للشيطان رزقا
بطريقة تحير الأفلاك .



لا حاجة إلى الإسهاب في بيان القصة
فإنني أستطيع أن أكشف السر الخفي في حرف واحد
لقد أعطى دنياه إلى التجار
ماذا يعرف «اللامكان» عن قيمة «المكان»^(٣) .



الجنة لطاهري الحرم
الجنة لأصحاب الهمم

(١) في الأصل (صلا) وهي بمعنى دعوة .

(٢) أي الخالي من الحرقة .

(٣) يحاول الشاعر أن يثبت دعواه عن طريق المنطق .

قل للمسلم الهندي أن يفرح
فالجنة أيضا - لمن يعمل - في سبيل الله^(١) .

ليس للقلندر رغبة لإلقاء الخطب
ليس عنده ترياق سوى هذه الحكمة :
لا محصول من ذلك الحقل الخرب
الذي لم يُرو بدم «شبير»^(٢) .

(١) يسخر الشاعر من المسلم الهندي الذي ابتعد عن الجهاد ويقول له في يوم القيامة قدم خطاباً إلى ربك وبعد أن حمد الله وتشكره قدم طلباً للحصول على الجنة وستجد أيضاً جواباً لطلبك لأنك عملت هذا «في سبيل الله» .

(٢) اسم من أسماء الحسين رضي الله عنه، ويقول الشاعر: إنه بدون الجهاد في سبيل الله لا يستطيع المسلمون أن يحققوا أي نوع من الرقي والتقدم فالجهاد هو غاية المسلم في الحياة وهو روح القرآن الكريم وروح العبادات كلها .

مجلس شورى إبليس

سنة ١٩٣٦ ميلادية

إبليس

هذه الألاعيب القديمة للعناصر^(١)، وهذه الدنيا الوضيعة
كانت سببا في قتل أمنيات ساكني العرش الأعظم^(٢).
الخالق الذي سماها دنيا الكاف والنون^(٣)
متهمى اليوم لتدميرها.

عرضت على الإفرنج حلم الملوكية
وحطمت سحر المسجد والمعبد والكنيسة.

علمت الجهلاء درس القدر

وأعطيت الغني جنون الرأسمالية.

من يستطيع أن يطفىء ناره المتأججة^(٤)

إن في هيجانها الحرقه الإبليسية .

أغصانه^(٥) تنمو وترتفع من ماء سقيانا

(١) يقصد الدنيا في نظر إبليس بعناصرها المادية ونظمها المتنوعة مثل النظام الديمقراطي، والشكي،
والدهري، والإلحادي، والزندقي، والمزدكي، والماركسي، والبلشفي، والاشتراكي، والرأسمالي
وغيرها.

(٢) أي: الملائكة.

(٣) حيث قال تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس.

(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل جنون الرأسمالية.

(٥) أي: أعماله وما يقوم به من أفعال.

فمن يستطيع أن ينكس أغصان هذا النخل القديم؟! (١)

المستشار الأول

لا شك أن هذا النظام الإيليسي محكم

ففي ظله ألف الشعب طبع العبودية .

الخضوع والمذلة على جبين هؤلاء المساكين

فجبلتهم تقتضي منهم صلاة بلا قيام .

لا يمكن أن تنبت لديهم الأمانى

فهي إن تظهر تمت أو تبق كشيء خامل لا ينضج أبداً .

وهذه هي معجزة جهدنا المتواصل

فاليوم ترى الصوفي والملا عبيدا للنظام الاستبدادي .

هذا الأفيون (٢) كان مناسباً تماماً لطبع الشرق

مع أن علم الكلام ليس بأقل من «الغناء الصوفي» (٣) .

لو بقيت لهم مناسك الحج والطواف ، فلا ضير

فإن سيف المؤمن المسلول صار كالآل .

إن هذا الأمل الجديد «بأن الجهاد حرام على المسلم»

دليل على اليأس؛ فمن ذا الذي أصابه اليأس؟

المستشار الثاني

هل غوغاء الحكم الجمهوري خير أم شر؟

أنت لا تدري شيئاً عن الفتن الجديدة في العالم!

(١) بعد أن يعرض إيليس على مستشاريه خصائص نظامه يدعى بكل فخر أنه لا توجد قوة في الدنيا

تستطيع أن تقضي على هذا النظام وهو المقصود بالنخل القديم .

(٢) أي التصوف غير الإسلامي .

(٣) هو «القوالي» وهو نوع شبيه بالموال .

المستشار الأول

نعم ، ولكن بصيرتي تخبرني :
 لو يبق الحكم الاستبدادي كالستار فلا خطر ! .
 فحين صار الإنسان مُدبراً ومفكراً إلى حد ما
 ألبسنا الحكم الاستبدادي لباس الجمهورية .
 شئون الحكم شيء آخر
 لا ينحصر في وجود الأمير والسلطنة .
 وسواء يكون مجلس الأمة - أو يكون بلاط برويز
 فالحقيقة أن السلطان هو من تكون عيونه على زرع الغير .
 أما رأيت أن النظام الجمهوري الغربي
 له وجهه مضيء لكنه من الداخل أحلك من جنكيز^(١) .

المستشار الثالث

روح السلطنة بادية فأى اضطراب بعد ذلك^(٢)
 لكن ما هو الرد على شقاوة ذلك اليهودي^(٣) .
 هو الكليم بغير تجلي^(٤) ، هو المسيح بغير صليب^(٥)
 «ليس رسولا ولكن في حضنه كتاب» .
 ماذا أقول؟ كيف يكون نظر هذا الكافر الذي يخترق الستائر؟

(١) مثال لظلم جنكيز وقهره ثم التعبير عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .

(٢) أي إذا كانت روح الاستبداد باقية في النظام الجمهوري فلا خطر .

(٣) هو كارل ماركس .

(٤) أي أنه منكر لله .

(٥) وهو مثل المسيح كان يشر الفقراء ويتعاطف معهم والفرق كما يقول النصارى أن اليهود صلبوا

المسيح بينما كارل ماركس نجا من الصلب .

هذا النظر صار كيوم حساب لأقوام الشرق والغرب .
لا يوجد للطبيعة فساد أعظم من هذا
فقد حطّم العبيد أطنبة خيام السادة ^(١) .

المستشار الرابع

انظر رد هذه الشقاوة في إيوانات روما الكبرى ^(٢)
فقد أعدنا على آل قيصر حلم قيصر مرة ثانية ^(٣) .

من الذي يتلوّى بأمواج بحر الروم
ويرتفع أحيانا كالصنوبر - وأحيانا يبكي كالرباب؟

المستشار الثالث

الرجل الذي فضح سياسة الإفرنج ^(٤) هكذا
لا اعترف أبداً بدرأيته للأمر .

المستشار الخامس

(يخاطب إبليس)

يا من أمور العالم قائمة بأنفاسك المحرقة
أنت الذي أظهرت كلّ مختف حين شئت .
صار الماء والطين ^(٥) من حرارتك عالماً مليئاً بالحرقه والغناء

(١) أي حرموا سادتهم من الحكم وحلّوا محلهم وهو يشير إلى ثوره ١٩١٧م في روسيا .

(٢) أي الإمبراطورية الرومانية، ويشير إلى أعمال موسيليني مؤسس الحركة الفاشية الدامية .

(٣) أي إلى أوروبا .

(٤) أي فضح سياسة الإفرنج فبدلاً من أن يكشف عن أضرار الشيوعية عمل على تطويرها فمال الناس

إلى الاشتراكية .

(٥) أي الدنيا .

وصار أبله الجنة^(١) بتعليمك عالماً بالأمر .
هو ليس أعرف منك بسر الفطرة
ذلك الذي اشتهر بين العباد البسطاء باسم الرب .
أولئك الذين لم يكن لهم عمل سوى التقديس والتسبيح والطواف^(٢)
هم بسبب غيرتك سيقون أذلاء خجلين إلى الأبد .
ومع أن سحرة الإفرنج جميعاً من مرديك
لكن لا أعتد على فراستهم .
ذلك اليهودي^(٣) المثير للفتن الذي هو ظهور لروح مزك
كاد كل قباء أن يكون فتناً بسبب جنونه .
غراب الصحراء صار ندا للشاهين والعقاب
كيف يتغير بسرعة طبع الزمان^(٤) .
إن ما اعتقدناه قبضة غبار بسبب الجهل
انتشر فاغبرت سعة الأفلاك .
إن هيبة فتنة الغد قد وصلت إلى درجة أن
الجبال والسهول والهضاب والأنهار كلها ترتعد .
وهذا العالم الذي لم يكن يُدار إلا بسيطرتك
أوشك - يا مولاي - أن يضطرب فيصبح أعلاه سفلاه .

(١) أبله الجنة هو «آدم»، وأخذ إقبال التعبير من الحديث الشريف (أهل الجنة بله)

(٢) أي الملائكة .

(٣) كارل ماركس الذي يشبه في حركته حركة مزدك الذي ظهر في إيران في القرن الخامس الميلادي

بينما ظهر كارك ماركس في القرن التاسع عشر .

(٤) الغراب لم يكن أبداً ندا للعقاب، والمعروف أنه من أخس الطيور، وهو رمز الجاهل الخبيث النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

عالم اللون والرائحة^(١) هذا^(٢) في قبضتي المتصرفة
سواء هذه الأرض، أو هذه السماء، أو كلها جميعا.

سوف يرى أهل الشرق والغرب بأعينهم
حين أثير دماء أقوام أوربا.

ما قيمة أئمة السياسة، وما قيمة قساوسة الكنيسة
إن صبيحة واحدة مني تذهلهم وتذهب بعقولهم.

الجاهل الذي يعتبر هذا العمل بيتا من الزجاج
عليه أن يحاول أن يحطم كؤوس هذه المدينة وأباريقها
الجيوب التي مزقتها يد الفطرة

أصبح من المحال رتقها بإبرة منطوق مزدك^(٣).

كيف يستطيع هؤلاء المشردون الاشتراكيون
أن يخيفوا، المخبولون، منغوشو الشعر، مضطربو الأيام.
إن ما بين جنباتي من خطر ليس إلا من هذه الأمة^(٤)
ففي رمادها حتى الآن شرارة الأمل.

فحتى الآن يوجد في هذه الأمة قليل من الناس
يتوضأون بدموع الأسحار.

إن من كشف له باطن الأيام يعرف

(١) أي: العالم المحسوس.

(٢) أصلها في النص «هو».

(٣) جاء بعد زردشت وماني وادعى النبوة وهو أول من نادى بالاشتراكية الشيوعية، وقد قتله أنوشروان سنة ٥٢٨ م، ثم قام سنة ٥٣١ م بالقضاء على الفرق المزدكية نهائيا.

(٤) الأمة الإسلامية.

أن فتنة الغد ليست مزدكية لكنها الإسلام



أعرف أن هذه الأمة لا تحمل القرآن

وأن الرأسمالية هي دين العبد المؤمن .

أعرف أنه في ظلمة دجى ليل الشروق

فإن أكمام شيوخ الحرم خالية من اليد البيضاء^(١) .

لكن الخوف من مطالب العصر الحاضر

الخوف أن يظهر شرع النبي

الحذر ، الحذر مائة مرة من نظام الرسول

فهو حافظ لكرامة المرأة ، ومختبر المرء وباعته من ثباته .

هذا النظام كرسالة الموت لكل أنواع العبودية

ليس هناك فرق بين ملك الصين ، أو فارس أو مسكين ذي متربة .

إنه يظهر الثروة ويخليها من الدنس

ويجعل الأغنياء أمناء على المال والثروة^(٢) .

لا يوجد في الفكر والعمل ثورة أعظم من

«هذه الأرض لله وليست للملوك»^(٣) .

يا حبذا لو يبقى هذا النظام مختفياً عن عين العالم

فهذا مغتنم أن يبقى المؤمن محروماً من اليقين .

وهذا أحسن أن يبقى في شرك الإلهيات

(١) إشارة إلى قصة موسى انظر (سورة النحل - القصص) .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في بال جبريل قطعة بعنوان «الأرض لله» ، في الفصل الثاني ، والشاعر هنا يقول على لسان

إبليس إنه يجب أن يبقى هذا الإنسان تائها في مثل هذه التساؤلات التي ذكرها في الآيات التالية .

ويبقى منهم كما في تأويلات كتاب الله .



الإنسان الذي حطمت تهليلاته سحر الجهات الست^(١)

كيف لا يضيء الليل الحالك لهذا الورع التقي .

أما ابن مريم؟ أم هو حي باق؟ هذه صفات ذات الحق

هل صفات الذات منفصلة عنه أم عين الذات؟

هل يقصدون بالقادم المسيح بن مريم أم هو المجدد

الذي تكمن فيه صفات ابن مريم؟

هل ألفاظ كتاب الله قديمة أم حادثة؟

وفي أي عقيدة منها تكمن نجاة الأمة المرحومة؟

ألا يكفي المسلمون في هذه الأيام

هذه الأصنام^(٢) المنحوتة من الإلهيات؟

اجعلوه غريباً عن عالم العمل لكي

تنهزم جميع قطعه الشطرنجية على بساط الحياة^(٣)

فهذا خير أن يبقي المؤمن عبداً حتى يوم القيامة

أو يترك هذه الدنيا الفانية للآخرين

الشعر والتصوف اللذان يغطيان عن عيونه منظر الحياة

أحسن بالنسبة له

إني أخاف مع كل نفس من يقظة هذه الأمة

(١) يقصد الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية والفوقانية والتحتانية، ويمكن أن يكون المقصد منها أن

تكون رمزا للحواس الخمس والحس المشترك وأسير الحواس عند الصوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومنات) وهو هنا يشير إلى الشرك بأنواعه .

(٣) أي أبعده عن الجهاد وخلّوه من روح الجهاد .

فحقيقة دينها هي احتساب الكائنات
اسكروه واجعلوه ينتشي بالذكر والتفكر في الأسحار
وانضجوا فيه طبع الخانقاهاث^(١).

نصيحة بلوتش عجوز لابنه^(٢)

لينعشك هواء صحرائك
فليست دهلي ولا بخارا بأروع من هذه الصحراء.
إنك تستطيع أن تسير كالسيل الجارف حينما تريد
فهذا وادينا وهذه صحراؤنا.
الاعتزاز بالنفس له قدر عظيم في دنيا الكد والجهد
فهو يلبس الدرويش تاج دارا^(٣).

عليك أن تنال هذا الفن الخفي من كامل، إذ أنهم يقولون:
إنهم يستطيعون أن يجعلوا من الزجاج صحرا جلمودا.

(١) تعد هذه المنظومة من آخر ما نظم إقبال وهي تحمل خلاصة أفكاره لثلاثين سنة، وقد أوضح في هذا الشعر التمثيلي ما هو الإسلام وذلك في عبارات مختصرة مقتضبة وأوضح أن الإسلام ضد الفكر المادي بكل أنواعه، وأن إبليس يجتهد كثيراً ويعمل على خداع الإنسان المسلم بشتى الطرق وعلى المسلم أن يحرر نفسه من كل استبداد، وأن يكون حراً لا يخضع لغير الله ولا يكون عبداً لأحد سواء كما أشار إقبال إلى أن النظام الإبليسي هو الذي يهدف إلى أن يصير المسلم ذليلاً خاضعاً للغير ولهذا يجب أن يتعد المسلم عن التصوف غير الإسلامي وعن علم الكلام (الفلسفة) وكلاهما خطر على المسلم ولا فرق بينهما في خطورتها فهما يقضيان على قوة العمل عند المسلم ومن يقول بأن الجهاد بالسيف حرام هو تلميذ إبليس، وأن النظام الجمهوري الغربي هو شكل مخادع للنظام الاستبدادي، وهكذا فالنظام الإسلامي هو النظام الذي يصلح للبشرية جمعاء وفيه صلاحها.

(٢) في الأصل بلوج وهو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوچستان في باكستان الغربية على الحدود بين إيران والسند وهي بلاد صحراوية وهم الذين كتب عنهم أول فاتح إسلامي دخل في بلاد الهند، فقال: إنهم أشداء أقوياء.

(٣) ملك من ملوك إيران.

إن تقدير الأمم بيد الأفراد
ومع كل فرد نجم تقدير الأمة .
هذا الغواص الذي لا يترك صحبة الساحل
ظل محروما من ثروة البحر .
لو ضاع الدين من يد الأمة الحرة
فهذه التجارة خسارة للمسلم .
إن العالم يواجه معركة الروح والجسد مرة ثانية
فإن المدنية قد هيّجت وحوشها .
الإيمان يعتمد على ثبات المسلم
والكفر يعتمد على آلات أوروبا .
ما هو تقدير الأمم ، لا أحد يستطيع أن يقول
لكن لو توجد فراسة المؤمن ، فالإشارة كافية .
تعلم الإخلاص في العمل من السلف الصالح
أي عجب لو يعطف الملوك على الشحاذين^(١) .

(١) الملوك أي علماء الدين ويقصد الشاعر هنا أن المسلمين لو اتبعوا نهج السلف الصالح فسوف يشملهم بالضرورة الفضل الإلهي .

الصورة والمصور

الصورة

قالت الصورة للمصور :

سبب ظهوري من إيداعك وفنك^(١)

كم من الظلم أن تكون

محجوباً عن نظري .

المصور

صعب على الإنسان البصير أن تكون له عين تنظر

ماذا حل بالشرر من رؤية العالم .

فلتقتنعي أيتها الجاهلة بهذا الخبر - إن النظر ليس إلا

الغم والألم والحمية والنشاط .

الصورة

الخبر عجز العقل والفكر

النظر حياة القلب الخالدة

ليس جد وجهد هذا الزمان

لائقاً بحديث «لن تراني» .

(١) يقصد بالصورة الجسد ويقابلها المعنى أي الفكر أي الشكل الظاهري والمعنى هو المضمون الباطني،

وهذا شعر تمثيلي له مغزاه وعملوه بالحقائق والمعارف والصورة أي الإنسان والمصور أي خالقه رب

العزة .

المصور

أنت من روائع فني
ولذلك فلا تيأسي من مبدعك .
ليس هناك شرط لرؤيتي
سوى ألا تختفي أنت عن نظرك^(١) .

عالم البرزخ^(٢)

الميت (يخاطب قبره)

ما هذا؟ وأي يوم تكون القيامة غده؟

يا بيتي القديم : ما القيامة؟

القبر

ألا تعرف بعد ، يا ميت المائة عام؟

بأن القيامة هي المطلب الخفي لكل موت .

(١) يوضح أن الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بد من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً وعلى الإنسان أن يتحرر من سيطرة الحواس قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق، وعلى الإنسان أن يربي ذاته تربية تسمح به، وأن يعمل طبقاً لما جاء في القرآن الكريم: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ . (١٨ / ١١٠) .

(٢) هذا أيضاً نموذج من الشعر التمثيلي ويقصد أن من قبل الذلة والخضوع فأمات ذاته لا يمكن أن يحيا من جديد لأن العبودية تقضي على صلاحية الحياة بعد الموت . والعبودية لعنة تجعل الأرض حتى تنفر من هذا الشخص الذليل الخاضع لغير الله .

الميت

أنا لست أسيرا في شرك ذلك الموت
الذي يُخفي بداخله القيامة
فمع أنني مت منذ مائة سنة
إلا أنني لست متضايقا من هذا البيت الأرضي المظلم .
أه لو تلبس الروح هذا الجسم الهزيل مرة أخرى
فإني لست راغبا في شراء هذه القيامة .

نداء من الغيب

ليس الموت من نصيب الثعبان والعقرب أو الغزال والوحش
فإن الموت الأبدي ليس إلا للأم المستعبدة .
صوت إسرافيل^(١) لا يستطيع أن يبعث أولئك
الذين كانت أجسادهم خالية من الروح في دنياهم .
ولو أن مستقر كل ذي روح هو حضن اللحد
إلا أن القيام بعد الموت ليس إلا شأن الأحرار .

القبـر

(يخاطب ميته)

أه أيها الظالم ، أكنت عبدا محكوما في الدنيا؟
لم ترابي ملتهب هكذا؟ .
ازدادت ظلماتي بجسدك ظلمة
وتمزقت ستارة ناموس الأرض بجسدك .

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة فيبعث الموتى .

الحذر من جسد الميت الذي عاش عبداً محكوماً
يا إسرافيل، يارب الكائنات، النجدة أيتها الروح الطاهرة.

نداء من الغيب

مع أن النظام الكوني مضطرب بسبب القيامة
إلا أن هذا الاضطراب يكشف أسرار الوجود.
بالزلازل تطير الجبال كالسحاب
وتظهر في الوديان عيون جديدة.
لابد لكل تعمير جديد من تخريب كامل
ففي هذا حل لكل مشكلات الحياة.

الأرض^(١)

آه من هذا الموت الدائم، آه من معركة الحياة
هل ينتهي صراع الكائنات إلى الأبد؟
لا يجد العقل النجاة من أصنامة
العارف، العالم، العامة، جميعهم صاروا عبداً لآلات ومناة.
كم صار خاضعاً ذليلاً هذا الآدمي المتمثل لصفات الله
فبقاء هذا العالم ثقيل على هذا القلب والنظر.
فلماذا لا يكون ليل هذا الإنسان العظيم سحرًا؟

(١) يبلغ إقبال رسالته إلى عباد الله على لسان الأرض بأن يحاولوا القضاء على هذا النظام الفاسد وأن يقيموا على وجه الأرض الحكومة الإلهية حيث لا يكون هناك إنسان خاضع لإنسان آخر بل يخضع الجميع لمخلوقهم.

الملك المعزول^(١)

فلنبارك هذا الملك الطيب
الذي فضحت تضحيته أسرار الملوكية .
الملك في المعبد البريطاني ليس إلا صنما من التراب
يمكن أن يحطمه العباد حينما يشاءون .
هذا المسك ممزوج بالأفيون لنا نحن العبيد
أيها الساحر الإنجليزي إنحت لنا سيدياً آخر ! .

مناجاة ساكني جهنم^(٢)

العباد في هذا الدير القديم ذو احتياج
يذكرون الله حين يتألمون من الأصنام .
ولا تفيدهم الصلاة ، ولا تفيدهم عبادة الأصنام^(٣)
فحفظ هؤلاء المساكين ليس إلا التوايح والعويل .
مع أن العمارات تطاول الفلك رفعة
لكن الحقيقة أن كل مدينة كخرابة عامرة .

(١) أنشد إقبال هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند، وأعتقد أنه يشير إلى إدوارد الثامن الذي تخلى عن العرش برضائه في ديسمبر ١٩٣٦م وذلك حين رغب في الزواج من مطلقة أمريكية تدعى السيدة/ سبسن، لكن كبير الأساقفة مع رئيس الوزراء، والجميع عارضوا هذا الزواج فتنازل الملك عن العرش فتأثر إقبال بهذه الواقعة ونظم هذه الأبيات .

(٢) هذا نمط من الشعر التمثيلي على لسان أحد ساكني جهنم يود أن يقول أن سلوك أهل أوربا قد جعل الحياة مرة بل هي أسوأ من جهنم .

(٣) لأنهم تركوا عبادتك يا إلهي، وجعلوا من رغباتهم أو حكاهم آلهة لهم لهذا لم تعد لعبادة الهنادكة أي نفع، ولم تعد لصلاة المسلمين فائدة لهم وسلاسل العبودية تضغط عليهم يوماً بعد يوم فلا يملكون سوى التوايح والعويل .

انظر إلى تقلبات حظ الفأس
 فيرويز مُرتَوٍ، وفرهاد ظمآن كبده^(١).
 هذا العلم، هذه الحكمة، هذه السياسة، هذه التجارة
 جميعها أشياء من إبداع الملوكية.
 شكراً لك يا إلهي، فإن هذه القطعة من الأرض الملتهبة^(٢).
 حرة من عبودية التاجر الأوربي.

مسعود المرحوم^(٣)

هذه الشمس، هذا القمر، هذه النجوم، وهذه السماء الزرقاء
 من يدري أهذا عالم الوجود أم الفناء؟
 التفكير في الرحلة والهدف ما هو إلا خرافة
 فالحياة كلها رحيل دون هدف.
 وأسفاه لم يبق في يد الزمان تذكارات
 كمالات أحمد ومحمود^(٤).
 تأسف العلم والفن لموته المفاجيء
 فقد كان متاعاً غالياً للقافلة.

(١) انظر حظ الفأس كيف كان حين استعملها برويز وكيف كان حين استعملها فرهاد يا إلهي ماذا
 أحكي لك عن سوء حظ الزارع والعامل فإن طبقة الحكام (برويز) لا تزال تمتص دماء الأجراء (فرهاد)
 منذ قديم الأزمان.

(٢) جهنم.

(٣) هو صديق إقبال وهو الدكتور سيد رأس مسعود حفيد السير سيد أحمد خان، وكان زميلاً لإقبال
 في الدراسة، وكان قد استقال كمدير لجامعة علي كره فعينه نواب بهوبال وزيراً للتعليم. وأشارت إلى
 هذه القصيدة في الفصول السابقة، وقد تأثر إقبال لسوفاته كثيراً وكتب إلى زوجه العبارة التالية: «لماذا
 ادعوك إلى الصبر بينما قلبي نفسه يشكو من هذا النصيب».

(٤) أحمد هو سر سيد أحمد خان ومحمود هو ابنه ووالد مسعود. وكان مسعود هو ذكرى كمالانهم.

تُبْكيني جفوة أهل الدنيا

فإنهم يعتقدون أن بكاء طيور السحر نعمات .

لا تقل أن علاج حزن الصديق يمكن بالصبر

لا تقل أن حل لغز الموت كامن في الصبر .

«القلب الذي يعشق ويصبر ليس سوى حجر

فبين العشق والصبر ألف فرسخ»^(١) .

لا تسألني عن العمر الذي يمر بسرعة

فلا أحد يدري ما هذا التغيير والجازبية .

كل من خُلِق من التراب سيواري فيه

أهذه هي الغيبة الصغرى أم هذا هو الفناء؟ ماذا؟ .

وهب لغبار الطريق ذوق الجمال

والعقل لم يستطع أن يشكف المعنى الخفي .

أليس القلب والنظر من إعجاز هذا الماء والطين^(٢)؟ وإن لم يكن

فما نهاية حضرة الإنسان إذا؟ .

إن «لا إله إلا الله» هي روح الدنيا الخالدة

فما معنى المسيح والمسمار والصليب؟ .

ممن نطلب القصاص لدم الآمال

من المذنب؟ وما هي القدية؟^(٣) .

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .

(٢) الإنسان نفسه .

(٣) يمكن أن يعتبر هذا القسم من القصيدة وحدة واحدة يعبر فيها الشاعر عن مدى ما أصيب به من

يأس نتيجة للحزن الشديد على وفاة صديقه بينما الأشعار التالية التي تمثل القسم الثاني تعبر عن

تمالك الشاعر لنفسه فيعود إلى طبيعته، ويملؤه الأمل مرة أخرى، وهذا القسم يتضمن ثمانية أبيات

لا تحزن فنحن مكبلون بقيد الدنيا
والقلب الذي نملك يحطمه الطلاس^(١) .
لو أن الذات حية خالدة ، فالموت مقام في الحياة
لأن العشق يختبر ثباتها بالموت^(٢) .
لو تكن الذات حية خالدة ، فبحرك لا شاطيء له
وموج النيل والفرات في شوق لأن يندمج فيك .
لو تكن الذات ميتة فهي كأعواد القش أمام النسيم
فالذات الخالدة سلطان كل الموجودات .
لو أن البصيرة حرمت من تجلُّ واحد
فإنها تحتاج إلى ماتتي تجلِّ لتعويض ما فات .
مقام العبد المؤمن وراء الفلك والسموات
واللات ومناة منتشرة بين الأرض ونجم الثريا .
مقامه الأبدى هو حرم الذات
وليس مكانه القبر المظلم ولا مكان تجلي الصفات .
أولئك الذين ملكوا معرفة الذات خرجوا من هذه الدنيا
حطموا طلسم الشمس والفلك والنجوم^(٣) .

من الشعر .

(١) هذا البيت بالفارسية :

غمين مشوکه به بند جهان گرفتارم * طلسمها بشکند آن ولی که مادارم

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ٢/٦٧ .

(٣) أصله فارسي .

صوت من الغيب

يأتي صوت من العرش الأعلى ذات صباح، يهتف:

«كيف ضاع جوهر إدراكك»؟ .

كيف أصبح مشروط التحقيق لديك كالأل؟

لماذا لا تستطيع أن تمزق أكباد النجوم! .

لقد كنت جديراً بخلافة الظاهر والباطن

هل تكون الشعلة أسيرة للأعشاب الجافة^(١)؟ .

لماذا لا تُخضع لك الشمس والقمر؟

لماذا لا ترتجف الأفلاك من أنظارك؟ .

مع أن الدم يجري في عروقك

لكنك لا تملك حمية الأفكار، ولا الفكر الجريء .

العين التي تخلو من النظر الطاهر

تكون مضيئة لكنها لا ترى العالم .

لم يبق في أحضانك صفاء مرآة ضميرك

يا قتيل السلطنة والملا والتمشيخ .

(١) حرفياً: التبن والنشارة، ويقول الشاعر مخاطباً الإنسان على لسان الكائن الغيبي، لقد أرسلناك

شعلة في هذه الدنيا كي تحرق وتقضي على هذا العشب الجاف الغث، ولكن للأسف صارت الشعلة

خاضعة لأوروبا وأمريكا فلم تعد قادرة على القضاء على غث الإفرنج ومساوئهم .

رباعيات

﴿١﴾

لا أدري ما هي ثمرة غصن أملى
 فأني دراية لي بتقديرك
 برعم الزهرة يحتاج اليوم إلى التفتح
 فما فائدة انتظار نسيم صبح الغد^(١) !

حرره من عمل الدنيا
 حتى يتحرر من امتحان كل نفس
 صار تفكير الشيطان بسبب الكبر تفكيراً قديماً
 فمن أين يأتي بإثم جديد؟^(٢) .

غير وبدل عالم الماء والسحر
 أقلب هذه الدنيا الجافة والطريرة
 واحذر من السجود الخالي من أي ذوق^(٣) .

﴿٢﴾

أنا في حالة الفقر محسود الغنى
 لأن فقري ذو غيرة

(١) لا يجب على الإنسان أن يضع رأسه بين كفيه منتظراً التأييد الإلهي بل عليه أن يسعى كما أمره الله حتى ينال هذا التأييد.

(٢) المفروض أن تكون أئامه قديمة قدم تفكيره، وهنا استفهام استنكاري.

(٣) لأن مثل هذا السجود لا يأتي بثورة على الباطل.

الحذر من ذلك الفقر والتصوف
الذي علّم المسلمين الذل والخضوع.

الغوث الغوث من ضيق ذيل العقل !!
الغوث الغوث من زيادة التجلي !!
إن النظر يفضل التطلع إلى غير الله
الغوث الغوث من كفر النظر^(١).

قال إقبال لشيخ الحرم :
من الذي نام تحت محراب المسجد^(٢) ؟
أحابت جدران المسجد :
هو الذي تاه في بيت أو ثان الإفرنج^(٣).

صارت الهيجانات القديمة رغبة باردة سقيمة
دماء المسلم أصبحت باردة
فلتبارك للأصنام ضلالي
إذ أن نار «الله هو» أصبحت اليوم باردة^(٤).

(١) أي الشرك.

(٢) إقبال هو المسلم الذي درس علوم الغرب، وشيخ الحرم هو المسلم الذي درس العلوم وهو لا يدري

عن أحوال العصر الحاضر ومتطلباتها ونام هنا معناها توقف عن تبليغ الإسلام ونشره.

(٣) يقصد بها الأفكار غير الإسلامية.

(٤) يقصد عاطفة الجهاد في سبيل الله.

حديث العبد المؤمن يتعلق بالقلب
الكبد مليء بالدم، النفس مضيئة، النظرة حادة
كيف تيسر رؤية المؤمن الذي يضيء المحفل^(١)
فهو لا يختلط بنا إلا قليلاً .

صفاء ضمير الصبح المنير
يعرف التمييز بين الشوك والزهر
حماية الزهر غير ممكنة
لو أن في الشوكة طبع الحرير^(٢) .

لا تذكر الفراق واللقاء
لأن أصل الحياة نفسه هو الظهور
إن انفصال اللؤلؤ من قلب البحر
ليس فيه أي ضرر للبحر ولا للؤلؤ^(٣) .

لماذا لا يجتاح الطوفان بحرك؟
لماذا لا تكون ذاتك مسلمة؟
عبث تلك الشكوى من تقدير الله

(١) يقصد فراسة المؤمن .

(٢) يستدل إقبال هنا على أن خالق الكون جعل للفترة قوانينها التي تحفظها .

(٣) فلو بقيت اللؤلؤة في صدفتها لما ظهر حسناتها في الدنيا ولهذا فالإنفصال لا يضر البحر ولا يضرها
أيضاً .

لماذا لا تكون أنت قدر الله؟^(١) .

لو ينظر العقل بعين القلب
يرى العالم مضاء بنور «لا إله إلا الله»^(٢)
ولو ينظر إلى نور الشمس والقمر
لا يحسبه إلا دوران الليل والنهار^(٣)

أحياناً ترتفع من البحر كالموج
وأحياناً تنزل إلى صدر البحر
وأحياناً تمر على ساحل البحر
فأظهر لنا سر مقام ذاتك واضحاً^(٤) .

(١) يقول إقبال لا شك أن الإنسان مجبر ولكنه لو خضع لأوامر الله ومشيتة الله وجعل من ذاته ذاتية مسلمة ولو أطاع سنة رسول الله، فإن الجبر يتحول إلى اختيار، وقدرة الله هنا أو التقدير الإلهي هنا إشارة إلى قوله تعالى: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» ٤٩/٥٤، وقوله تعالى: «خلق كل شيء فقدره تقديراً» والله تبارك وتعالى خلق كل شيء «خلق فقدره» ١٩/٨٠ .

(٢) استعمار الشاعر نور لا إله إلا الله من الآية الكريمة: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . . الآية» ٣٥/٢٤ .

(٣) أي: العالم .

(٤) يوضح الشاعر هنا مكانة الذات للمسلمين فهي تظهر بأشكال مختلفة، وتتوحد أشكال القوة فيها .

مذكرات ملا زاده ضيغم اللولابي^(١) الكشميري

ماء عيونك كالزئبق الرجراج

طيور السحر قلقة في أجوائك

يا وادي اللولاب^(٢)

لو لم يكن خطيب المنبر والمحراب، ذا همة ونشاط

فالدين للعبد المؤمن إما الموت، وإما الحلم

يا وادي اللولاب .

النعلمات المحرقة للقلب إنما تنبع من الآلة الموسيقية

فلو كانت أسلاكها رخوة فلا فائدة ترجي من مضراها

يا وادي اللولاب .

بصيرة المؤمن خالية من نور الفراسة^(٣)

والخمر الصافية في حانة الصوفية خالية من الحرقه

يا وادي اللولاب .

إن الفقير الذي تستيقظ القلوب من أهته السحرية

لا يوجد في هذه الأمة منذ زمان

يا وادي اللولاب .

(١) ضيغم: هو الأسود، لولاب: اسم وادي في كشمير. يقع بين سرينجر وباره موله، ظهر فيه كثير من الشيوخ والمصلحين، وملا زاده ضيغم اسم افتراضي. والواقع أن إقبالاً كتب هذا الشعر إلى أهل كشمير يريد أن يبث فيهم ويظهر فيهم صفات الأسود.

(٢) يخاطب الشاعر في الظاهر وادي لولاب لكن خطابه في الحقيقة موجه لاهل كشمير.

(٣) تلميح إلى الحديث: «اتقوا من فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله».

﴿٢﴾

الموت الصعب اسمه العبودية
 ألا ليت العبد يفهم مكر وخذاع السادة .
 انظر تنوع الأحكام في شرع النظام الاستبدادي
 غوغاء الصور حلال ، لذة الحشر حرام .
 يا من ذُبلت^(١) روحك من العبودية
 أتبحث عن مقام الذات في الصدر الخالي من الحرقه؟! .

﴿٣﴾

كشمير التي سماها أهل النظر بالأمس إيران الصغير
 هي اليوم بلد محكوم وفقير .
 حين يخاف رجل الحق السلطان والأمير
 تخرج آهة محرقة من صدر الأفلاك .
 منزل الحزن لفلاح عجوز على سفح الجبل
 يحكي لنا حكاية قسوة الأيام .
 وأسفاه على هؤلاء القوم النجباء ذي الأيدي النشيطة والدماغ الخلاق^(٢)
 أيها الإله يا من تمهل الناس^(٣) متى يوم الجزاء؟

﴿٤﴾

حين تثور دماء الشعوب المغلوبة على أمرها

(١) استخدم اللفظ العربي «مضمحل» مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة «ذبلت» .

(٢) في الأصل : (تر دماغ) أي : الدماغ الندي .

(٣) أصله «خدا دير گي» أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهل شديد ، وإقبال

هنا يعبر عن حزنه الشديد على ما وصل إليه حال الكشميريين .

يضطرب هذا العالم ذو الأطراف الأربعة، واللون والرائحة^(١).
ضمير الإنسان يتطهر من الظن والتخمين
ويجعل مصباح الأمل يضيء كل طريق.
ذلك الفتق القديم الذي لم يستطع العقل رتقه
يُخيطه العشق دون حاجة إلى إبرة أو خيط الرفاء.
صنم الحكم له قلب حجري ووجه من زجاج
وهو يصبح في النهاية قطعاً مبعثرة من الدق المستمر.



عظمة الشاهين وشوكته توجد في طيران الدراج
والصياد في حيرة: شاهين هذا أم دراج.
تلاطمت أفكار كل قوم

فاليوم مظهر لغد القيامة في الشرق.

الميت الذي كان في حاجة إلى صور إسرافيل
اضطر للقيام ثانية استجابة لمطالب الفطرة!^(٢)



حتى السكيريون^(٣) أيضاً يعرفون كمالات الصوفية
مع أن كراماتهم غير معروفة، وغير مشهورة.

(١) في الأصل: جهان چار سو، عالم رنك وبو، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه، ويشير إلى أن الكفاح من أجل الحرية إنما هو من الفطرة فאלله خلق الإنسان حتى يتحرر من عبودية الإنسان ولا يخضع لغير الله.

(٢) يشير إقبال هنا إلى الحركة التي ظهرت تنادي بالحرية وقد بدأ مسلمو كشمير هذه الحركة سنة ١٩٣٠م، وأثارت عجب حكام كشمير الذين عبر عنهم الشاعر باسم (الصيد).

(٣) أصله: «رند» وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسك بها.

حين يكون السالك حرّاً فهذه هي مقاماته
 عزة النفس وثباتها والصوت الحسن القائل : « لا إله إلا الله » .
 حين يكون السالك محكوماً فالعبودية هي كل شيء له
 فهو نفسه ميت وهو المرید وهو الموت المفاجيء نفسه .



اخرج من الخانقاهات ، واسلك طريق شبير
 فليس فقر الخانقاهات إلا الهم والغم .
 من دينك وأدبك تهبّ رائحة الرهبان
 إن هذا عالم الشيخوخة للأم التي حان موتها ^(١) .
 في عيون شياطين الملكية يوجد السحر
 الذي يخلق في قلب الصياد طبع المصيد .
 كيف مضوا غير مكترئين بأهاتي السحرية
 ومن الذي ذهب بالنشوة والنشاط من العيون الكشميرية السوداء ^(٢) ؟



إذا اعتقدت أن هذا القلب قطرة من دم فهو كذلك
 فقلب الإنسان إنما هو - فقط - جذبة عالية .
 لا يعجبه دوران القمر والنجوم
 فهو الذي يخطط سحره ومساءه .
 لا يمكن أن يبرد ذلك التراب الأصيل

- (١) أي إنك فهمت الإسلام خطأ وظننت أن الإسلام يعني ترك الدنيا، فكتبت عن هذا للناس، وأنا أقول لك إن هذا يعني نهاية الأمة إذا ما ظهر في عقول أفرادها أن الإسلام يعني ترك الدنيا .
 (٢) تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيرا ما تغني بها الشعراء، لكن إقبالا يقصد أنه حزين لأن أهل كشمير لم يفهموا رسالته بل لم يحاولوا فهم رسالته .

الذي تكمن في ضميره نار جنار^(١).



حين انفتحت في الروضة مكتبة الورود

فإن العلم الكتابي لم ينفع الملا^(٢).

كان هواء الربيع محطماً للجديّة

فبدأ شيخ «اندراب»^(٣) ينشد الغزل.

قالت زهرة شقائق النعمان ذات القيمص الأحمر:

إنني مظهرة لأسرار الروح^(٤).

من الذي يعتقد أن النوم في القبر هو الموت

إن سر تعمير كل شيء يكمن في تخريبه؟^(٥)

ليست الحياة سلسلة الأيام والليالي

ليست الحياة نشوة وغفوة.

الحياة والاحتراق في نارك

فما أسعد اللحظات حينما تستعيد هذه الحكمة:

«لو تأخذ شرارة من نار القلب

(١) جنار: شجرة ذات أوراق كثيرة تشبه كف اليد وتكون خضراء في الصيف بينما تحمر جدا في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصة في الأصيل، وهذا تعبير جميل لوجود هذه الأشجار بكثرة في كشمير، وفي هذا الشجر زيت يجعله سريع الاشتعال أيضاً.

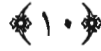
(٢) لم يستطع الملا الاستفادة من الكتب الموجودة في مكتبة الروض ذلك لأن الملا ليس فيه صلاحية لمطالعة الكائنات أو مشاهدة الفطرة ولا يستطيع أن يوجد بداخله المعرفة الإلهية.

(٣) اندراب: اسم منطقة قريبة من بلخ كان يعيش فيها عدد كبير من الأشراف الذين يتميزون بالعلم والمعرفة والزهد والتقوى فهجروا المنطقة وجاءوا إلى وادي لولاب.

(٤) لأنها مفتحة من الوسط.

(٥) إشارة إلى خطأ من يعتقد أنه لا توجد حياة بعد الموت.

فإنك تستطيع أن تجعلها شمساً تحت الفلك» .



شريان الحر صلب كشریان الحجر

شريان المحكوم رقيق كشریان الكرم^(١) .

قلب المحكوم ميت سقيم يائس

قلب الحرُّ حيٌّ مفعم بالحرارة يبعث الطرب .

ثروة الحر قلب مضيء ونفس حامية

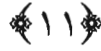
ثروة المحكوم ليست إلا عيناً دامعة .

المحكوم غريب عن الإخلاص والبروءة .

مع أنه بارع في البراهين المنطقية .

ليس من الممكن أن يكون المحكوم نداءً للحر

فهو عبد للأفلاك والحر سيدها .



جميع العارفين والعامّة غرباء عن الذات

فليقل أحد إن استطاع: أهذا مسجد أم خمارة؟^(٢) .

لقد أخفى هذا السرّ عنا «مير واعظ»^(٣)

إن الفراشة التي تدور حول مصباح الحرم هي الحرم^(٤) .

(١) هذه موازنة بين الحر والمستعبد المحكوم .

(٢) المقصود من المسجد إطاعة الله . والخمارة: غير الله، وقد يعني المسجد المكان الذي يعرف فيه الإنسان نفسه، والخمارة: المكان الذي يصبح فيه الإنسان غريباً عن نفسه .

(٣) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري مات في باكستان حوالي عام ١٩٦٦م .

(٤) المقصود بالحرم الذات الإلهية، ومصباح الحرم كناية عن المسلم فالله يحب المسلمين وهو يحب أن

طلسم الجهل هو الكفر والتدين
 وحديث الشيخ والبرهمن ليس إلا سحر وخرافة .
 فليكن ذلك العبد الدرويش نصيب هذه الأرض
 ففي فقره تكمن طرق الكليم .
 إلى متى تبقي لآليء^(١) بحيرة ولر^(٢) الفريدة من نوعها
 مختفية عن أعين الزمان .



العالم مضطرب من قوة عملهم
 فالأم الحية خاضت معارك كبيرة .
 إن تقويم المنجم للغد باطل
 فالنجوم القديمة سقطت من السماء .
 ضمير العالم ملتهب بدرجة عظيمة
 حتى إن أمواج البحر كسرت النجوم .
 الأرض لم تعد خالية من الزلازل
 فالدلائل الدقيقة للفطرة ظاهرة^(٣) .

يتبع المسلمون سنة رسوله حتى يقتربوا منه ويحبوه فتفتح أمامهم خزائن رحمته وكأنه يشير إلى
 الحديث: «إذا تقرب مني عبدي ذراعاً... الخ» .

(١) لآليء كناية عن مسلمي كشمير .

(٢) بحيرة ولر: بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف وكانوا من المسلمين،
 والمقصود هنا مسلمو كشمير .

(٣) ينصح المسلمين أن يتعلموا من حوادث الزمان إذا لم يستطيعوا إدراك الحقائق . فاعتبروا من الزلازل
 التي تحدث على هذه الأرض فتحدث ثورة من بعد ثورة فتعلموا من هذه الظاهرة .

إن الخضر - قابع - يفكر على شاطئ بحيرة ولر^(١)
إلى متى تفور عيون الهملايا !! .

﴿١٣﴾

هذا هو دليل الشعوب الخالدة على مر الزمان:
أن تقديرهم يتغير صباح مساء .
حياتهم هي كمال الصدق والمروءة
حتى الفطرة أيضا تعفو عن تقصيرهم .
أعمالهم كأعمال القلندر، وجلالهم كالجلال الإسكندري
هذه الأمة في العالم كالسيوف المسلولة .
إن جمال وجلال الرجل العارف يكمن في معرفة ذاته
هذا هو الكتاب، وما تبقي كله تفاسير له .
أنا لا أنكر عظمة العيد
لكن ما يقبل هو تكبيرات الحر^(٢) .
كيف يعرف الحكيم سر نعماتي
وأن تدابير أهل الجنون فيما وراء العقل^(٣) ؟

(١) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥-٨٢)، والخضر إما إشارة إلى الشاعر نفسه أو إشارة إلى الأمة المتعاطفة معه، والخضر ينتظر يشاهد متى تظهر عاطفة الجهاد في قلوب مسلمي كشمير .

(٢) وهو ما كان يشاهده في منظر المسلمين وتجمعهم في المسجد لكن الله يقبل فقط تكبير الأحرار الذين لا يشركون بالله والذين يطيعون الله ورسوله .

(٣) إن الفليسوف أو المفكر لا يدري شيئا ولا يمكن أن يعرف شيئا عن قدر رسالتي وأنا أقول للمسلمين لا تقلدوا العرب والتعليم الغربي هو لكم سُم قاتل فابتعدوا عن حضارة الغرب، واتبعوا أوامر الرسول ﷺ، واتبعوا سنته .

﴿١٤﴾

كيف تقامر - قمار الحياة - كالكفار؟
 ذلك أنك تسير مع الزمان ولا تسير مع نفسك .
 لم أر في مدارس الحرم مرة ثانية^(١)
 قلب جنيد ونظرة الغزالي والرازي^(٢) .
 في حكم المفتي الأعظم الذي هو نفسه حكم الفطرة الأزلية
 أن أعمال الصقور حرام في عقيدة الصعوة .
 قال ذلك الفقيه الأزلي للصقر الصغير
 عليك أن ترتبط بالسما ولا تتعلق بالأرض .
 أنا الذي لا أقلع عن الكلام الصريح
 خوفاً من وشيهم بي لدى السلطان .
 قدم التحيات منا نحن الفقراء إلى ترك شيراز^(٣)
 فليس في أيدينا سمرقند وبخارا^(٤) .

﴿١٥﴾

ضمير الغرب ضمير التجار ، ضمير الشرق ضمير الرهبان^(٥)
 هناك التغيير المستمر في كل لحظة ، وهنا لا يتغير الزمان .
 قال لي الخضر على شاطئ البحر وكأنني محرم لأسراره :

(١) المقصود المدارس الإسلامية .

(٢) أي أصحاب العقل والحكمة من المسلمين . توفي جنيد البغدادي عام ٩١٠م في بغداد ، والإمام الغزالي معروف ولد في طوس عام ١٠٥٨م ، وتوفي عام ١١١١م ، والرازي ولد في الري عام ١٠٤٤م .

(٣) المقصود بترك شيراز المحبوب .

(٤) إشارة إلى شعر حافظ :

اگر این ترک شیرازی بدست آرد دل مارا * بخال هندویش بخشم سمرقند وبخارا را

(٥) المقصود بالضمير هنا العقلية والطبع .

إن طرق الإسكندر^(١) والقلندر كلها طرق سحرية .

آلهة الخانقاهات^(٢) يعتبرونني ندآ لهم

ويخشون أن ينشق حجر عتبتهم من نواحي .

النصيحة الواضحة والعلامة المميزة لعلم ومعرفة الأم المستعبدة :

أن الأرض لو ضاقت فيها هو فضاء الفلك بلا حدود .

لا أعرف بماذا أسميه ، هل أسميه خداع الله ، أم خداع النفس؟! .

إذ أن المسلم أصبح خالياً من العمل بعد أن اختلق من القدر عُذراً له .

قال غصن الورد عن أسرى قولاً أبكى الصياد :

إن عش هذا المغرد المقعم بالحرقة لم يكن ثقبلاً عليّ .



يا أيها الوطن العزيز^(٣) لا حاجة للشرح والبيان

عن صورة قلبنا المليء بالدم ، كشقائق النعمان^(٤) .

التقدير هو اسم لمكافأة الأعمال

هذه هي رسالة آلهة الهمالايا^(٥)

جسده عار في ربح الشتاء

ذلك الذي يقدم للأمراء رداء من الصوف بفته وإبداعه .

(١) كناية عن الناس غير المؤمنين الذين يجلسون عند أبواب شيوخ الخانقاهات ، وبينما أفصح مسلكتهم

المشين يتضرعون إلى الله الا تنكشف مساوئهم بما أنشده من اشعار .

(٢) طرق الاسكندر هي طرق السيطرة وطرق القلندر هي طرق الرهبانية وهنا كناية عن العجز وحياة الاستعباد .

(٣) أي كشمير وأهلها .

(٤) كناية عن شباب كشمير والمعنى لا تحكوا لي قصة مصائبكم فانا أعرفها قبلا .

(٥) كناية عن حكماء الهندوكية الذين يرون أن جزء الاعمال يكون عن طريق التناسخ .

لا تأمل في وفاء دولة الدنيا

فهي كالغزال، الهروب من طبعها

﴿١٧﴾

حرام على من علمته معرفة الذات نسيان الجسد

حرام على هذا الرجل المجاهد أن يلبس الدرع^(١)

﴿١٨﴾

احمل على ذلك العزم الرفيع، واستمع عويلي

لكي تقوم القيامات في صدرك أيضاً^(٢).

﴿١٩﴾^(٣)

أنا غريب هذه المدينة، فاستمع إلى عويلي^(٤)

لكي تقوم القيامات في صدرك أيضاً.

أغنياي الممزوجة بالغم والحزن متاع عزيز

ونعمة القلب الحزين ليست عامة في هذه الدنيا.

أنوح وأشكو من ذوق هذا الزمان الأعمى

الذي فهم محنتي على أنها محنة فرهاد^(٥).

أعرف أن الصوت الذي ينبعث من ضرب الفأس على الحجر

(١) على الإنسان أن يرى ذاته وأن يتقرب إلى الله بطاعته، وأن يجاهد في سبيل الله، ولا يخشى الموت

في سبيله وتربية الذات هي السبيل الذي يجعل المؤمن لا يهاب الموت ويجعله مجاهداً في سبيل الله.

(٢) أيها الكشميريين المسلمين إذا ظهرت لديكم رغبة الكفاح مثل أجدادكم فسوف تتألون النصر في المعركة لا محالة.

(٣) أنشد إقبال هذه الأبيات قبل وفاته بعدة أشهر.

(٤) غريب عن المجتمع لأنني أقول لكم كلاماً لا يعجبكم بل يختلف عما تعتقدونه.

(٥) ذلك لأن فرهاد فعل ما فعل من أجل نفسه ومن أجل مصلحته الخاصة.

أعرف أنه صوت آخر، فهو صوت الفأس والكبد معا^(١).

إلى سير أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدكن^(٢)

كان هذا من أمر الله أن يعطي القلندر

ذو الصفات الملكية عظمة برويز^(٣).

قال لي: خذ وصر حاكما واعط الثبات

لحسن التدبير لكل ما هو آت ولكل ما فات.

كنت مستعدا لأن أتحمّل عبء هذه الأمانة على كتفي

لأن طعم كل ما هو مُر يصير في حلق الدرويش كالسكر.

ولكن غيرة فقري وعظمته لم تستطع أن تقبل ما قدمه

حين قال، هذه زكاة لألوهيتي.

حسين أحمد^(٤)

لا يعرف العجم حتى الآن أسرار الدين

وحسين أحمد - وهو من ديوبند - لا يعرف كذلك باللعجب.

إن من يخطب على المنبر قائلا: بأن الملة قائمة على الوطن

إنما هو جاهل بمقام محمد العربي^(٥).

(١) فرهاد كان يضرب بفأس الحجر أما أنا فأضرب بفاسي الكبد.

(٢) كان رئيس وزراء الهند وأرسل شيكا بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده لكن إقبال أعاد له الشيك مع هذه الأبيات.

(٣) أي: المال والدنيا.

(٤) كان من علماء الهند ويعد من مؤسسي مدرسة ديوبند، ومن أنصار حزب المؤتمر وهذه الأبيات بالفارسية، وكان قد ألقى خطبة في يناير ١٩٣٨م قال فيها: بأن الأمم تبنى بالأوطان، ولهذا فأساس

القومية الإسلامية ليس الإسلام بل الوطن مما أغضب إقبال فكتب هذه الأبيات بالفارسية.

(٥) يقصد الدين.

اتبع أصحاب المصطفى إذ هذا هو الدين كله
فإذا لم تصل إليه فستكون أعمالك أعمال أبي لهب .

السيد الإنسان^(١)

وصل العلم والفكر في هذه الدنيا إلى درجة أنه

لا يمكن لشيء أن يخفى، فهذا عالم نوراني^(٢) .

لو نظر أحد لرأى أن حجاب الفطرة رقيق إلى درجة

أن البسمات الخفية للملائكة تظهر واضحة .

هذه الدنيا دعوة لابن آدم، أن يشاهد وينظر

فكل مستور قد وهب ذوق التعري .

هذا هو ابن آدم الذي جعل الله الأنهار

تفيض من دمعه الدامية .

هل يعرف الفلك لمن هذا المسكن الترايبي؟

هل يعرف أن الهدف من خلق النجوم هو حراسة بيت من؟^(٣)

لو أنني مقصود الكل فما هو «الماورائي»

وما هي نهاية اضطراباتي المتجددة؟؟^(٤) .

(١) في هذه الأشعار خلاصة ما كتبه إقبال عن الإنسان أشرف المخلوقات خليفة الله على الأرض، والكائنات كلها في خدمته .

(٢) أي لو تخلق الإنسان بالصفات العالية وتقرّب إلى الله فستخضع له الكائنات كلها

(٣) الملائكة لا تعرف عظمة هذا الإنسان، فهل تعرف الملائكة أن القمر والنجوم بل جميع الكائنات مسخرة لخدمة هذا الإنسان .

(٤) أي أن الإنسان هو سيد الكائنات كلها والكائنات مسخرة له، ولا يوجد سوى الإنسان يستفيد من هذه الكائنات، ولهذا فعليه أن يطور وينمي روحانيته بطاعة الله وعبادته لله وحده لا شريك له .

خاتمة

وهكذا رأينا أن القرن التاسع عشر منذ بدايته كان فترة قلق شديد في بلاد العالم الإسلامي، فتلاحقت فيه الدعوات بغير انقطاع؛ فلم يخل بلد واحد في العالم الإسلامي من دعوة أو من حركة أو من ثورة، وكل هذه الدعوات كان لها أثرها المباشر في البلاد الهندية إلا أن المسألة التي تضاءلت إلى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الإسلامي هي مسألة الخلافة. وبينما الهند تغلي مراجلها بالثورة تارة والسلبية والمقاومة تارة أخرى إذا بمصطفى كمال يلغي الخلافة، فتحولت جهود المسلمين الهنود إلى الداخل، وكان اجتماع الأفكار على استقلال المسلمين في الهند نتيجة طبيعية لحنوطهم من عمل شيء ناجح في إبقاء الخلافة العثمانية بعد أن تخلى عنها أبناؤها، كذلك كانت مسألة الخلافة بين مسائل العالم الكبرى - عاملاً مهماً في قيام الباكستان هذا ما كتبه العلامة محمد إقبال إلى القائد الأعظم محمد علي جناح.

ونتيجة لكل الظروف الماضية ذهبت مدرسة محمد إقبال لتحمل لواء الثورة التجديدية في الفكر الإسلامي، وإقبال المتفائل يؤكد أن شباب المسلمين يسعون حقاً إلى اليقظة الكبرى، من هنا كان لابد من توجيههم توجيهاً جدياً بعقيدتهم الإسلامية وبروح مستقلة تنفض نتائج الفكر الأوربي، لتكشف عن المدى الذي يستطيع بهذه النتائج أن يعيننا على إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وليس هذا فقط بل على بنائه من جديد إذ لزم الأمر.

ومن هنا كان شعر محمد إقبال، وكما يقول نقاد الأدب بالمصطلح الحديث: «شعر الالتزام» بمعنى أن الشاعر الفيلسوف يرى أن الكلمة فعل، والفعل تغيير للفرد وللجماعة، وبعبارة أخرى نقول: إن الشاعر - في نظر إقبال - لابد أن يكون «صاحب رسالة» ورسالة شاعرنا رسالة اجتماعية على الأصالة، بغيتها تغيير العقلية والأخلاق، وقد كانت وسيلة الشاعر لتحقيق هذه الغاية النقد الموضوعي أو

السخرية الرقيقة .

أما عن الناحية الأدبية الخالصة فقد رأينا كيف كان ذوقه في الشعر الفارسي ذوقاً فطرياً، وأن اعتراض البعض عليه وجد ردأ لدى الأدباء والشعراء الإيرانيين أنفسهم، ردأ لدى ملك الشعراء بهار، وبقية الشعراء الإيرانيين الذي سلموا بقدره إقبال على الشعر الفارسي ومهارته، وتمكنه من اللغة، والدكتور حسين الخطيب أشار كثيراً إلى هذا، ولا يمكن أن نذهب مع القائلين بأن أسلوب إقبال هو الأسلوب الهندي أو السبك الوصفي فإقبال أوجد أسلوباً جديداً بما وهبه الأسلوب الهندي للشعر من معان جديدة وتراكيب شعرية جديدة؛ فقد اتجه إلى الإبداع في المضامين الجديدة وإيجاد المعاني الحديثة مما أوجد جدة في الخيال، والشعر الفارسي الذي كان قبله في أكثر صورته كان متكلفاً وخارجاً عن حدود الطبع ودائرة العقل والفهم مما أدى إلى ظهور المضامين الضعيفة قليلة القيمة، والتشبيهات المبهمة والاستعارات والكنائيات البعيدة عن الذهن .

ونقطة أخرى جعلت من أسلوب إقبال أسلوباً إقبالياً خاصة به، ألا وهي ترجمته المصطلحات الأوربية بالفارسية، وأثر ذلك في طريقة البيان والأسلوب الذي ينتج عن دراية وإطلاع الشاعر على اللغات الأجنبية للشعراء المعاصرين، كل هذا أحدث تغييراً في أسلوبه، ولم يكن لشعراء الفارسية الهنود نصيباً من هذا، والصفة البارزة لإقبال والتي جعلته سابقاً للشعراء هو ما يمتاز به من رقة المضمون، واتساع معلوماته، وإدراكه للحقائق السامية التي تتناسب مع ما تقدم من معارف عصره، وإقبال يفهم أسلوب الشعر الفارسي القديم، كما أنه يقتبس منه إلا أنه لم يجعله يسيطر عليه بل حدث العكس .

أما عن الشعر الأردني فيمكن أن نقرر أن إقبالاً هو خليفة الشاعر حالي فقد أصبح ميدان الشعر الأردني بعد حالي وأزاد خالياً، وساد إحساس بأن الأدب قد خلا ميدانه ونضب معينه حتى جاء صوت إقبال، وصدق المثل القائل: « ما يأتي

أخيراً يكون خيراً»، ولو أن إقبالاً قلداً أحداً من الشعراء، فقد قلّد ميرزا غالب إلا أن هذا فقط كان من ناحية الألفاظ واللغة والتراكيب والأسلوب، وفي المرحلة الأولى من حياته، ونال إقبال مكانة مرموقة منذ البداية، فظهرت منزلته بين شعراء الأردن في عصره، وترجم عن الإنجليزية ونظم ما ترجمه ولاقى رواجاً كبيراً.

ورغم أن البداية الأولى لشعر إقبال كانت بالأردنية لكنه بعد عام ١٩٠٨م ترك الأردن وبدأ الكتابة بالفارسية، ونحن نشاهد أثر الشعر الفارسي في شعر إقبال الأردني، وبمطالعة أشعاره الأردنية التي طبعت بعد «بانگ درا» نلاحظ أن طريقة التفكير والبيان لدى إقبال قريبة جداً من الطريقة الفارسية، وبنفس الطريقة التي يظهر بها تأثير الشعر الإنجليزي في بداية أشعاره الأردنية فكذلك يظهر في آثاره الأردنية المتأخرة نفس اللون الموجود عند حافظ والرومي، فنرى أشعاره مملوءة بالحرارة والحمية والذوبان، وهو الطابع الذي نراه في أشعارهما.

وكانت لغته الأردنية في شعره لغة صافية واضحة وسهلة، وسلاسة اللغة ونقاؤها أوجدتا في فنه الجاذبية، فلا يخفى علينا أن إقبالاً نشأ في إقليم البنجاب فكان بريق ولمعان هذا الإقليم في لهجته وعلى شفثيه، وما ترجمه إقبال عن الإنجليزية لم يكن ترجمة بل كان خلقاً لأعمال من جديد، فقد أضاف إلى هذه موضوعات كانت اللغة الأردنية والأدب الأردني في بعد عنها، وكم كان صعباً أن يضع المضامين الفلسفية في قالب الشعر الأردني إلا أنه أدى ذلك بمهارة فأوجد في اللغة الأردنية مجالات شعرية رحبة وجديدة.

وبصورة عامة رأينا أن شعر إقبال رحب جداً فبالإضافة إلى إيمانه بالقدره على التطور اللامحدود ثم وضع الإنسان الفريد في الكون نجد أيضاً ضمن موضوعاته موضوعات مثل: قطة بين ذراعي فتاة إنجليزية، «المباني التاريخية في قرطبة»، «زيارة لقبر نابليون»، «شكسبير» «نيتشه» «جوته» «غالب» «اينشتين»... الخ، كما أنشد في كل الموضوعات سواء على كوكبنا أو على الكواكب الأخرى، واقتضت

هذه الرحابة في شعره تعدد الاستعمالات في الفن الشعري، وما عند إقبال ضخم وهائل فقد ترك لنا شعراً بلغتين وأوشك أن يكتب بالثالثة حين وافته المنية وما عدا الشعر الدراسي لا يوجد أي نوع من أنواع الشعر لم يكتب فيه إقبال فقد كتب شعراً غزلياً وفلسفياً وملحمياً وصوفياً، كتب في الرثاء والسخرية والمدح وغيرها، وهو في شعره الفلسفي يذكرنا بالرومي، وفي شعره المحلمي يذكرنا بدانتي وملتن، وفي شعره الغزلي يذكرنا بحافظ؛ أما شعره في الرثاء فيقف ندا للمتنبّي وتصويره للطبيعة يعيد للأذهان وورد ورث، وباختصار فإن كلام إقبال يمثل أمام أعيننا جوهر البلاغة في المعاني والألفاظ، فقد قدم لنا الصور المجردة بروعة فائقة في قالب الحياة والحركة.

وأرمغان حجاز آخر ما كتب إقبال، يحمل آخر أفكاره ونظرياته ويجمع كل حياته، وبه أضخم عدد من رباعياته، كتبه بلغتين إلا أنه كما هو دائماً غلبت الفارسية على الأردية وجه حديثه إلى الله والرسول، وخاطب الأمة ورفقاء الطريق ثم ارتفع بصوته ليخاطب العالم الإنساني، وتمثل في الديوان فلسفة إقبال عن الذات واضحة جلية، وكما نرى فيه ذكراً للإنسان الكامل ووصفاً له، نرى فيه إشارات من إقبال إلى مصادر فكره، إشارات إلى القرآن الكريم والحديث النبوي، وإلى الرومي وغيره من الصوفية؛ كما يشير إلى الحضارة الغربية، وفي ارمغان حجاز (هدية الحجاز) صرح إقبال معلناً الحرب على الحضارة الأوروبية الزائفة محذراً من بريق وخداع الفرنجيات، ومحذراً بنات الأمة من التفرنج، وإقبال يدعو الله ويناجي الرسول، وينصح الأمة أن تتمسك بالإسلام؛ ففي مجلس شوري إبليس يوضح أنه النظام الذي يستطيع أن يقضي على كل الأنظمة الإبليسية، وهو لا ينسى الحديث عن الموت والقبر فقد كان في أواخر أيامه.

نرى في أرمغان حجاز كل دواوين إقبال ابتداء من أسرار خودي إلى أن نصل إلى ضرب كليم ، وفيه أيضا الشعر الوجداني والفلسفي والشعر الإنساني ، والأخلاقي ، والشعر التعليمي ، كما أنه يشمل أضخم مجموعة من الرباعيات بالإضافة إلى القطع والمنظومات الأردنية ، وأيضا الرباعيات الأردنية ، به شعر فلسفي وآخر تمثيلي فيه مرثيات وتهكم وسخرية . وهو فوق كل هذا متسق القافية منظم اللحن استخدم فيه إقبال الجناس والسجع فأضفى صوتا سحرياً كما نحس العاطفة التلقائية العفوية والخيال مما يجعل من رباعياته وحدة طبيعية جذابة .

والحقيقة لا يوجد هناك شاعر في الأدب الأردني أو الفارسي خلف رباعيات غطت باتساع الموضوعات السياسية والفلسفية وموضوعات الزهد كما غطت موضوعات الهجاء والسخرية والفكاهة . . . وفي كل هذا تمثلت عظمة إقبال كشاعر ومفكر .

المراجع

أولاً: المراجع العربية :

أحمد الشايب (دكتور) :

- ١٩٥٥ القاهرة * أصول النقد الأدبي
- إقبال (محمد إقبال) عباس محمود (مترجم)
- ١٩٥٥ القاهرة * تجديد الفكر الديني في الإسلام
- إبراهيم أمين الشواربي دكتور «مترجم»
- ١٩٥٤ القاهرة * تاريخ الأدب في إيران
- الثعالبي
- القاهرة * قصص الأنبياء
- الجيلي
- القاهرة * الإنسان الكامل
- رشاد رشدي (دكتور)
- ١٩٦٢ القاهرة * مقالات في النقد الأدبي
- الساداتي . أحمد محمود (دكتور)
- ١٩٥٧ القاهرة * تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (ج ١)
- ١٩٥٩ (ج ٢)

- سلامة موسى
- ١٩٦٢ القاهرة * غاندي والحركة الهندية
سهير القلماوي (دكتور)
- ١٩٥٨ القاهرة * النقد الأدبي
عبدالمنعم النمر (دكتور)
- ١٩٨١ بيروت * تاريخ الإسلام في الهند
عزام عبدالوهاب (دكتور) (مترجم)
- ١٩٥٥ القاهرة * الأسرار والرموز
- ١٩٥١ كراتشي * بيام مشرق
- ١٩٥٢ القاهرة * ضرب كليم
- ١٩٦٠ القاهرة * محمد إقبال
- القشيري
- القاهرة * الرسالة القشيرية
العقاد. عباس محمود
- ١٩٥٢ القاهرة * محمد علي جناح
مندور. محمد (دكتور)
- ١٩٦٠ القاهرة * فن الشعر

معلوف . محمد أحمد (دكتور)

- ١٩٦٩ القاهرة * القاديانية
 زكي نجيب محمود (مترجم)
 ١٩٥٧ القاهرة * الهند وجيرانها

ثانياً: المراجع الفارسية :

إقبال

- ١٩٤٨ لاهور * اسرار خودي
 ١٩٤٨ لاهور * رموز بے خودي
 ١٩٢٤ لاهور * پیام مشرق
 ١٩٤٧ لاهور * جاويد نامه
 ١٩٤٨ لاهور * زبور عجم (وبه گلشن جديد وبنديگي نامه)
 الرومي . جلال الدين
 طهران * فيه ما فيه (ط . فروزان فر)
 شبلي النعماني
 اعظم گڑه ١٩٢١ * شعر عجم (ج ٢)
 عبدالحميد عرفاني

- ۱۹۵۷ کراچی * ضرب کلیم
- مجتبیٰ مینوی
- ۱۳۲۷ طهران * اقبال لاهوری (دیماہ)
- ثالثا: المراجع الازدیة :**
- اختر حسین
- ۱۹۶۴ کراچی * ادب اور انقلاب
- اقبال میاں اختر
- ۱۹۶۵ کراچی * اقبالیات کا تنقیدی جائزہ
- اقبال
- ۱۹۵۷ کراچی * مضامین اقبال
- ۱۹۵۷ کراچی * خطوط اقبال بنام جناح
- ۱۹۶۵ کراچی * اقبال نامہ
- ۱۹۴۶ حیدرآباد (دکن) * فلسفہ عجم
- ۱۹۶۵ کراچی * ملفوظات اقبال
- ۱۹۴۷ لاہور * بال جبریل
- ۱۹۴۹ لاہور * بانگ درا

- ۱۹۴۷ لاہور ★ ضرب کلیم
خليفة عبدالحکيم
★ رومي عصر
عبدالحميد عرفاني
- ۱۹۶۵ کراچي ★ اقبال ايرانيوں کي نظر ميں
سر عبدالقادر
- ۱۹۵۸ کراچي ★ شرح بانگ درا
محمد طاهر فاروقي
- ۱۹۶۶ پشاور ★ خيابان اقبال
يوسف حسين
- ۱۹۴۲ دهلي ★ روح اقبال

رابعاً: مراجع بلغة البشتو:

- لطف الله بدوي
- ۱۹۵۷ کراچي ★ حیات اقبال

خامساً: المراجع الإنجليزية :

- Arberry, A.J.
- ★ **Persian Psalms** Lahore 1948
- Bilgrami, H. H.
- ★ **Iqbal 's Mind and Thought** Lahore 1957
- Browne,
- ★ **A Literary History of Persia iv**
- Dar, B. A,
- ★ **Letters and Writings of Iqbal** Karachi 1967
- ★ **In Momeriem 11** Karachi 1968
- Iqbal, M.
- ★ **The Development of Metaphysics in Persia**
- London 1908
- Jawaharlal Nehru.
- ★ **Discovery of India** India 1957
- Nicholson, R. A.
- ★ **The Secrets of The Self** Lahore 1950
- Percival Spear
- ★ **India, Pakistan and the West** London 1924

-
- Ram Gopal
- ★ **Indian Muslims, A political History** **Bombay** **1959**
- Smith, V. A.
- ★ **The Oxford History of India** **London** **1923**
- Wahid S. A.
- ★ **Iqbal, His Art and Thought** **London** **1959**
- ★ **Introcudtion to Iqbal.** **Karachi** **1957**

★★★★★

سادساً: الدوريات :

١٩٦٧	أغسطس	بيروت	* الوعي
١٩٦٨	ديسمبر		
١٩٥٢	عدد ١١	القاهرة	* مجلة الكاتب
١٩٦٧	نوفمبر	القاهرة	* محاضرة سفير باكستان بالأزهر
١٩٣٨	فبراير	القاهرة	* المقتطف
١٩٣٨	مارس		
١٩٦٩	مارس	كراچي	* هلال مهنامه
١٩٦١	يوليو	كراچي	* إقبال ريويو
١٩٦٢	يونيو	كراچي	
١٩٦٨	يوليه	كراچي	

Pakistan Publication

★ Struggle for Independence

Karachi

1958

الفهرس

٣	تقديم
٥	مقدمة المؤلف (الطبعة الثالثة)
٦	مقدمة الناشر
٨	مقدمة المؤلف (الطبعة الأولى)

القسم الأول

١ - العصر

١١	الفتح الإسلامي
١٣	الغزو البريطاني للهند
١٥	المسلمون بالهند
١٨	موقف المسلمين في المجتمع الهندي
١٨	المسلمون والهندوس
٢٠	المسلمون وفكرة الخلافة
٢٤	الوحدة الإسلامية الهندوسية
٢٤	بين النجاح والفشل
٢٩	ب- فشل تحقيق الوحدة بين المسلمين والهندوس
٣١	اتجاه الفكر الإسلامي لإنشاء باكستان

دور إقبال :

أولاً : موقف إقبال من حركات التجديد في الإسلام ودعوته إلى :

١ - الجهاد ٣٣

٢ - الوحدة ٣٥

٣ - التطور ٣٦

ثانياً : إقبال وموقفه من فكرة الجامعة الإسلامية ٤١

ثالثاً : إقبال وموقفه من فكرة القومية ٤٤

رابعاً : إقبال وموقفه من الوحدة الإسلامية الهندوسية ٤٥

خامساً : إقبال وموقفه من السياسية ٤٨

سادساً : إقبال وموقفه من إنشاء باكستان ٤٨

٢ - إقبال المفكر :

ثقافة إقبال والفكر الإسلامي ٥١

الجوانب الفلسفية عند إقبال ٥٣

نظرية الإنسان الكامل ٦٢

مشكلة الحرية ٦٤

مسألة الزمان ٦٥

فلسفة العمل ٦٦

مصادر فكر إقبال:

- أولاً: القرآن الكريم ٤٩
- الرسول صلى الله عليه وسلم ٧٣
- ثانياً : المصادر الغربية : ٧٥
- الفلسفة اليونانية ٧٥
- جوته ٧٥
- فيشته ٧٥
- برجسون ٧٤
- نيتشه ٧٤

٣ - إقبال الأديب :

أولاً : دواوين إقبال:

- ١ - اسرار خودي ٧٨
- ٢ - رموز بيخودي ٨٢
- ٣ - پیام مشرق ٨٤
- ٤ - بانگ دار ٨٧
- ٥ - زبور عجم ٩٠
- ٦ - جاويد نامه ٩١
- ٧ - مسافر ٩٧
- ٨ - بال جبريل ٩٨

- ٩ - ماذا ينبغي أن نعمل يا أم الشرق؟ ١٠١
- ١٠ - ضرب كلميم ١٠٢
- ١١ - ارمغان حجاز ١٠٤

ثانياً : أدب إقبال :

١ - الفن الشعري عند إقبال :

- أ- رأي إقبال في فن الشعر ١٠٥
- ب - الموضوعات الشعرية ١٠٩
- ج - المذهب الأدبي لإقبال ١١٠
- د - رسالة شعر إقبال ١١٨
- هـ - أثر الأدب العربي في أدب إقبال ١٢٠
- و - بعض ابتكارات إقبال
أولاً : التجديد في التعبيرات الشعرية :

الشعر الفارسي ١٢٤

الشعر الأردني ١٢٨

ثانياً : التجديد في القالب الشعرية ١٣٠

ثالثاً : التجديد في الخيال ١٣٣

رابعاً : معالجة الطبيعة ١٣٥

خامساً : البلاغة والفصاحة ١٣٨

٢ - الأنواع الشعرية التي نظم فيها إقبال ١٤٢

- أ - الشعر الغزلي ١٤٢
 ب - المثنوي ١٥٠
 ج - الهجاء ١٥٥
 د - الرثاء ١٦٠
 هـ - التاريخ الشعري ١٦٧
 و - الرباعيات ١٧٠

القسم الثاني

١ - ارمغان حجاز

أولاً: محتوى الديوان

- النظم الفارسي : ١٧٧
 إلى الحق ١٧٨
 إلى الرسالة ١٨٠
 إلى الأمة ١٨٥
 إلى العالم الإنساني ١٩٤
 إلى رفقاء الطريق ١٩٧
 النظم الفارسي :
 مجلس شوري إبليس ٢٠٠
 نصيحة بلوچ العجوز لابنه ٢٠٧

- ٢٠٧..... الصورة والمصور
- ٢٠٨..... عالم البرزخ - نداء من الغيب
- ٢٠٨..... الملك المعزول
- ٢٠٩..... مناجاة ساكني جهنم
- ٢٠٩..... مسعود المرحوم
- ٢١١..... صوت من الغيب
- ٢١١..... رباعيات
- ٢١٢..... مذكرات ملازاده ضيغم

ثانياً : دراسة تحليلية :

١ - الشكل :

- ٢١٥..... أ - التحليل الفني للأسلوب
- ٢١٧..... ب - الصورة الأدبية
- ٢١٩..... ج - الوزن والقافية والموسيقي

٢ - المضمون :

- ٢٢١..... أ - الشعر الوجداني والفلسفي
- ٢٢٢..... ب - الشعر الإنساني الأخلاقي
- ٢٢٥..... ج - الشعر التعليمي

العوامل المؤثرة في المضمون :

- ١ - المكان ٢٢٧
 ٢ - الزمان ٢٢٨
 ٣ - الاتصال بالشعوب ٢٢٩
 ٤ - الدين ٢٣١

عناصر المضمون في ارمغان حجاز:

- ١ - الفكرة ٢٣٤
 ٢ - العاطفة ٢٣٥
 ٣ - الخيال ٢٣٨
 ٤ - الحقيقة ٢٤٠

٢ - الديوان - « الترجمة » :

- إلى الحق ٢٤٢
 إلى الرسالة ٢٥٤
 إلى الأمة ٢٨٧
 إلى العالم الإنساني ٣٢٣
 إلى رفقاء الطريق ٣٤٤
 مجلس شورى إبليس ٣٦٠
 نصيحة بلوچ العجوز لابنه ٣٦٨

- ٣٧٠..... الصورة والمصور
- ٣٧١..... عالم البرزخ - نداء من الغيب
- ٣٧٤..... الملك المعزول
- ٣٨٤..... مناجاة ساكني جهنم
- ٣٧٥..... مسعود المرحوم
- ٣٧٨..... صوت من الغيب
- ٣٧٩..... رباعيات
- ٣٨٣..... مذكرات ملازاده ضيغم
- ٣٩٤..... سر أكبر حيدير
- ٣٩٤..... حسين أحمد
- ٣٩٥..... السيد الإنسان
- ٣٩٤..... خاتمة
- ٤٠١..... ثبت المراجع
- ٤٠٩..... فهرس الموضوعات

